الاستقامة على إرادة الإصلاح منهج دعوى

سورة هود التي شيبت رسول الله ﷺ

د أحمد نصير

تمهيد :-

عن ابن عباس قال : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله : أراك قد شبت ؟ قال : (**شيبتني هود** والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت)[1].

وعن أبي علي السري يقول : رأيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله روي عنك أنك قلت شيبتني هود قال : نعم فقلت : ما الذي شيبك قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : لا ولكن قوله : "**فاستقم كما أمرت**"[2]

قال الملا علي القاري (فإن السور التي هي أخواتها ليس فيها ذكر الإستقامة ، فأما أن يقال المقصود من ذكر القيامة والنار وأهوالهما إنما هو تحصيل الإستقامة ، فكأنها مذكورة في جميعها ، فيكون من باب أسلوب الحكيم)[3].

فالاستقامة تعني – بوجه عام – أن الاعتدال من غير إفراط في الطاعة عن حد الاعتدال أو تفريط وتقصير فيها ، وقالما يفعله الناس ، فكثير منهم إما يكون منهمكا في طاعة فيؤدى ذلك الإنهماك فيها إلى التفريط في غيرها أو أن يكون مقصرا في الجميع أو مفرطا في الكثير ، أما الذي استقام على الطريقة فذلكم هم القلة القلة

يقول الملا علي القاري (الإستقامة على الطريق المستقيم، أي : **من غير ميل** إلى طرفي الإفراط والتفريط في الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة عسر جدا) [4].

يعني بذلك أن الاعتدال من غير إفراط في الطاعة عن حد الاعتدال أو تفريط وتقصير قالما يفعله الناس ، فكثير منهم إما منهمك في طاعة ومؤدى ذلك التفريط في غيرها أو مقصر في الجميع ومفرط في الكثير ، أما الذي استقام على الطريقة فذلكم هم القلة القلة .

ومن وجه خاص فإن الاستقامة في شأن النبي ﷺ فإنها تعني (صبره على قومه واستقامته على منهج الدعوة ، وعدم التقصير في البلاغ شأنه عظيم عليه ، ولذلك **شاب شعره لعظم المسئولية** ، ولأن هم الدعوة عظيم) [5] .

قال المناوي (فإن شأن الاستقامة عظيم وخطبها جسيم ، ومن ثم قال الحبر ما نزل على المصطفى ﷺ آية آشق من هذه الآية ولا أعظم وهي (فاستقم كما أمرت) [6] ، ولذلك قيل أنه ﷺ (**ما رئي بعد نزولها ضاحكا إلا تبسما**) [7].

وقد وصف العلماء صعوبة الاستقامة وثقلها ، فقال المناوي (**الإستقامة خير من ألف كرامة** لكونها أصعب من جسر القيامة مع أنها أدق من الشعر وأمر من الصبر وأحد من السيف وأحر من الصيف) [8]

وقال الغزالي (الإستقامة على الصراط في الدنيا صعب كالمرور على صراط جهنم وكل واحد منهما أدق من الشعر وأحد من السيف .

---

[1]) رواه الحاكم ج2 ص 374 رقم 3314 صححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 26
[2]) رواه البيهقي : شعب الإيمان ج2 ص 472 رقم 2439
[3]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 291
[4]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 291
[5]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 291
[6]) فيض القدير ج1 ص 636
[7]) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ج13 ص 234 رقم 35497، الزهد لهناد ج1 ص 271 ، غريب الحديث لابن الجوزي ج1 ص 572 بلفظ (وفي صفته ما رئي ضاحكا مستشبطا أي ضحكا شديدا ، تفسير القرطبي ج17 ص 122
[8]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 291

وعن قال القشيرى : (الإستقامة درجة بها **كمال الأمور وتمامها** وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ،ومن لم يكن مستقيما في حال سعيه ضاع سعيه وخاب جده ، قال : وقيل الإستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها **الخروج عن المعهودات ومفارقة العادات والقيام** بين يدي الله تعالى على **حقيقة الصدق**)[1]

ومما يؤيد صعوبة هذا المرتقى قول النبي ﷺ: **[اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا]**[2] ، وفيه قولان : قالهما المناوي (لن تحصوا ثوابها أي الاستقامة أو لن تطيقوا أن تستقيموا حق الاستقامة لعسرها)[3]

قال الزمخشري أي (**لن تطيقوا الاستقامة في كل شيء** حتى لا تميلوا ; من قوله تعالى : "**عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهِ** ")[4] ، وهو قوله (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ...) ، أي (**ولن تطيقوا أن تستقيموا حق الإستقامة ولكن اجتهدوا في الطاعة حق الإطاعة ، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله**)[5].

قال ابن دقيق العيد (... ثم قد يقال **الحكمة في عدم الإطاقة على دوام الإطاعة** أن تراب الإنسان عجن بماء النسيان الناشيء عنه العصيان ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام كلكم خطاؤن وخير الخطائين التوابون فجنس الإنسان كنوع النسوان التي خلقن من الضلع الأعوج فلا يتصور منهن الإستقامة على صفة الإدامة وكل ميسر لما خلق له ولا يزول طبع عما جبل عليه) [6].

وقال الملا علي القاري والاستقامة تنقسم إلى استقامة عمل وقلب [7]:-

- فأما **استقامة العمل** : وهو الإقتصاد فيه غير متعد من منهج السنة ولا متجاوز عن حد الإخلاص إلى الرياء والسمعة أو رجاء العوض أو طلب الغرض .

ويجدر في هذا المقام التنويه والتنبيه إلى أن أعظم أركان استقامة العمل الصلاة بقوله (**وخير أعمالكم الصلاة**) ولن وفي رواية ولا (يحافظ على الوضوء) بإسباغه وإدامته واستيفاء سننه وآدابه (إلا مؤمن) كامل الإيمان وفيه بيان شرف الصلاة وكونها أشرف الطاعات والمحافظة على الوضوء بمراقبة أوقاته وإدامته وإسباغه والاعتناء بآدابه) [8]...

وقال الغزالي (لعزة الإستقامة والإحتياج إليها في كل حالة **أمر الله تعالى عباده بقراءة الفاتحة** المتضمنة للدعاء بالإستقامة أمر وجوب **في الأوقات الخمسة**).

- **واستقامة القلب** وهي الثبات على الصواب ، وعند المحققين هي استواء القصد في السير إلى الله ، وثبات القوى على حدودها بالأمر والنهي ... ومعنى استقامة القلب أن يكون **ممتلئاً من محبة الله، ومحبة طاعته، وكراهية**

---

[1]) ابن دقيق العيد : شرح الأربعين نووية ج1 ص 57
[2]) رواه ابن ماجة ج1 ص 326 رقم 273 وص 237 رقم 274 وصححهما الألباني صحيح سنن ابن ماجة ج1 ص52
[3]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 297
[4]) الفائق في غريب الحديث والأثر 1 ص 287
[5]) مرقاة المفاتيح ج1 ص 208 ، عون المعبود ج10 ص 233 ، ابن دقيق العيد : شرح الأربعين نووية ج1 ص 57
[6]) ابن دقيق العيد : شرح الأربعين نووية ج1 ص 57
[7]) وقيل وروح لكنني لا ارى وجها لهذه القسمة فاكتفيت بالعمل والقلب
[8]) فيض القدير ج1 ص 636

معصيته كما في قوله (وَلَكِنَّ اللَّهَ **حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الحجرات 7) ...

والقصص التي تحدثت عنها السورة هي (نوح – هود – صالح – ابراهيم – لوط – شعيب - موسى) ، ويبدو من سرد قصص الأنبياء في سورة هود أن ثمة مؤمنين بجانب الأنبياء **لم يذكر لهم دور بارز** في حوار النبي مع قومه أو جداله معهم أو تهديدهم له ، **وكل ما ذكر في شأنهم نجاتهم مع نبيهم**

وفي الختام ذكرت السورة أن الله ينجي المصلحين ، ما يعني أنهم **شاركوا أنبياءهم في المنهج الإصلاحي ولو بالقلب** إذا لم يكن لهم دور في الإصلاح باللسان ، وقد عجزوا جميعا عن الإصلاح باليد ، فسبحان الله الذي جعل العاقبة للمتقين لمجرد أنهم سلكوا منهج الإصلاح بما يستطيعون أي بالقلب واللسان ، فقبل أن يكيد قومهم أو ينقلبوا عليهم ، **قلب الله قراهم لأجل هذه الفئة المؤمنة بالله تعالى** ، التي تنكر المنكر بكل ما أوتيت من قوة ، وتعتذر إلى الله بأنها لا تملك من أسباب دفع المنكر غير ذلك ، وليس عن تقصير منهم في العمل ،وإنما هي **إرادة الله أن يخلي بينهم وبين الأسباب ليكون التوكل عليه وحده** ، ويضرب الله بهم المثال في نصره لعباده المستضعفين نصرا مؤزرا دون أن يملكوا من أسباب القوة المادية شيء غير الصلاة والدعاء .

وجاء التعقيب على هذا القصص جميعا ببيان سبب هلاك القرى بظلمهم ، وسبب النجاة من ذلك بالاستقامة على إرادة الإصلاح ، ويجدر التنويه إلى تكرار ذكر لفظ مجئ "أمر الله" أي عذابه وإهلاكه للظالمين ، ما يعني أن ذلك استثناء من قاعدة تأخير العذاب ليوم القيامة ، فيحصل التعجيل بأمر الله ، لتظل الدنيا دار ابتلاء ، إذ لو كان الناس جميعا مقهورين على المعصية فلا معنى هنا للابتلاء ، ولذلك يعجل الله عذابه ليخلي بينه وبين عباده .

ثم اختتمت السورة بجملة وصايا لرسول الله ﷺ والمؤمنين معه ، وذلك بحسب المحاور التي تدور حول محورها الرئيسي وهو الاستقامة ، واختتمت بتثبيت قلب النبي ﷺ بهذه التسلية ، وقلب كل من يشتغل بالإصلاح بين الناس ، وما الله بغافل عما تعملون .

محتوى الموضوعات

المقدمة منهج الإصلاح يرتكز على إجمال المطلوب ثم تفصيل المراد

المحور الأول : التوصيف الإجمالي لمواطن الخلل عند من اعوج عن الصراط المستقيم
المحور الثاني : استقامة نوح في دعوته الإصلاحية على منهج الولاء للقلة المؤمنة ، والبراء كافر وإن كان ابنه
المحور الثالث : استقامة هود مع المؤمنين علي البلاغ للمجرمين الجبارين حتى جاء الأمر بالاستبدال واستخلافهم
المحور الرابع : استقامة صالح على الرجاء في الله دون اكتراث لرجاء قومه فيه أو عنادهم معه
المحور الخامس : استقامة ابراهيم علي التزام الدعاء قوبلت بالبشرى ، واستقامته على المجادلة بالحق توافقت مع أمر الله
المحور السادس : استقامة لوط على إنكار المنكر بالقلب والقول وهو في حال الاستضعاف قوبلت بالفرج
المحور السابع : استقامة شعيب على إصلاح الفساد من موطن الاستضعاف حتى جاء وقت المفاصلة بتهديده بالرجم
المحور الثامن : استقامة موسى على الصدع بالحق في وجه فرعون دون اكتراث لعدد الأتباع
المحور التاسع : أخذ الله القرى الظالمة في الدنيا هو بداية لجمعهم يوم القيامة
المحور العاشر : إيصاء النبي محمد ﷺ وأصحابه وتابعيهم بالاستقامة

الخاتمة : تثبيت فؤاد النبي ﷺ على معنى أن الإصلاح يمنع هلاك القرى

مقدمة سورة هود الآيات (من 1 حتى 4)

منهج الإصلاح يرتكز على إجمال المطلوب ثم تفصيل المراد

قال تعالى (الَر كِتَابٌ **أُحْكِمَتْ** آيَاتُهُ ثُمَّ **فُصِّلَتْ** مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلاَّ **تَعْبُدُواْ** إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ **اسْتَغْفِرُواْ** رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ **يُمَتِّعْكُم** مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ **فَضْلَهُ** وَإِن **تَوَلَّوْاْ** فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللّهِ **مَرْجِعُكُمْ** وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ **لِيَسْتَخْفُواْ** مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (5) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ **رِزْقُهَا** وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (6) وَهُوَ الَّذِي **خَلَقَ** السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء **لِيَبْلُوَكُمْ** أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7)

استبان من هذه المقدمة أن منهج الإسلام في الدعوة إلى الله يقوم علي **الإصلاح علي وجه الإجمال بمعنى بناء الفرد المسلم بإصلاح عقيدته أولا** ، ثم الاهتمام بعد ذلك ببعض التفاصيل ، وليس العكس ، فلا ينبغي الانشغال في بناء الفرد بإصلاح أدق تفاصيل كالآداب المرعية ، ولا تزال العقيدة غير راسخة أو فاسدة ، ولذلك لابد من تربية الفرد المسلم على أن يقر في قلبه أنه **سوف يحاسب على ما يعمل من عمل** ، فيكون ذلك داعيا له بأن يوحد الله تعالى في العبادة ، فلا يعبد إلا هو ، وقد استبان له أن المرجع إليه وحده ، ولذلك كان النبي ﷺ يعتمد في إيصال القول علي البشارة والنذارة ، ترسيخا لمبدأ الثواب والعقاب ، أي الحساب والجزاء ، ليعلم الناس أنهم يجازون بالحسنة أضعافها ، وبالسيئة السيئة مثلها ثم لابد كذلك أن تتعضد **العبادة بالاستغفار والتوبة إلى الله والرجاء في الله** وسؤاله المتاع الحسن في الدنيا ، ذلك المتاع الذي يبلغوا به الدار الآخرة ، وعندئذ يؤتي الله كل ذو فضل فضلا كرما منه وفضلا.

كما التفت الخطاب لبيان حال الذين تولوا عن أهل الدعوة ، فبينت أولا كيف يتعامل المسلمون معهم ؟ وأنهم يظهرون الشفقة والخوف علي قومهم، ويذكرونهم أن المصير إلى الله ، وإليه يرجعون ، واستظهرت حال الذين تولوا عن الدعوة وقد تراءى لهم إشفاق المؤمنين عليهم ورجائهم أن ينجو جميعا من عذاب الله ، إذ تصفهم وهم يغشون ثيابهم مخافة أن يراهم رسول الله ﷺ ، وهو يمر بين أيديهم خجلا أن يراهم على الكفر فيأمرهم وينهاهم ، فيشق عليهم إظهار عصيانهم لأمره ، بما يستشف منه أن **العلاقة بين الداعي في سبيل الله والمدعو لابد وأن لا تقل عن حد الرجاء** ، إما لصلة القرابة أو حسن المعاملة ، حيث تستحيل الدعوة في ظل العداوة المطلقة .

وهنا جاء القرآن ليصحح منهج الرجاء والحياء ، فكما أنهم استحيوا من رسول الله ، **فأولى بهم أن يستحيوا من الله ، فلا يكون الرجاء إلا لله ولا الحياء إلا منه** ، وليس ذلك فحسب بل ينبغي أن يستكمل العبد أركان التوحيد ليعلم أن الرزاق هو الله ، وأن الخبير هو الله ، والمدبر لهذا الكون بسماواته وأرضه هو الله ، **فالله هو خالق الزمان ومقدر الأكوان ، وخالق المكان** ، ليكونا ظرفا الزمان والمكان هما الاختبار الذي يختبر فيهما الإنسان ، لينظر الله أيكم أحسن عملا ، ولذلك فإن حياء الكفار أن يراهم النبي ﷺ وهم متلبسون بالمعصية ، أمر يمهد الطريق لأن يتأمل الناس

في تدبير الله الكون ، فيزدادون طمعا في رضاه ، وأملا فيه إحسانهم العمل ، وهو يتوكلون على الله ، وهكذا يصلح الإسلام عقيدة الفرد المسلم .

كما يستظهر الغاية من خلق هذه الدنيا برمتها ، والتي تتلخص في كلمة (ليبلوكم) أي يختبركم ، فالناس يعيشون على هذه الأرض في هذه الدنيا لأجل أن يختبروا ، فيرى الله منهم من هو أحسن عملا ، فهو سباق يفوز فيه المحسنون .

قوله (الَر) هذه أحد الراءات الست في بستان القرآن ، وهذه الزهرة التي في البستان لها عطرها الخاص ولونها المميز ، حتى شاب شعر النبي ﷺ منها وانتشر بياض رأسه ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ قَالَ **شَيَّبَتْنِي هُودٌ** وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)[1].

والشيب كناية عن كبر السن ، وكثرة الهموم هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهو كناية عن تتابع المواعظ ، وتحصيل الكثير من خبرات الحياة ، وسبب شيب رسول الله ﷺ أنه نزلت عليه هذه السور ، وقد ورد فيها **الأمر بالاستقامة على الحق** ، قوله (**فاستقم كما أمرت**) كما ورد في الحديث المتقدم ذكره[2].

ويبدو الجمال الصوتي في الحروف (ألر) بتقطيع صوتي يشد السمع ويوقظ انتباه المستمع ببروز أصوات الألف واللام والراء المتتالية ، كما أن تنوع المخارج **للحروف الثلاثة** : أدى إلى تنوع الصفات بين همس الألف، وجهارة اللام، وتكرير الراء، مما يعطي جرساً متوازناً.

[1]) رواه الترمذي ج11 ص 106 ص 3219 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 2 رقم 15
[2]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج2 ص 472

إذ نلحظ أن المقطع الصوتي في الحروف المقطعة (ألف لام راء) جاء من مخارج متنوعة ، فنجد أن "**الألف" مخرجها من الحلق** ، ثم تجد أن مخرج "اللام" **من أدنى حافتي اللسان** إلى منتهاها مع ما يحاذيها من لثة الأسنان العليا، **ويُعد من أوسع مخارج الحروف، وفي** "اللام" مد حرفي مخفف ست حركات ، ثم يأتي **حرف "الراء" ليقطع الصوت** من مخرج منحرف ، فالبقعة التي يحتبس فيها الصوت غير البقعة التي يجري فيها، أي أن صوت حرف الراء يميل عن مخرجه الأصلي عند النطق به، حيث ينحرف الصوت إلى ظهر اللسان بدلاً من طرف اللسان ، والسبب في ذلك هو اعتراض طرف اللسان لتدفق الصوت، مما يجعله يميل إلى الخلف.

قوله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (1) قال الواحدي " أُحْكمتْ آياته" بعجيب النَّظم ، وبديع المعاني ورصين اللَّفظ "ثمَّ فصلت" بُيِّنت بالأحكام من الحلال والحرام ، وجميع ما يحتاج إليه)[1] ، فالإحكام هو نوع من الحبك يتضمن الإجمال ويسبق التفصيل لزوما ، أي أن آيات الله (محكمة في لفظها، مفصلة في معناها)[2] ، فمن الآية الواحدة تستنبط الكثير من الأحكام والعبر والمواعظ ، وهذا من إعجاز القرآن ، ذلك أن (آياته كاملة في نوع الكلام ،سلمت من مخالفة الواقع ، ومن إخلال المعنى واللفظ)[3] .

جاء في تفسير البغوي "أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ" قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به، "ثُمَّ فُصِّلَتْ" بُيِّنَتْ بالأحكام والحلال والحرام ، وقال الحسن: أحكمت بالأمر والنهي، ثم فُصِّلَتْ بالوعد والوعيد)[4].

بذلك **يتميز البيان الدعوي بإجمال الكلام للمخاطبين وبأسلوب محكم بديع لا يحتمل التأويل ليختصر عليهم الموعظة بأقل عبارات** ، فيكون الحديث بقدر الحادث ، ويكون الكلام المجمل محكما بمعنى أنه يتضمن المبادئ الأساسية والأصول الكلية للدين ، ثم يثني بالتفصيل لما تم إجماله ، ويُزاد علي التفصيل تفصيلا بحسب كل واقعة أو حادثة ، فيؤتى بالمثال للاعتبار والقصص للتذكرة والتشبيه والتمثيل والتعقيب ..الخ ، من هنا كانت الحاجة لأن ينزل القرآن منجما بحسب الحوادث ، أي أنه نزل بحسب الوقائع التي حصلت في زمن رسول الله ﷺ ليكون معالجا لواقع حقيقي وليس مجرد منهج نظري ، فيكون التفصيل مُطَبَّقا على واقع حي ومشاهد ، وهذا هو منهج القرآن في البيان لهذا الدين.

قوله (أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ ..) (هود/2) هذا هو التوحيد الذي أحكمه كتاب الله [5]، وعليه مدار أحكام الشرع ، فما من عمل صالح إلا وينبغي أن تخلص فيه النية لله ، وتفصيل ذلك له صور كثيرة ، منها توحيد الله بالحب والخوف والرجاء ، والاستعانة به وحده ، والتوكل عليه وحده ، والاستنصار به سبحانه ...الخ ، بهذا يلقن الله العباد أن العبادة توجه له وحده ، ولا ينبغي صرف أحد أوجه العبادة لغير الله تعالى .

---

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 333
[2]) ابن كثير ج4 ص 303
[3]) التحرير والتنوير لابن عاشور ج11 ص 199
[4]) تفسير البغوي ج4 ص 156
[5]) البحر المديد ج3 ص 26

قال ابن عاشور (عبارة " **أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ** " **تفسيرية** لما في معنى (أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ) [هود: 1] من الدلالة على أقوال محكمة ومفصلة فكأنه قيل: أوحي إليك في هذا الكتاب أن لا تعبدوا إلا الله، فهذه الجملة تفسيرية لما أحكم من الآيات لأن النهي عن عبادة غير الله وإيجاب عبادة الله هو **أصل الدين**، وإليه مرجع جميع الصفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل، وهو الذي **يتفرع عنه جميع التفاصيل**، ولذلك تكرر الأمر بالتوحيد والاستدلال عليه في القرآن، وأن أول آية نزلت كان فيها الأمر بملابسة اسم الله لأول قراءة القرآن في قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق: 1][1].

قوله (..إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) (هود/2) أي أن التأهب لتوحيد العبادة يتطلب تعويد القلب على الحذر والطمع في آن واحد ، بمعنى أن يعلم ما عند الله من العقوبة فيحذر معصيته ،ويعلم ما عنده من الأجر والثواب فيطمع في رحمته ، وهذا يتطلب الجمع بين أسلوبي الترهيب والترهيب في الدعوة إلى الله ، لأن أسلوب **الترهيب يوجه مباشرة لمن غفل عن أصل فطرته** التي فطر الله الناس عليها ، واتبع الشر تبعا لهواه ، مخالفا ما كانت عليه فطرته ، فيأتي خطاب الشرع لينذره بأسلوب الترهيب لينتبه ويرتدع عما انحرف إليه ،كذلك يتلون الخطاب الشرعي بالبشارة ، فتأتي **البشارة لمن مال إلى أصل فطرته السليمة فاتبع الخير** ، فيأتيه الخطاب بالبشري ليزيده هدى علي هدى ، يقول رسول الله ﷺ **(بشرى الدنيا الرؤيا الصالحة)** [2] ، ولعل رؤية النصر من بشرى الدنيا التي يمن الله بها على عباده ، لاسيما حين يرى دخول الناس في دين الله أفواجا ، وقد استعمله الله لذلك .

فتأصيل مفهوم الثواب والعقاب عند المسلم هو **أساس العقيدة الإسلامية** ، وبذلك تتميز هذه العقيدة عن غيرها من العقائد الباطلة التي تنكر فكرة الثواب والعقاب ، ويطلقون للحرية العنان ،كما أن **المسلم نفسه يحتاج دوما إلى من يذكره** فيرهبه من عذاب الله ، **ويبشره** بثوابه ، لأن القلوب تتقلب بين الذكر والغفلة ، وبين الحينة والحينة يحتاج إلى مثل ذلك ،ولذلك يقول النبي ﷺ **(إن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة** ، فمن كانت –فترته[3]– إلى سنتي فقد اهتدى ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك)[4]، قال ابن الأثير في قوله (فمن كانت فترته إلى سنتي) أي **(قصد الطريق المستقيم)**[5] أي أن لكل عمل طاقة قصوى ، ثم يلي بعد الوصول لقمة المنحنى – وهو ما يسمى بشِرَّه) في طاقة العمل هبوط وانحدار ، وهو ما يسمى بـ (فترة) أو فتور بعد قوة ، (إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ)[6].

قوله تعالى (وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ) استكمال لتفصيل الشرط والأمر المأمور به ، إذ يعضد التوحيد السليم العبادة الصحيحة ، وأساس العبادة الصحيحة الدعاء إلى الله ، لقول النبي ﷺ (الدعاء هو العبادة)[7] ، وخير

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 200

2) رواه الطبراني ، أخرجه أيضًا : الطيالسي (ص 131 ، رقم 976) ، والحميدي (193/1 ، رقم 391) ، وابن أبي شيبة (173/6 ، رقم 30452) ، وأحمد (445/6 ، رقم 27550) ، والترمذي (534/4 ، رقم 2273) وقال : حسن . والحاكم (433/4 ، رقم 8179) وقال : صحيح على شرط الشيخين .(جمع الجوامع للسيوطي 10501/1) وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1ص514

3) رواه ابن حبان في صحيحه ج1 ص 188 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج1 ص 13 ص 56

4) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج3 ص 399 رقم 3878 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 392 رقم 3915

[5]) النهاية في غريب الأثر ج 1 ص 165

6) رواه الترمذي ج8 ص 493 رقم 2377 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الترمذي ج5 ص 453

[7]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 249 رقم 714 وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد ج 1 ص 259

الدعاء الذي فيه استغفار وتوبة ، قال المناوي (**خير الدعاء الإستغفار**)[1] المقرون بالتوبة لأنه إذا استغفر بلسانه وهو مصر فاستغفاره ذنب يوجب الإستغفار)[2]، (وتسمى **توبة الكذابين**)[3]

ولا يستغنى عبد عن الاستغفار والتوبة ، حتى النبي ﷺ فقد كان أكثر الناس استغفارا ، فعن رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ)[4] ، والغين كناية عن الشغل بما لا ينبغي للنبي أن ينشغل به عن الذكر والدعوة والبلاغ ، قال الخطابي (أصله من الغين , وهو الغطاء وكل حائل بينك وبين شيء فهو غين , ولذلك قيل للغيم – السحاب– غين)[5]، قال عياض (المراد بالغين فترات عن الذكر الذي شأنه ان يداوم عليه فإذا فتر عنه لامر ما عد ذلك ذنبا فاستغفر عنه)[6] .

قوله تعالى (وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا) قال أبو حيان (قصد هود أول هذه السورة استمالتهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه بكثرة المطر وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زورع وبساتين وعمارات حراصاً عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء ، وكانوا مدلين بما أوتوا من هذه القوة والبطش والبأس مهيئين في كل ناحية)[7].

قوله تعالى (..يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى..) (هود/3) تلك هي المكافأة التي يعد الله بها الذين يستجيبون لدعوة التوحيد ، بأن يمتعهم متاعا حسنا ، قال تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) (نوح/10-12) ، والمعنى المقصود (**تخصيص المؤمن بطيب العيش** لرجائه في الله ورضاه بقضائه ، دون الكافر لأنه قد يتمتع في الدنيا بالأرزاق لكنه لا يهنأ بطيب العيش)[8].

والمقصود بالمتاع الحسن المذكور في الآية هو أن يطيب اللسان بذكر الله ، ويتعلق قلبه بالمساجد ، ويشغل أوقاته بالطاعات ، قال ابن القيم (كفى –بالدنيا– مدحا ، وفضلا لأولياء الله فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ، بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والأنس به **والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه والإشتغال به عمن سواه** ، وفيها –أي الدنيا – كلامه ووحيه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره فأخبر به من شاء من عباده)[9] .

ولهذا فضل كثير من العارفين هذا النعيم أي الأنس بالله والفرح بقربه على كل نعيم في الدنيا ، فقالوا (هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم ، وحقه أفضل من حقهم) وقالوا (**والايمان والطاعة أفضل من جزائه**)[10]، بهذا استحسنوا

---

[1]) انظر تخريج السيوطي : الجامع الصغير من حديث البشير النذير ج1 ص 381 وضعفه الألباني مرفوعا
[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 1066
[3]) فيض القدير ج3 ص 628
[4]) رواه مسلم ج13 ص 216 رقم 4870
[5]) شرح أبي داود للعيني ج5 ص 426
[6]) فتح الباري لابن حجر ج11 ص 101
[7]) البحر المحيط
[8]) ابن جزي : التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 683
[9]) عدة الصابرين ج1 ص 143
[10]) عدة الصابرين ج1 ص 143

العبادة ولم يجدوا في التكليف بها أية مشقة ، بل اللذة والسرور ، كما كان النبي ﷺ يقول عن الصلاة (يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا) [1]، وفي الصحيح: "وجعلت قرة عيني في الصلاة"[2]

أما المتاع الذي يشترك فيه الكافر والمؤمن في الدنيا ، فهو ما أحله الله من الطيبات ، والله تعالى اختص المؤمن – من هذا المتاع – بالمرأة الصالحة ، يقول النبي ﷺ (الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ) [3] ، وقد فهم أعداء الإسلام قوة المرأة الصالحة في تكوين شخصية الفرد المسلم المتوكل على الله ، فجعلوا معظم خططهم في محو هذه الصورة من المجتمع المسلم ليكونوا أقدر عن تنكيد الحياة على المسلمين ، ولذلك أتبع الله تعالى وعده بهذا المتاع بأنه موقوت بأجل مسمى ، وهو الموت ، وذلك لكي يتحقق الاختبار والابتلاء ،بالشر والخير فتنة ، فالدنيا وإن كانت متاع إلا أن هذا المتاع ما جُعل إلا للاختبار والابتلاء .

قوله (..إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى..) عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: " أَجَلٍ " مُنْتَهَى، يَقُولُ:"**أَجَلُ حَيَاتِكَ إِلَى أَنْ تَمُوتَ، وَأَجَلُ مَوْتِكَ إِلَى أَنْ تَبْعَثَ، فَأَنْتَ بَيْنَ أَجَلَيْنِ مِنَ اللَّهِ)** [4].

قوله تعالى (..وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) (هود/3) قال ابن عاشور (**سمي فضلا لأن الغالب** أن فاعل الخير يفعله بما هو **فاضل عن حاجته)** [5]، كما في قوله (وَيَسْأَلُونَكَ **مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ** كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (البقرة 219) ثم صار الفضل بمعنى إعطاء الخير، **فقلما تجد من يؤثر غيره على نفسه** ، فجاء الخطاب على وجه العموم .

فجاء لفظ "الفضل" هذا من باب الإجمال ، وتفصيله كما روي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله (ويؤت كل ذي فضل فضله) قال : (**ما احتسب به من ماله أو عمل بيديه أو رجليه أو كلامه ، أو ما تطوّل به من أمره كله)** [6] .

والمعنى أنه يعطي سبحانه وتعالى كل صاحب فضل في الدنيا من بر وصدقة وإحسان فضله تعالى يوم القيامة في دار الكرامة الجنة دار الأبرار ، ذلك كما قال الزمخشري لأن (**الدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات)** [7]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله (ويؤت كل ذي فضل فضله) قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذت من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده أعشاره)[8] .

---

[1]) رواه أبو داود ج13 ص 165 رقم 4333 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 1386 رقم 13851
[2]) رواه النسائي ج12 ص 289 رقم 3879 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1ص544رقم 5435 والسلسلة الصحيحة المجلدات
[3]) رواه مسلم ج7 ص 397 رقم 2668
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 115
[5]) التحرير والتنوير ج11 ص 202
[6]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 115 ، الدر المنثور للسيوطي ج5 ص 274
[7]) الكشاف ج2 ص65
[8]) الدر المنثور للسيوطي ج5 ص 274

وفضل الله واسع ويؤتى لأهل الفضل ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ** فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ **يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ** وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ) [1]، قال المباركفوري قوله (سلوا الله من فضله) أي بعض فضله فإن فضله واسع وليس هناك مانع (فإن الله يحب أن يسأل) أي من فضله لأن يده تعالى ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار (وأفضل العبادة انتظار الفرج) أي ارتقاب ذهاب البلاء والحزن بترك الشكاية إلى غيره تعالى وكونه أفضل العبادة لأن الصبر في البلاء انقياد للقضاء)[2].

وفي قوله (وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)(هود/3) تتمة في تفصيل النذارة ، والمخاطب بها من تولى عن الطريق المحفوف بالبشارات ، فمن لم يستجب لها لن تنفعه غير النذارة بالعذاب الشديد ، لإخراجه من غفلته ، فكان لابد من تغليظ الخطاب معه .

وقد تضمنت الآية مظهرا من مظاهر إشفاق النبي ﷺ علي قومه أن ضلوا طريق الحق رغم أنه ظاهر وواضح أمامهم ، يقول النبي ﷺ (مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي) [3]، "الحُجزة" هي موضع شد الإزار (الوسط)، وأخذ النبي بها مجاز عن شدة حرصه ومنعه للناس من السقوط في النار .

وفي قوله (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(هود/4) تهون الدنيا برمتها في أعين المؤمنين الذي يعلمون أن نهاية سعيهم في الدنيا هو الرجوع إلى الله ، فالمآل إليه والمرجع إليه سبحانه ، وإليه المصير ، قال سبحانه (**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**) (النجم/42) ، وما الدنيا والسعي فيها إلا لأجل هذا الختام ، والإيمان بذلك هو تتمة البلاغ عن عقيدة الإسلام.

قال ابن القيم (**فالدنيا** فى الحقيقة لا تذم وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها ، وهى **قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار** ..، فهى مبنى الآخرة ومزرعتها ، ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الايمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته ، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة إنما كان بما زرعوه فيها)[4].

وفي قوله تعالى (أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (هود/5) أي ينحنون على صدورهم ويغطون رؤوسهم بثيابهم[5] ، يفعلون ذلك خجلا من النبي ﷺ أن

1) رواه الترمذي ج11 ص 488 رقم 3494 وضعفه الألباني : لم يرو هذا الحديث عن أبي إسحاق إلا إسرائيل تفرد به حماد بن واقد ولا يروى عن ابن مسعود إلا بهذا الإسناد
لكن له شواهد لجملة (سلوا الله من فضله) كما في قوله (وقال ربكم ادعوني استجب لكم)
2) تحفة الأحوذي بشرح الجامع الترمذي ج10 ص 17
3) رواه مسلم ج11 ص 400 رقم 4236
4) عدة الصابرين ج1 ص 143

يراهم على الكفر عندما كان يمر عليهم ، فيغشون وجوههم بثيابهم لكي لا يراهم ، حرصا على ما بينهم من قرابة ، وملالا أن يعظهم كلما رآهم ، كما كان يفعل قوم نوح مع نبيهم ، فاشتكى لربه صنيع قومه معه فقال (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ **وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**) (نوح 7).

والله يعاتبهم أنهم لا يخفون على الله وإن كانوا يخفون بما يفعلون عن أنبيائهم ، وعن النبي محمد ﷺ على وجه الخصوص ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ"يَسْتَغْشُونَ" (**يُغَطُّونَ رُءُوسَهُمْ**)[1] ، قال الثعالبي (إن هذه الآية نزلَتْ في الكفَّار الذين كانوا إذا لقيهم النبيُّ ﷺ تَطَامَنُوا وَثَنَوْا صُدُورهم؛ كالمتستِّر ، ورَدُّوا إليه ظهورَهُم ، وغَشُوا وجوهَهُمْ بثيابهم ، تباعداً منهم ، وكراهيةً للقائه ، وهم يَظُنُّون أنَّ ذلك يخفَى عليه ، أوْ عن اللَّه عزَّ وجلَّ ، وقيل : هي استعارة للْغِلِّ والحِقْدِ الذي كانوا يَنْطَوُونَ عليه)[2] ، ونظير ذلك قوله (**ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**) (الحج 9) ، فهي طريقة للإعراض عن أهل الحق والابتعاد عنهم ، فيها شيئ من التلطف وإن كانت تدل على الاستكبار عن سماع الموعظة أو السآمة منها .

فعاتبهم الله بفعلهم هذا ، بقوله (أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ، كما في قوله (ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ . .) ، قال الشعراوي (هم إن داروا على محمد ﷺ **فهل هم قادرون على المداراة** على رب محمد؟ والذي لا يدركه بصر محمد فربُّ محمد سيُعلمه به)[3].

ونلمح من ذلك تلطف بعض المشركين مع النبي ﷺ رغم ما يضمرونه في صدورهم من عدم الاقتناع بالدعوة ، أو بعض الحسد له ، وبعضهم يخفي البغض لها ، لأنهم لا يريدون أن يظهروا له العداوة – في الفترة المكية – لما بينهم من صلة الأرحام ، أو لما أحسوه من صدقه ﷺ لكنهم ولأجل عصبيتهم للقبيلة يميلون إلى قومهم وليس لنبيهم ، ومن هنا **ظهر منهم الخجل عند رؤيته ﷺ مخافة أن يُحزنوه وهو يراهم على الكفر** ، إلا أنهم – ورغم ذلك –كانوا أقرب المرشحين لأن يسلموا ، فعاتبهم الله على ذلك أنهم يخجلون من محمد ﷺ ولا يخجلون من ربه سبحانه ، وسبحان الله فقد أسلم من هؤلاء المعاتبين قوم بعد فتح مكة ، ومنهم من أسلم قبل ذلك ، بما يعني أن التلطف في الخطاب الدعوى واجب لقوله سبحانه (**عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الممتحنة/7)

.

---

5) قال الماوردي فيه خمسة أقاويل : أحدها : يثنون صدورهم على الكفر ليستخفوا من الله تعالى ، قاله مجاهد . الثاني : يثنونها على عداوة النبي ﷺ ليخفوها عنه ، قاله الفراء والزجاج ، الثالث : يثنونها على ما أضمروه من حديث النفس ليخفوه عن الناس ، قاله الحسن ، الرابع : أن المنافقين كانوا إذا مرّوا بالنبي ﷺ غطوا رؤوسهم وثنوا صدورهم ليستخفوا منه فلا يعرفهم ، قاله أبو رزين ، الخامس : أن رجلاً قال إذا أغلقت بابي وضربت ستري وتغشيت ثوبي وثنيت صدري فمن يعلم بي؟ فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون (انظر النكت والعيون ج2 ص 189

[1]) رواه البخاري ج14 ص 261 رقم 4315

[2]) تفسير الثعالبي ج2 ص 218

[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 4129

قوله (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا..)(6) ما أجمل أن يُطمئن الله العباد الذين استجابوا لله ورسوله بأن يقر في قلوبهم أنه وكيل عنهم ، وأنه ضمن لهم بتلك الوكالة أبواب الرزق جميعا ، فليستيقن المتوكلون بأن أبواب الرزق عند الله مفتوحة ، ولا يعوقهم لقبول الإسلام بالكلية شيء ، بل عليهم أن يتخلوا عن كل العوائق لأجل الإسلام ، فلا يخافون من فوات متاع دنيوي ، ولا يتربصون مصلحة متوهمة أو ينتظرون رزق معلقا على حصول شيء من أسباب الدنيا أو يظل تفكيرهم مشغولا بأحادث يتوقعون حصولها في مستقبل ، فالمسلم لابد وأن يتجرد من كل ذلك ، ويستسلم لله ، وبالجملة لا يتذلل لغير الله في طلب الرزق ، فعقيدة التوحيد تجعل المسلم يعقد العزم في الطلب علي الله الاستعانة بالله وحده ، فلا يسأل غيره ، يقول النبي ﷺ (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ **إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**) [1].

والمعنى المراد إيصاله أن الله تعالى أوجب على نفسه أن يتكفل سبحانه بالرزق لعباده ، وعلى العباد أن يثقوا في الله بأن الرزق سوف يأتيهم لا محالة من عند الله ، يقول النبي ﷺ (**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**)[2] ، (فمن قصد الله تعالى بالتوكل عليه ، والثقة به لم يصبه عيلة ، والعيلة اختلال الحال ، والحاجة إلى الناس)[3].

فالتماس أسباب الرزق هو عين التوكل على الله ، لأن الله سبحانه هو الذي شرع الأسباب ، وأمر العباد بأن يعملوا ليكسبوا فيرزقهم ، أي أنه سبحانه **رتب النتائج على الأسباب** ، كما قال (**وجعل بعضهم لبعض سخريا**) ، فالتماس أسباب الرزق بالعمل المشروع هو العبادة المطلوبة شرعا ، مع ضرورة اليقين بأن الأسباب لا تعدو كونها أسبابا شرعها الله تعالى ، ليس لها فاعلية في ذاتها إلا بإذن الله ، ليكون التوكل عليه حق توكله ، قال المباركفوري (**فالله هو المسبب ، وهو الفاعل على الحقيقة** ، لتعلموا يقينا أن لا فاعل إلا الله ، وأن لا معطي ولا مانع إلا هو)[4] .

قوله (.. وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا[5] كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)(6) فالإنسان بين عالمين أحدهما مستقر والآخر مستودع :-

[1]) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 2440 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 16 رقم 2516
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 199 رقم 4154 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 404 رقم 3359
[3]) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار للكلاباذي ج1 ص 210 رقم 139
[4] تحفة الأحوذي ج7 ص 7
[5]) نقل ابن كثير وقوع إشكال في تفسيرها ج2 ص 306

فأما **المستقر فهو يعني أن هناك حركة دؤوب تسبق ولابد الاستقرار ، فقبل أن يستقر الكائن إلى مأواه** ليرتاح فإنه يتحرك ويسعي لكسب رزقه ثم يأوي ليرتاح ثم يعاود الحركة مرة أخرى ثم يستقر ثم يتحرك وهكذا يكدح في الحياة ويكابد ثم يتمتع بما صنع حيث المستقر كناية عن الحياة الدنيا

ويشهد لذلك قوله تعالى (**وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ** وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ) [الأعراف : 24] حيث البيت والمأوى والمأكل والملبس ...الخ ، وخير مستقر هو الآخرة ، ولذلك يقول الحق (**أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً**) [الفرقان : 24] .

أما **المستودع** ، فهو **عالم السكون حيث لا حراك** ، فهي مرحلة انتقالية إلى عالم الحركة ، فنحن في أصلاب آبائنا كنا في نطفة وفي أرحام أمهاتنا كنا علقة ، وكذلك نكون بعد الموت حيث المستودع في حياتنا البرزخية أي في القبر حتى البعث ، فتكون الأرض مستودع الأجساد ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ:"الْمُسْتَوْدَعُ: الْمَكَانُ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ"وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِثْلُ هَذَا، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ مِثْلُهُ)[1].

ويشهد لهذا المعنى ما روي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا كَانَ أَجَلُ أَحَدِكُمْ بِأَرْضٍ أَوْثَبَتْهُ إِلَيْهَا الْحَاجَةُ فَإِذَا بَلَغَ أَقْصَى أَثَرِهِ قَبَضَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ **فَتَقُولُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَبِّ هَذَا مَا اسْتَوْدَعْتَنِي)** [2]، قال القرطبي : قال العلماء وهذا تنبيه للعبد على التيقظ للموت والاستعداد له بالطاعة والخروج من المظالم وقضاء الدين والوصية بماله وعليه في الحضر فضلا عن الخروج إلى سفره ، فإنه لا يدري أين كتبت منيته من البقاع.

وسميت الأرض مستودعا لأن منها يخرج الناس حيث تنبت الأرض من دفن فيها عند البعث كما تنبت الحبة بقلها ، ففي الحديث عما بين النفختين أربعين قال رسول الله ﷺ (ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ **عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**[3]، وَقَالَ رَسُولُ

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 124
[2]) رواه ابن ماجة ج12 ص 315 رقم 4253 وصححه الألباني : صحيح سنن ابن ماجة السلسلة الصحيحة ج3 ص222
[3]) رواه البخاري ج15 ص 261 رقم 4554

اللَّهِ ﷺ (إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالُوا أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ عَجْبُ الذَّنَبِ)[1].

أما الأرواح فمستودعها في علم الله ، فأرواح **الأبرار في عليين** ، وأرواح **الفجار تحبس في سجين** ، وقد علمنا أن مستقر أرواح الشهداء في حواصل طير تسرح في الجنة حيث تشاء حتى يأتي يوم القيامة ،كما ورد في الحديث عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ **أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ** حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا)[2].

قوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً...)(هود/7) هذه المعلومة كثيرا ما يرددها القرآن الكريم أي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام للتأكيد على أن **المنهج الحركي للدعوة الإسلامية لايمكن أن يقوم بين عشية أو ضحاها** ، فالله سبحانه قادر على أن يخلقهما في لحظة واحدة ، ولكنه سبحانه صبور ، ويريد أن يتخلق العباد بذلك الخلق ، فالصبر نصف الإيمان ، ودائما يأتي النصر بالصبر .

وقوله (..وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء..)(7) دليل على أن الله تعالى لم يخلق شيء قبل ذلك ، وأنه بائن من خلقه ، لأن الماء هو أساس الحياة ومنه خلق الله كل شيء حي ، قال تعالى (**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء/30) ، فإذا كان الأمر كذلك ، وأن أصل الكون ماء ، فإن الله تعالى يشير بخلقه للعرش والماء قبل خلق السماوات والأرض إلى أنه خالق وليس بمخلوق ، قال تعالى (**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (البقرة/117) ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ** ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)[3] .

فمن أعجب **ظواهر الماء الفيزيائية** الخاصية الشعرية التي تجعله يتسلق الأنابيب الضيقة في النبات ضد الجاذبية الأرضية ليصل إلى قمة الأشجار الطويلة ، وخاصية التوتر السطي التي تتيح للحشرات أن تطفو فوق سطحه وتسير مثل البعوضة ، وخاصية التحول الفيزيائي من الحالة السائلة إلى الغازية ،ومن الحالة السائلة إلى الصلبة والعكس ، وخاصية الكثافة المتغيرة حيث يتمدد عند التجمد ويصبح أقل كثافة فيطفو الثلج على الماء بدلا من أن يغوص

[1]) رواه مسلم ج14 ص 202 رقم 5255
[2]) رواه مسلم ج9 ص 472 رقم 3500
[3]) رواه البخاري ج10 ص 464 رقم 2953

كما أن الماء عالي الكثافة فيتطفو عليه السفن المحملة بالبضائع ،كما أن الماء يتحدى الحواجز فيستطيع أن ينفذ من أقل الأماكن ضيقا ويتسرب وهو مائع يتأثر بالضغط بسهولة ، تلك هي أهم خواص الماء الفيزيائية .

أما **خواص الماء الحيوية** فقد جعل الله منه كل شيء حي ، حيث يتميز بقطبيته العالية، وقدرته الفائقة كمذيب عام، وسعته الحرارية الكبيرة التي تحافظ على ثبات درجة حرارة الكائن الحي.

فهذه الخصائص تجعله الأساس الذي تقوم عليه الحياة، حيث ينظم حرارة الكائنات الحية ويسهل التفاعلات الكيميائية داخل الخلايا ، ينقل الغذاء والأكسجين والعناصر الغذائية والفضلات عبر الدم والأنسجة.

أما بالنسبة **للتركيب الكيميائي للماء** ، فالصيغة الكيميائية لجزيء الماء من ذرتي هيدروجين مرتبطة بذرة أكسجين بروابط تساهمية ، مما جعله يتميز بخاصية قطبية عالية : لأنه يمتلك زاوياً 105 درجة يجعل جانب الأكسجين سالباً وجانب الهيدروجين موجباً.

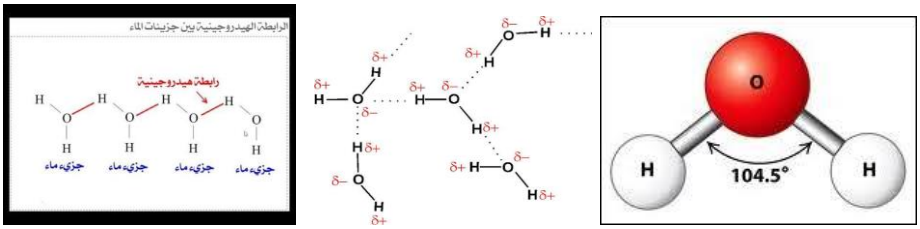

كما تتواجد روابط الهيدروجينية بين جزيئات الماء ببعضها

والماء النقي متعادل كيميائيا لأن عدد أ ions الهيدروجين (H^{+}) يساوي أ ions الهيدروكسيد (OH^{-}) ، مما يجعله مذيبا جيدا : حيث يذيب العديد من المركبات الأيونية والقطبية مثل الأملاح والسكريات ، ويتفاعل مع الفلزات النشطة (مثل الصوديوم والبوتاسيوم) لينتج هيدروكسيد الفلز وغاز الهيدروجين، ومع أكاسيد الفلزات لينتج قلويات .

والمتأمل في عبادات الإسلام والتي من أهمها الصلاة يجد أن شرطها الوضوء ، والوضوء عبادة تسبق الصلاة باستخدام الماء ، حيث يغسل المتوضئ يديه إلى المرافق ووجهه ويمسح برأسه ويغسل رجليه إلى الكعبين ، ولذلك فإن الوضوء طهارة حكمية وحسية في آن واحد

كما أن الغسل شرط لازم لطهارة المؤمن بعد الحدث الأكبر ، ولذلك جعل الله الماء طهورا ، أي طاهرا في نفسه ومطهرا لغيره من الخبث والحدث كذلك ، كما أن ماء المطر يذهب الهم والغم والحزن ، ولذلك لما ابتلى المؤمنون في غزوة أحد أنزل الله عليهم ماء المطر ليطهرهم من رجز الشيطان أي وساوسه .

وقوله (..لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (7) بيان لعلة خلق الكون على هذه الكيفية ، لتكون هذه الحالة هي موطن الاختبار ومكانه ، أما مناطه فهو إحسان العمل ، بأن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وتلك الأمور أمور قلبية لا يطلع عليها إلا الله ، قال رسول الله ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى أَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ)**[1].

قال الشنقيطي (ولا شكّ أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبتلى أي يُختبر: بإحسان العمل ، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار)[2] ، فإذا علم أن الاستقامة هي الطريق الموصل لذلك استقام على الطريق ولم يحد عنه ، وذلك هو إحسان العمل ، فليس يحسن الذي ينحرف عن الطريق المستقيم ، فينبغي للعبد أن لا يفارق ذهنه صورة ربه وكأنه يراه في كل عمل ينوي أن يعمله ، كما في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)** [3]، قال ابن عطاء أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات [4]

قال العلماء "المرَاقَبَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعلَى أَعْمَالِ القُلُوبِ هِيَ التَّعَبُّدُ لِلّاهِ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ، فَمَتَى عَلِمَ العَبدُ أَنَّ حَرَكَاتِهِ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ قَد أَحَاطَ اللّاهُ بِعِلمِهَا، وَاسْتَحْضَرَ هَذَا العِلْمَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَلِكَ حِرَاسَةَ بَاطِنِهِ عَنْ كُلِّ فِكْرٍ وَهَاجِسٍ يُبْغِضُهُ اللّاهُ، وَحَفِظَ ظَاهِرَهُ عَنْ كُلِّ قَولٍ أَو فِعْلٍ يُسْخِطُ اللّاهَ، وَتَعَبَّدَ بِمَقَامِ الإِحْسَانِ "[5].

قال القشيري ("**المراقبة**" علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه، **وهذا أصل كل خير له**، ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف له، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس، وراقب الله تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قرب، يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله ، ومن تغفل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة)[6].

---

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 173 رقم 4133 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجةج2 ص400 رقم 3342 ورواه مسلم ج12 ص 427 رقم 4651
[2]) أضواء البيان ج2 ص 171
[3]) رواه البخاري ج1 ص 87
[4]) إحياء علوم الدين ج4 ص 397
[5]) إصلاح القلوب ج1 ص 40 نقلا عن السعدي : المجموعة الكاملة ج3 ص 242
[6]) الرسالة القشيرية ص 87

قال القاسمي تعليقا على كلام الغزالي (المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ، ويعنى بها **حالة للقلب** يثمرها نوع من **المعرفة** وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب أما **الحالة** فهي **مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه** وأما **المعرفة** فهي **العلم بأن الله مطلع على الضمائر** عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت .

ثم للمراقب في أعماله نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل ، أما **قبل العمل فلينظر همه وحركته** أهي لله خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وأنها عدوة نفسها

وأما **النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل** فذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه ، وهذا ملازم له في جميع أحواله لأنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح

فمراقبته في الطاعات بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير ، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه)[1].

قال ابن القيم (كلما اشتدت هذه المراقبة اوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع و الخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها فالمراقبة اساس الاعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به ولقد جمع النبي ص – اصول اعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة وفي قوله في الاحسان ان تعبد الله كانك تراه فتأمل كل مقام من مقامات الدين وكل عمل من اعمال القلوب كيف تجد هذا اصله ومنبعه)[2]

[1]) محمد جمال الدين القاسمي : موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ص 452
[2]) إعلام الموقعين ج4 ص 204

المحور الأول

توصيف مواطن الخلل –إجمالا– عند من اعوج عن الصراط

تكذيبهم بأركان الإيمان جملة وتفصيلا (البعث وبالقدر وبالرسول وبالقرآن) لتفريغ عقيدة الإسلام من مضمونها والاعوجاج عن الصراط المستقيم

قال تعالى (وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم **مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ** لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) وَلَئِنْ **أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ** إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ **لَّيَقُولُنَّ** مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (8) وَلَئِنْ **أَذَقْنَا** الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ **أَذَقْنَاهُ** نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ **لَيَقُولَنَّ** ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) **إِلاَّ الَّذِينَ** صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ **وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ** أَن **يَقُولُواْ** لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ **يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (13)

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (14) مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (16)

أَفَمَن كَانَ **عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ** وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن **يَكْفُرْ** بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ (17) وَمَنْ **أَظْلَمُ** مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا

أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19)

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ **مُعْجِزِينَ** فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ **أَوْلِيَاء** يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (20)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ **خَسِرُواْ** أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (21) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (22)

إِنَّ الَّذِينَ **آمَنُواْ** وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ **وَأَخْبَتُواْ** إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ **الْفَرِيقَيْنِ** كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) (24)

لا يمكن الحديث عن الإصلاح دونما توصيف دقيق للحالة التي تخضع لهذا الإصلاح ، ولو بصورة إجمالية ، ذلك أن مظاهر الفساد والعطب في هذه الحياة كثيرة ، لكن أساسها واحد ، فإذا ما أجملنا أساس هذا العطب سهل بعد ذلك الإصلاح ، أي أن إصلاح العقيدة ذاتها يكفي لإصلاح العبادة ثم الأخلاق والمعاملات بين الناس ، وهكذا يبدأ

المنهج الإصلاحي في الإسلام بإصلاح عقيدة المرء أولا ، تلك التي تنبت منها أفعاله وتصرفاته ، ومن ثم استعرض هذا المحور أحوال أهل الدنيا من الدعوة الإسلامية ، وبينت أنهم يكفرون بأركان الإيمان على وجه الإجمال .

بدء من عقيدة البعث واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وبالرسول الذي أرسل إليهم ، حيث يقللون من شأنه بالنظر لقلة ماله وأنصاره وضعفهم ، كما يكذبون بالقرآن الذي أوحي إليه فيقولون أنه افتراه على الله ، كل ذلك بقصد تفريغ عقيدة الإسلام من مضمونها ليكون سعيهم في الدنيا معوجا على غير صراط الله المستقيم ، فهم أهل اعوجاج ، بينما أهل الإسلام هم أهل استقامة على المنهج الذي أنزله الله وأوحي به لعبده محمد ﷺ .

وهؤلاء المعوجون لن يعجزوا الله هربا من عذابه المضاعف ، وقد ضلوا وخسروا كل شيء ، بينما أهل الإيمان وصفهم القرآن بأنهم أصحاب جنة الخلد لأنهم استقاموا على المنهج الموصل إليها ، فلم يستو جزاء الفريقين في الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير ، فريق في السعادة وفريق في الشقاوة .

ولذلك يمكن تقسيم هذا المحور إلى ثمانية مسائل : –

أولا : تكذيب أهل الدنيا بالبعث

ثانيا : تكذيب المتفاخرين بالدنيا بالقدر خيره وشره

ثالثا : تكذيب أهل الدنيا بالنبي ﷺ

رابعا : تكذيب أهل الدنيا بالقرآن

خامسا : حال أهل الدنيا بخلاف أهل الآخرة في الدارين وعلى النقيض

سادسا : التعقيب على تكذيب الكافرين من الأحزاب

سابعا : ظالمون يفترون ويصدون لكن لا يعجزون

ثامنا : حال المؤمنين المخبتين بخلاف غيرهم

المسألة الأولى : تكذيب أهل الدنيا بالبعث والحساب والجزاء

قال تعالى (وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (8)

وقوله (وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ) تستظهر الآية موطن الخلاف بين الأنبياء وقومهم ، فالأنبياء يبشرون المؤمنين بالبعث بعد الموت ، ويبشرون بالحياة الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يكذبونهم في ذلك ، قال عز وجل (**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا** قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (التغابن:7)

وبل يفترون عليهم– دوما – بفرية السحر ، حتى يفزع الناس منهم فلا يقربهم أحد مخافة أن تصيبهم لعنة سحرهم ، وبذلك يصونهم عن السبيل بأبسط صورة ، فيكونون أقدر على تشويه الصورة الذهنية للإسلام بذلك التزييف الإعلامي بأشد مما تفعله الحروب الضارية ، وتلك هي أول محاولاتهم لتفريغ عقيدة الإسلام من مضمونها .

فالحديث عن البعث من أولويات الخطاب الدعوي وإصلاح العقيدة ، ولا يمكن أن يخلو منه البلاغ الإسلامي ، ولا ينبغي أن يفوت عن المبلغ ذلك ، لأنه الركيزة الكبرى للاستقامة، التي بها يتحفز الضمير الإنساني ويتأهب إلى الحساب وفقا لميزان العدالة الإلهية في الآخرة ، قال الله تعالى (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء 104)

وقوله (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ) (8) بيان أمر مجادلة الكفار للنبي ﷺ فيما أنذرهم به ، من أن يمسهم عذاب الله في الحياة الدنيا ، بعد أن أغلقوا عليه الحديث في أمر الحياة الآخرة ، فأراد أن يحذرهم مغبة الاسترسال في متاع الدنيا وينذرهم أن أوشك عذاب الله أن يعاجلهم فيها ، لكنهم يجادلونه ، بل ويتحدونه أن يأتيهم به استهزاء وسخرية منه.

والنفس البشرية لا تتصور الخطر المحدق بها إلا إذا ذاقت شرارته أو حرارته قبل أن يصيبها ، فهم يستعجلون عذاب الله – استهزاء – أن يصيبهم في الدنيا ، وقد أراد الله أن يذيقهم بعض بأسه ليحذرهم من عذاب الآخرة .

وقوله (..إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) أي أن سنة الله تعالى أن يؤخر إنزال العذاب بالقوم المكذبين حتى لا تكون لهم حجة بعد ذلك على الله ، حيث يستطيل وقت نزول العذاب ويتأخر حتى ينقضي لكل أمة أجلها [1]، كما في قوله تعالى (**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (الأعراف/34) وأجل كل أمة ذهاب جيلها ، والإتيان بجيل آخر كما في قوله (**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** (133) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) (الأنعام 134)

كما في قوله (**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**) أي استطال به النسيان حتى تذكر بعدما تغيرت الأحوال ، كناية عن طول التأخير ، فكما أنه سبحانه **لم يستعجل في خلق السماوات والأرض** ، فإنه سبحانه **لا يستعجل في إهلاك القرى** التي حق عليها العذاب ، لكن هذه المدة لا تطول كثيرا لأنها معدودة ، (فما يحصره العد : جرت العادة في أساليب العرب أن يكون قليلا)[2] ، وهذا يختلف بحسب حال كل أمة .

قوله (..لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ..) يستعجلون العذاب **ويطلبونه تجرؤاً علي ربهم** ، إذ يخال لهم أنهم في منعة منه ، ولكن سنة الله أنه إذا أقام حجته علي الكافرين أنزل عليهم عذابهم ، لتكون قصتهم عبرة وعظة لمن بعدهم .

---

[1]) في هذا المعنى تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2422
[2]) الوسيط لسيد طنطاوي

قوله (..أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ) (8) أي لا أحد يصرف عنهم عذاب الله ، بل يقيم عليهم الحجة بما قدره وقضاه من أقدار ينتصر فيها المؤمنون وينهزم الكافرون ، فليس من سنن الله الكونية أن يظل المسلمون في هزيمة نفسية أو قهر مادي أو إيذاء من الذين كفروا ، وإنما لابد وأن ينصرهم الله كما وعد بذلك (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم 47)

فإذا حقت كلمة العذاب فإنه يحيق بالكافرين ، إما بآية كونية أو بتسخير المسلمين عليهم ليدفع الحق بالباطل ، قال الواحدي (إذا أخذتهم سيوف المسلمين لم تغمد عنهم حتى يُباد –رؤوس– الكفر ، وتعلوَ كلمة الإخلاص)[1].

قال الدكتور فاضل السامرائي (فإذا جاءهم عذاب الله المستعجل **فإنه يلازمهم ولا يصرفه عنهم صارف** ، بل يحيق بهم من كل جانب ، وبقدر استئزائهم ، وذلك منتهى عدل الله في شأنهم) [2]، بيد أن ذلك كله موقوف على انتهاء الأجل الذي قدره الله لهم حتى تستبين الآيات وتقوم الحجة .

المسألة الثانية : تكذيب المتفاخرين بالدنيا بالقدر خيره وشره

قال تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

قوله (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) (9) لما أخبر الله تعالى – فيما تقدم – أن متاع الدنيا له أجل مسمى ولأيام معدودة ، وقد علمنا أنها لا تعدل جناح بعوضة ، فإن عطاء الكافر منها لم يكن شيئا ، ولكنه عطاء مشروط بالشكر ، فإن لم يشكر ، فإنه سبحانه **لا يعاجله بالعقوبة** ، وإنما يؤجل عذابه حتى تتم حجته ، من هنا تجلت حكمة الله أن يبتلي الإنسان بالشر والخير فتنة ، ليكون ابتلاءه بالرحمة استظهار لمتاع الله له في الدنيا لأجل مسمى وأيام معدودة لعله يشكر ، وابتلاؤه بالضر هو نوع من **تعجيل العذاب الأدنى** له حتى يتقي العذاب الأكبر ، فلا يستعجله استهزاء ، هذا من وجه .

ومن وجه آخر قد يبتليه ليكفر عنه سيئاته فيمشي في الأرض وليس عليه خطيئة ، وهذا خاص بالمؤمن ، كما في الحديث (**فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**)[3] ، لكن في كل الأحوال لا ينبغي لعبد أن يسأل الله أن يبتليه بالضر ليخفف عنه العذاب يوم القيامة ، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ قَالَ نَعَمْ كُنْتُ أَقُولُ اللَّهُمَّ مَا **كُنْتَ**

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 334
[2]) لمسات بيانية للدكتور فاضل السمرائي مذاع على قناة الشارقة : 2009/12/23
https://www.youtube.com/watch?v=wUIs15mEC 98
[3]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 142 رقم 9775 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص179 رقم 3402

مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُبْحَانَ اللَّهِ **لَا تُطِيقُهُ** أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ أَفَلَا قُلْتَ (**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) قَالَ (فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ)[1]

ومن هنا ينظر الله تعالى فيما يفعله الإنسان إزاء ابتلاءاته له سواء بالرحمة أو بنزعها منه ، فعندما يبتليه بالبأساء والضراء فإنه يطلع علي صبر الإنسان على اختبار ربه ، وليحمله تذوق هذا الضر على أن يرتدع عن استعجال العذاب ، لكن قليل من الناس من ينتبه لهذه الحكمة ، والله يعلم حال الإنسان على وجه العموم ، وأنه حين يختبر بالضر فإنه يكون يئوسا كفورا ، فعَنْ قَتَادَةَ: " إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ " يَقُولُ:"إِذَا ابْتَلَى بِبَلاءٍ ثُمَّ لَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهِ"[2] ، **أفلا يعجب الكافر من حاله ، وهو لا يصبر على بلاء صغير في الدنيا ، فكيف به يستعجل عذاب الله في الآخرة** ، قال الطبري (فيئوس من روح الله، قنوطٌ من رحمته، كذلك المرء المنافق والكافر)[3].

والمؤمن حاله بخلافه ، فهو يرضى بقضاء الله وقدره خيره وشره ، لقول النبي ﷺ "عجبت للمؤمن لا يقضي الله له شيئا إلا كان خيرا له"[4]، لعلمه علي وجه العموم أن الابتلاء بالضر له مقاصد كثيرة وحكم جليلة ، فمن مقاصده سبحانه من ابتلاء عبده بالضر بعد نزع الرحمة منه أن يباهي بعباده ملائكته في صبرهم على قضائه ورضاهم به وحمدهم لله على كل حال ، كما في الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ **قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي** ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ **قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ** ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ **حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ** فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ **بَيْتَ الْحَمْدِ**)[5]

كذا من مقاصده سبحانه من أن يبتلي عباده أن يُرِيهم لملائكته كيف أنهم شاكرين على نعمائه صابرين على بلائه ، لا يفارقون عبادته على أية حال ، وذلك هو حال المؤمن دوما ، بين الشكر والصبر ، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ "يتعاقبون فيكم إذا كانت **صلاة الفجر** نزلت ملائكة النهار فشهدت معكم الصلاة جميعا وصعدت ملائكة الليل ومكثت معكم ملائكة النهار فيسألهم ربهم وهو أعلم ما تركتم عبادي يصنعون فيقولون **جئناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون**" ، فإذا كان **صلاة العصر** نزلت ملائكة الليل فشهدوا معكم الصلاة جميعا ثم صعدت ملائكة النهار ومكثت معكم ملائكة الليل قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم فيقول ما تركتم عبادي يصنعون قال فيقولون **جئنا وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون]**, قال فحسبت أنهم يقولون فاغفر لهم يوم الدين"[6]، فلم يشغلهم بلاء أو مصيبة عن الصلاة .

وهكذا تتجلى حكمة الله تعالى من تنوع الابتلاء حتى يعلم العبد أن له ربا هو رازقه ، وهو حاميه من المصائب ومنجيه ، فيضطر لأن يلجأ لربه ، لا لغيره ، وهو يعلم أن الله أرحم الراحين ، **وأنه مهما اشتد بلاؤه فلم يجد أرحم من الله عليه** ، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 194 رقم 4853
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 131
[3]) تفسير الطبري ج15 ص 256
[4]) رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 507 رقم 728 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 146 رقم 147
[5]) رواه الترمذي ج4 ص 154 رقم 942 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 175
[6]) رواه ابن حبان ج5 ص 410

وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ **لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)**[1].

قوله (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) (10) كقوله (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى** فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) [فصلت : 50] ، فمن عادة الإنسان أن يفرح حينما تزول عنه الغمة ، وهذا الفرح طبيعي لا شية فيه ، لكن أن **ينضم لهذا الفرح فخر بتجاوز المحنة فهذا من غرور الإنسان** ، وعدم الشكر لربه ، إذ **لولا أن الله تعالى أزال عنه الضر لما انفك عنه** ، وقد أراد الله تعالى أن يبتليه بهذا الضر كي يصبر ، فالصبر نصف الإيمان ، فإذا تجاوز المحنة صار واجب الوقت عليه هو الشكر ، وهو النصف الآخر من الإيمان ، **فالإيمان نصفه صبر ونصفه شكر** ، لكنه تفاخر بالنعم ونسي شكر المنعم ، فيكون نسيان الشكر في هذا الحال نوع من الكفر ، لأنه أغتر بالنعمة ، ونسي أن الله هو الذي أنعم بها عليه ، يقول ابن عاشور **(فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وناقل الأحوال، والمخالف بين أسبابها)** [2].

قوله (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) (هود/11) استثناء من هاتين الصورتين المذمومتين ، وهو حال المؤمن ، لا حال من يكفر بعد اليأس من ضر أصابه ، أو يفرح ويتفاخر بالنعمة دون أن يشكر الله عليها ، فمحل الاستثناء من صبر وعمل صالحا ، وهؤلاء يقلبون بصبرهم المحن إلى منح ، فعن عبد الله **(الصبر نصف الإيمان)** [3]، فيزدادون نعمة حتى وإن كان في ظاهرها مصيبة ، فتكون الزيادة في النعم وسيلة لمزيد من الشكر ، فجمعوا بين الصبر والشكر .

وأصحاب هذا الحال يتقلبون بين المغفرة والأجر الكبير ، فعن النبي ﷺ قال (ما رزق عبد خيرا له ولا أوسع من الصبر)[4] ، وفي رواية قال رسول الله ﷺ (وَمَنْ **يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ)**[5] ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ **فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ)**[6] .

المسألة الثالثة : تكذيب أهل الدنيا بالنبي ﷺ جعله في حيرة من أمره في ترتيب أولويات البلاغ

قال تعالى (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (12)

---

[1]) رواه البخاري ج18 ص 405 رقم 5540
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 214
3) رواه الطبراني في الكبير : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 178 رقم 3397
[4]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 449 رقم 3552 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 447 رقم 448
[5]) رواه البخاري ج5 ص 318 رقم 1376
[6]) رواه الترمذي ج8 ص 421 رقم 2325 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 401

قوله (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ..) (هود/12) فلم يكن رسول الله ليترك شيئا مما أنزله عليه ربه ويمتنع عن بلاغه لقومه ، ولكنها **الحيرة التي أصابته في ترتيب أولويات البلاغ** ، وفي ذلك تصوير للحالة النفسية والحيرة الشديدة التي أصابت النبي ﷺ وهو يريد أن يبلغهم ما أُنزل عليه من ربه جملة واحدة ، في الوقت الذي يرى أن قومه **يكذبونه ويفترون** عليه ، بل **ويعايرونه** بأنه ليس ملكا وليس صاحب مال حتى يستميلهم بنفوذه أو ثروته ، فكان يتحير في ترتيب أولويات البلاغ ، وتحديد أنجع سبل إيصال الدعوة لهذه الأفئدة وقد غُلفت بحب الدنيا واشرأبت لها .

ولذلك بوب البخاري بابا بعنوان (بَاب مَنْ **تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ**) ، وذكر بعده قول النبي ﷺ لعائشة (يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ)[1] ، وَعن عَلِيٌّ (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)[2].

وقد ترك النبي ﷺ كثير من الأحكام الشرعية لم يلزم بها حديثي عهد بإيمان حتى يستقر في قلوبهم ، عَنْ وَهْبٍ قَالَ سَأَلْتُ جَابِرًا عَنْ شَأْنِ ثَقِيفٍ إِذْ بَايَعَتْ قَالَ اشْتَرَطَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا صَدَقَةَ عَلَيْهَا وَلَا جِهَادَ وَأَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا)[3]

وعَنْ قَتَادَةَ ، عَنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ ، عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ–من قبيلة ليث– ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَى أَنْ لا يُصَلِّيَ إلا صَلاتَيْنِ ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ)[4]، وفي رواية (صلاة واحدة)

بل إنه ﷺ قبل إسلام الكاره ، لغلبة حبه للإسلام على كرهه ، على أمل أن يصح إسلامه فيما بعد ، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ أَسْلِمْ قَالَ (أَجِدُنِي كَارِهًا) قَالَ (أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا)[5]

وأخذ الإمام أحمد بهذه الأحاديث وقال يصح الإسلام على الشرط الفاسد ثم يلزم بشرائع الإسلام كلها[6]

قوله (..إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (هود/12) وقد علمه الله سبحانه كيف يجمع شتات أمره فيما يجب أن يبلغه لقومه ، فجعل من أولويات البلاغ عن الله أن ينذرهم عذابه ، ويرشدهم إلي طرق نجاته ، وفي ذات الوقت يظل متوكلا على ربه ، فلا يهتم لنتيجة بلاغه ، وقد أوكل بركة دعوته على الله سبحانه .

وقد ثبت أن النبي ﷺ ترك البشارة لأمته بثواب الموحدين مخافة أن يتكلوا ، وأكثر من النذارة من الشرك مخافة أن يركنوا إلى الأسباب ثم حياة الدعة ويتركوا العمل ، فعَنْ أَنَس بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ يَا مُعَاذُ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا قَالَ مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 215 رقم 123
[2]) رواه البخاري ج1 ص 217 رقم 124
[3]) رواه أبو داود ج8 ص 261 رقم 2630 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 509
[4]) الشيباني : الآحاد والمثاني ج2 ص 146
[5]) رواه أحمد ج24 ص 164 رقم 11618 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 28 رقم 1454
[6]) أبو فرج أحمد ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم ص 84

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا ؟ قَالَ "**إِذًا يَتَّكِلُوا**" ، وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا)[1] .

قال الثعالبي (سَببُ هذه الآية : أَنَّ كفَّار قريش قالوا : يا محمَّد ، **لو تركْتَ سبَّ آلهتنا** ، وتسفيه آبائنا ، لَجَالَسْناك واتبعناك ، وقالوا له : ائت بِقُرآن غيرِ هذا أو بدِّله ، ونحو هذا من الأقوال ، فخاطب الله تعالَى نبيَّه عليه السلام على هذه الصورة من المخاطَبَة ، ووقَّفَهُ بها توقيفاً رَادًّا علَى أقوالهم ومبطلاً لها ، وليس المعنَى أنَّه عليه السلام هَمَّ بشيء من ذلك ، فَزُجِرَ عنه ، فإنه لم يُرِدْ قطُّ تَرْكَ شيء مما أوحِيَ إليه ، ولا ضَاقَ صدْرُهُ به ، وإنما كان يَضِيقُ صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعْدِهِم عن الإيمان)[2].

المسألة الرابعة : تكذيب أهل الدنيا بالقرآن

قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) (14)

قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) (هود/13) زادوا في الطعن في الدين مطعنا آخر ، فبعد فرغوا من شبهة الطعن في الرسول ، فطعنوا في الكتاب الذي أوحي إليه ، وزعموا أنه مفترى أي من اختراع البشر وليس وحي من الله ، فتحداهم الله أن يأتوا بشيء مثله .

قوله (قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (هود/13) فاء الرد من الله سبحانه على هذه الشبهة بتحديهم أن يأتوا بمثله ، فالتقليد هو من عادة البشر ، والذي يعجز الناس عن تقليده هو المعجزة التي ليس لها مثيل ، ولذلك قال ابن جزي (**تحداهم أولاً بعشر سور فلما بان عجزهم تحداهم بسورة واحدة** فقال : فأتوا بسورة من مثله ، والمماثلة المطلوبة في فصاحته وعلومه)[3] ، والعلماء توصلوا إلى أن وجه المماثلة المطلوبة أشمل من ذلك ، فقد استبان أن القرآن الكريم أعجز البشر في منهجه باعتباره المنهج الأصلح لحياتهم وواقعهم ، فما من مشكلة إنسانية إلا وقد استبان أن القرآن الكريم قد وضع علاجا لها ، ولكن البشر ضلوا عن ذلك .

ولعل القصد من تحديهم بعشر سور هو **حثهم على قراءة أكبر قدر من القرآن وتدبر معانيه** ، والتأمل في نظمه وإعجازه وفصحاته وعلومه ، كما أن الطلب يتضمن أن يستعينوا بخبرائهم وعلمائهم في كافة التخصصات في مقارعة القرآن ، وذلك بقصد استهداف أن يجمعوا أكبر عدد من العلماء ليشهدوا بأنفسهم على إعجازه .

قوله تعالى (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) (هود/14) أي إذا لم يستجيبوا للإسلام بعدما عجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فذلك وإن كان ردا لشبهة أنه مفترى على الله ، لكنه

[1]) رواه البخاري ج1 ص 218 رقم 125
[2]) تفسير الثعالبي ج2 ص 219
[3]) التسهيل في علوم التنزيل لابن جزي

ليس —وحده – بكاف لإقناعهم بصلاحه لهم ، بل عليهم أن ينتبهوا إلى ما في القرآن الكريم من أحكام مثل الدرر ومواعظ غنية ، لأن ما فيه مشتمل على علم الله الخبير بما صنع ، ليستخرج منه العلماء اللآلئ ويظهرونها للناس .

قال ابن القيم (والمعنى **أنزله مشتملا على علمه** فنزوله مشتملا على علمه هو آية)[1]، قال الشوكاني (ومعنى "أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ" أنه أنزل **متلبساً بعلم الله المختص به** ، .... ، لما اشتمل عليه من **الإعجاز الخارج عن طوق البشر**)[2] ، وفي ذلك دليل على أن إعجازه اشتمل على ما يصلح للبشر بحسب أحوالهم ومعاشهم ، فهو وحده العالم بهم وهو سبحانه الذي يُنزِّل لهم ما يصلح شئونهم ، قال سبحانه (لَّكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا **أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) (النساء/166) ، فالقرآن كتاب الله المشتمل على علم الله تعالى ، ويترتب على ذلك التسليم لأحكامه والاعتبار بقصصه والتدبر لمعانيه ، والانقياد لأوامره ، والتعظيم لحروفه وكلماته وجمله ونظمه ، فهو كلام الله المشتمل على علمه سبحانه ، فلا يجادل في علمه الواسع أحد ، **ولا يباريه علم المخلوقين** .

قوله (..وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) (هود/14) أي **باليقين** أن القرآن مشتمل على علم الله الذي أنزله لخلقه **يتحقق معنى توحيد الألوهية** ، ففيه تحضيض لقبول الإسلام بهذا المعنى، كما في قوله (**قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) (الفرقان/6) ، وعلة جعل الخطاب للمسلمين رغم أن المقصود به على وجه الخصوص الذين لا يستجيبون لدعوة الإسلام هو **تثبيت المسلمين على الحق** ، فلا يزلزلهم تكذيب الكفار به ، ولا يربكهم تلكؤ الناس عن الإيمان به ، فليمضوا في طريق الحق وليعلموا أنه **سوف يأت يوم يتبعهم الناس** في هذا الطريق ، طالما استمسكوا هم به ولم يحيدوا عنه ، كما حصل في فتح مكة .

قال الزمخشري (من جعل الخطاب للمسلمين فمعناه : فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه ، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد)[3] ، فمن أقوى دعائم الدعوة الإسلامية أن يرسخ الإيمان به في قلب النبي ﷺ وأصحابه ، **فكلما قوي إيمان الصحابة ومن تبعهم كلما كانوا أقدر على تبليغ الدعوة** ، لعل الله يشرح صدور الناس به ، ودون حاجة لأن يلتفتوا المبلغين عن الله لعدد متبعيهم ، ووقت حصول هذه الاستجابة .

المسألة الخامسة : حال أهل الدنيا بخلاف أهل الآخرة في الدارين وعلى النقيض تماما

قال تعالى (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (16)

إذ لا ينبغي التجرد للدنيا ، ولا ينبغي الانشغال بها عن طلب الآخرة ، ويكفي للعبد أن لا ينسى نصيبه منها ، أما من كان عبدا للدنيا ، فإنه ولا شك ليس له نصيب من الآخرة ، ومن انشغل بشيء من الدنيا عن طلب الآخرة

[1])التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 308
[2]) فتح القدير للشوكاني ج3 ص 432
3) الكشاف ج 3 ص 73

فإنه ينقص نصيبه من الآخرة بقدر انشغاله بمتاع الدنيا ، ولذلك قال النبي ﷺ **(مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى)**[1]،

فقوله (من أحب دينه أضر بآخرته) لأن حبها يشغله عن تفريغ قلبه لحب ربه ولسانه لذكره (ومن أحب آخرته أضر بدنياه) فهما ككفتي ميزان فإذا رجحت إحدى الكفتين خفت الأخرى ، وقوله (فآثروا ما يبقى على ما يفنى) ومن أحبها صيرها غايته)[2].

وقال المناوي (فإن راعى دنياه أضر بآخرته وإن راعى آخرته أضر بأمر دنياه إذ **هما ضرتان** فاهتمامه بأموره الدنيوية بحيث لا يخل بشئ من المطلوبات الأخروية صعب عسير إلا على من سهله الله عليه ولا يعارضه الأخبار الواردة بذم الدنيا ولعنها وإن الدراهم والدنانير مهلكة لأن الكلام هنا في الاهتمام لما لابد منه في مؤنة نفسه ومن يعوله ، وذلك محبوب بل واجب فهو في الحقيقة من أمر الآخرة)[3]

وقوله (من أحب دنياه أضر بآخرته) لأن من أحب دنياه عمل في كسب شهوتها وأكب على معاصيه فلم يتفرغ لعمل الآخرة فأضر بنفسه في آخرته ومن نظر إلى فناء الدنيا وحساب حلالها وعذاب حرامها وشاهد بنور إيمانه جمال الآخرة أضر بنفسه في دنياه يحمل مشقة العبادات وتجنب الشهوات فصبر قليلا وتنعم طويلا ، ولأن من أحب دنياه شغلته عن تفريغ قلبه لحب ربه ولسانه لذكره فتضر آخرته ولا بد كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا ولا بد كما قال (ومن أحب آخرته أضر بدنياه) أي هما ككفتي الميزان فإذا رجحت إحدى الكفتين حفت الأخرى وعكسه وهما كالمشرق والمغرب ، ومحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما يوجد في الغرب وهما كالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، فالجمع بين كمال الاستئصال في الدنيا والدين لا يكاد يقع إلا لمن سخره الله لتبديل خلقه في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء ، أما غيرهم فإذا شغلت قلوبهم بالدنيا انصرفت عن الآخرة وذلك أن حب الدنيا سبب لشغله بها والانهماك فيها وهو سبب للشغل عن الآخرة فتخلو عن الطاعة فيفوت)[4].

قوله (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ) (هود/15) بوب البخاري بابا بعنوان هذه الآية وأورد تحته حديثا عن أبي ذر قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمْ الْمُقِلُّونَ** يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا فَنَفَخ فِيهِ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا)[5] ، قال ابن بطال (هذا الحديث يدل على أن **كثرة المال تئول بصاحبه إلى الإقلال من الحسنات يوم القيامة** ، إذا لم ينفقه فى طاعة الله ، فإن أنفقه فى طاعة الله كان غنيًا من الحسنات يوم القيامة)[6] ، (وذلك لأن الغالب على من كثر ماله في الدنيا أن يستغني ويتكبر ويعرض عن طاعة الله، لأن الدنيا تلهيه فيكون مكثرا في الدنيا مقلا في الآخرة)[7] .

---

1) رواه أحمد ج 32 ص 470 رقم 19697
2) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 750
3) فيض القدير ج2 ص 7
4) فيض القدير ج6 ص 40
5) رواه البخاري ج20 ص74 رقم 5962
6) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج10 ص 163
7) شرح رياض الصالحين ج1 ص 533

فالاستثناء الوارد بالحديث فهو للذي (ضَرَب يَدَيه فيه بالعَطاء)[1]، أي أعطي كل ماله ثم ضرب كفيه كناية عن أنه لم يبق شيئا إلا وقد أنفقه ، فهذا هو المكثر وليس بمقل ، حيث تزيد حسناته بالإنفاق كلما كثر ماله .

ولفظ (نفخ) الوارد بالحديث يدل علي سهولة الإنفاق في سبيل الله تعالى .

ولفظ (يمينه وشماله وبين يديه ووراء) كناية عن تعدد جهة الإنفاق في سبيل الله دون اكتراث لأن يقل المال ، وتنوع العطاء على كل صورة .

وقوله (وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا) يدل علي أن من صور العطاء كذلك تنمية المال لأجل الإنفاق منه في سبيل الله ، فيكون إنفاقا مضاعفا .

قوله (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ **وَحَبِطَ** مَا صَنَعُواْ فِيهَا **وَبَاطِلٌ** مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (هود/16) ذلك أنهم أُطعموا بحسناتهم في الدنيا متاعا ، فوفيت أجورهم في الدنيا من أعمال الخير التي لم تصل لله ، فلم يبق شيئا يجازون عليه خيرا في الآخرة ، وحبط كل عمل صنعوه في الدنيا من أعمال الخير والبر ، وبطل ثوابه ، كما في قوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا **أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور 39) ، وقوله (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) (لقمان 24)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا **الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**)[2]، أي (بما فعله متقربا به إلى الله تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها)[3].

المسألة السادسة : مقارنة بين تصديق أهل الكتاب النبي ﷺ ، وتحزب المكذبين ضد الدعوة الإسلامية

قال تعالى (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ **الأَحْزَابِ** فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) (هود 17)

[1]) النهاية في غريب الأثر ج5 ص 199
[2]) رواه مسلم ج13 ص 413 رقم 5022
[3]) شرح النووي على مسلم ج17 ص 150

فقوله (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ..) ذكر ابن عجيبة أن في الآية تقدير بمعنى (أفمن كان على بينة من ربه ،أفمن كان على معرفة من ربه ، وولاية وسلامة وكرامة ، ..حتى برز من وجهه نور الله الساطع ، ويراه كل صاحب نظر ، كمن هو في الضلالة والجهالة؟)[1].

وفي ذلك إشارة إلى حال المتوكل على ربه في طريق دعوته ، الذي ألقى **الحمل كله على الله** ، وهو واثق في ربه ، بل هو على بينة من أمر ربه ، فقد **حاز ما يكفي من الدلائل على الله** ، فهو يعلم أن الأمر كله راجع إليه ، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وليس عليه بعد ذلك شيء ، فلا يرى إعراض الناس عنه بشيء ، وقد أدى ما عليه من واجب الدعوة ، ولا يرى أنه قد قصر في شيء طالما أنه مكلف بالبلاغ وحسب ، فلا ينتظر نتيجة جهده ، وقد أمره الله تعالى بتفويض النتائج إليه سبحانه ، فالله سبحانه هو الذي يهدي من يشاء .

ومعنى البينة : (البرهان العقلي والأمر الجلي) ، قال ابن جزي (والمراد بمن كان على بينة من ربه : النبي ﷺ والمؤمنون لقوله بعد ذلك (أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ) ، فالبينة هي ذلك الشعور القلبي الذي يستقر في قلب المؤمن على أن أمر معين هو الحق ، مهما خالفه الناس جميعا فإنه موقن بأنه على الحق لأنه رأي نور الله وهدى الله ، فكيف به بعد ذلك أن يثق في غير الله.

قال أهل الإشارة : (لا يكون العبد على بينة من ربه حتى يتحقق فيه أمران :-

أولهما : التوبة النصوح

والثاني : الزهد التام . فإذا تحقق فيه الأمران كان بينة من ربه .

وهي درجات:-

أولها : بينة ناشئة عن صحيح النظر ولاعتبار ، وهي لقوم نظروا في الحجج والبراهين العقلية والدلائل السمعية ، فأدركوا وجود الحق من طريق الإيمان بالغيب ، وهم : أهل الدليل والبرهان .

وثانيها : بينة ناشئة عن الرياضات والمجاهدات والاعتزال في الخلوات ، .. فأدركوا وجود الحق على وجه التحقيق والبيان)[2].

قوله (..وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ..) قال الأصفهاني ("**تلى**": **أي تبعه متابعة** ليس بينهم ما ليس منها ، وذلك يكون تارة بالجسم وتارة **بالاقتداء في الحكم** ، فقوله (ويتلوه شاهد منه) أي **يقتدى به ويعمل بموجبه** ، والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة **بالقراءة** ، وتارة **بالارتسام** لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب) .

وقال ابن جزي (الضمير في " **وَيَتْلُوهُ**" للبرهان ، وهو البينة ولمن كان على بينة من ربه ، والضمير في "**منه**" للرب تعالى ، ويتلوه هنا بمعنى يتبعه ، **والشاهد** : يريد به القرآن ، فالمعنى يتبع ذلك البرهان شاهد من الله وهو القرآن ، فيزيد وضوحه وتعظم دلالته)[3].

---

[1]) البحر المديد ج3 ص 39
[2]) البحر المديد ج3 ص 38
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 692

أي يتلو هذا القرآن ويتبعه ، والمقصود بذلك النبي ﷺ فهو أول من تلاه واتبعه ، كما في قوله (**وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**) (الزمر 12) ، وعَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ: " وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ " يَعْنِي"مُحَمَّدًا ﷺ شَاهِدًا مِنَ اللَّهِ"[1]، وقد جعله الله بعقيدته الراسخة وعبادته المخلصة وأخلاقه الحسنه شاهدًا على صحة القرآن الذي أنزل إليه ، فقد كان خلقه ﷺ القرآن ، كما أخبرت بذلك عائشة رضي الله عنها ، فقد روي عن سَعْدَ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ أنه سأل أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ (أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ بَلَى قَالَتْ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)[2].

فالدليل على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى ، **وهو اتباع النبي ﷺ لمنهج القرآن** ، وكأنه قرآن يمشي على الأرض ، فإذا كان سلوك النبي ﷺ وأخلاقه هي أخلاق القرآن ، فإنه بأخلاقه تلك شاهد على صحة ما في القرآن الكريم وأنه منزل من عند الله ، وقد مدحه قومه لحسن خلقه .

قال مفتي الديار سيد طنطاوي (القرآن الكريم الذى أنزله الله – تعالى – على نبيه ﷺ ليكون معجزة له شاهدة بصدقه ، والضمير فى قوله (**من ربه**) يعود إلى النبى ﷺ وفى قوله (**وَيَتْلُوهُ**) يعود إلى القرآن الكريم ، وفى قوله (**منه**) يعود إلى الله – تعالى – ، وعلى هذا القول يكون المعنى : (أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه تهديه إلى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ويؤيده ويقويه فى دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر البشر . .أفمن كان هذا شأنه كمن ليس كذلك؟)[3]

والمعنى المراد إيصاله أن النبي كان –دوما– شاهدًا على تنزيل الكتاب ، وكان الكتاب –دوما–شاهدا على صدق النبي ﷺ ، **فإذا قامت الحجة على الناس في أحدهما تبع ذلك لزوما ومنطقا أن تقام عليهم ذات الحجة في الثانية** ، أي أنه إذا كنت على بينة من أخلاقه وصدقه ، فتلك حجة عليكم أن تؤمنوا بما جاء به من عند الله من كتاب .

قوله (وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) أي كما أن **موسى عليه السلام عُرف بالنبوة قبل الكتاب** ، فإنكم يا أهل مكة وما حولها قد **عرفتم النبي ﷺ وأمنتموه** على أموالكم وتجارتكم ، كيف – بعد ذلك – لا تستجيبون له في أمر دعوته لكم إلى الإسلام

قوله (أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) إشارة إلى أهل الحق ، وما يتميزون به ليكونوا علامة لغيرهم على طريق الحق ، والمقصود بالخطاب هنا أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون حول أكناف بيت الله الحرام ، وما حوله ولا يزالون على الحق ، وقد آمنوا بمحمد ﷺ بعد ذلك مثل عبد الله بن سلام ، قال القرطبي (الإشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك)[4]، قال مقاتل بن يسار (يعنى **أهل التوراة يصدقون** بالقرآن)[5] كقوله : (**والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ** وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ) [الرعد : 36] .

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 141
[2]) رواه مسلم ج4 ص 104 رقم 1233
[3]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2186
[4]) تفسير القرطبي ج9 ص 17
[5]) تفسير مقاتل ج2 ص 120

وهكذا يتحقق الإيمان بالقرآن من حيث يتحقق اليقين الاعتقادي والاتباع المنهجي والتطبيق العملي لكل أحكامه ، قال تعالى (**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**) (البقرة/121) ، فربط الإيمان به بتلاوته حق تلاوته أي بتطبيق أحكامه واتباع شرعه .

وفي قوله (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فالنار موعده) قال قتادة (الكفار أحزاب كلهم على الكفر)[1] ، قال ابن عاشور هذه الجملة عطف على قوله (أفمن كان على بينة من ربه) ، فلما حرض أهل مكة على الإسلام بقوله: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [هود: 14]، وأراهم القدوة بقوله: (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) ، عاد فحذر من الكفر بالقرآن بهذه الآية)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (**ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار**) ،فجعلت أقول أين تصديقها في كتاب الله وجدت هذه الآية (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) قال (**الأحزاب الملل كلها**)[3] ، وفي ذلك دليل على من قال أن **الكفر كله ملة واحدة** في حرب الإسلام والمسلمين ، فقد وصف الله الكافرين بالأحزاب لأنهم يتحزبون معا لمواجهة الإسلام ، كما قال الله تعالى (وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ) (البقرة217).

قوله (فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ منه) (**الخطاب للنبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين**)[4] ، أي (فلا تكن في مرية مما وعدك الله به من النصر على أعدائك)[5]، فذلك حاصل ولا شك ، **ولا يستبطئ المسلمون قدوم النصر** ، فهو قادم لا محالة ، وليكونوا على الدرب المستقيم حتى يأتيهم اليقين .

قال صاحب الظلال (**وما شك رسول الله** ﷺ فيما أوحي إليه ، ولا امترى وهو على بينة من ربه ، ولكن هذا التوجيه الرباني عقب حشد هذه الدلائل والشواهد **يشي بما كان يخالج نفس رسول الله ﷺ من ضيق وتعب** ووحشة من جراء **تجمد الدعوة وكثرة المعاندين** ، تحتاج كلها إلى **التسرية عنه** بهذا التوجيه والتثبيت ، كذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب يحتاج إلى **برد اليقين** يتنزل عليهم من رحم الرحيم)[6].

قوله (إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) هذا هو شأن **المتجرد** في طريق الدعوة ، فهو **لا ينتظر** أن يتبعه أحد ، بل هو **ماض** في طريق دعوته وإن كان **يأمل** أن يتبعه الناس

وأهل الحق يعلمون أنهم على الحق ولو كثر مخالفيهم ، لأنهم يعلمون أن قضاء الله وقدره أن **يتبعهم أقل الناس** وليس أكثرهم ،ونظير ذلك قوله (**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) [يوسف103]، وقوله (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ) [الأنعام 116]، وقوله (**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ**) [الصافات71] .

المسألة السابعة : الظالمون يفترون ويصدون لكنهم لا يعجزون

---

[1]) الدر المنثور ج5 ص 285 ، تفسير الطبري ج15 ص 280
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 226
[3]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 372 رقم 3309
[4]) النكت والعيون للماوردي ج2 ص 192
5) قال الواحدي (من هذا الوعد) ص 336
[6]) في ظلال القرآن ج4 ص 206

قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ (20) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (21) لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (22)

قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا..) (هود/18) إشارة إلى طريقة الكافرين في الصد عن سبيل الله تعالى ، وصرف الناس عن دين الإسلام ، حيث يعمدون إلى اختراع طريقة مبتكرة لدين جديد يضاهي دين الإسلام في ظنهم ، يجمع ما استحسنته أمزجتهم من دين الإسلام ويتركون ما لم تستحسنه أهواءهم ، فيفترون على الله تعالى دينا مخترعا ، لينصرف الناس عن الاهتمام بالدين الحق ، ولذلك عدهم الله تعالى أنهم **أظلم الظالمين** ، لأنهم بهذه الخطة الخبيثة **يصدون** عن سبيل الله ، **ويلبسون** الحق بالباطل .

قوله (..أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (هود/18) أي أن أولئك الآفاكون **يفضحهم الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد** ، فعَنْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يُدْنَى الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا يَقُولُ أَعْرِفُ يَقُولُ رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ فَيَقُولُ **سَتَرْتُهَا** فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ثُمَّ تُطْوَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ أَوْ الْكُفَّارُ **فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ** (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [1] .

قوله (..أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) قال ابن بطال (ولعنة الله الإبعاد من رحمته ، والظلم محرم فى كل أمة ، وقد جاء فى الحديث : (أن **دعوة المظلوم لا ترد ، وإن كانت من كافر**) ، ومعنى ذلك أن الله تعالى لا يرضى ظلم الكافر كما لا يرضى ظلم المؤمن ، وأخبر تعالى أنه لا يظلم الناس شيئًا ، فدخل فى عموم هذا اللفظ جميع الناس من مؤمن وكافر)[2].

ولذلك قيل أن هذه الآية نزلت في مدعي النبوة مثل (**مسيلمة الحنفي**[3] **والأسود العنسي**[4])[5]، فعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُوتِيتُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ ، فَوُضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، فَكَبُرَا عَلَيَّ وَأَهَمَّانِي ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ انْفُخْهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُهُمَا الْكَذَّابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَنَا بَيْنَهُمَا صَاحِبَ صَنْعَاءَ وَصَاحِبَ الْيَمَامَةِ)[6].

---

[1]) رواه البخاري ج14 ص 266 رقم 4317

[2]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج3 ص 548

3) في أواخر عهد النبي محمد ﷺ ، ادعى مسيلمة النبوة وكذب على الناس، وكان يتقول أسجاعاً تشبه القرآن الكريم، وكتب للنبي يطالبه بأن يشاركه في أمر الأرض ويجعل له نصف الأمر، فرد عليه النبي برسالة يرفض فيها باطله ويلقبه بـ "الكذاب"، وحاول مسيلمة تقليد معجزات النبي ﷺ ففشل ذريعاً؛ فعندما حاول أن يبارك في ماء بئر أو يشفي مريضاً، جف الماء وفقدت البئر عذوبتها وعمي من مسح على عينيه، مما أثبت لكثير من قومه بطلان دعواه

وبعد وفاة النبي ﷺ ، استفحل أمر مسيلمة وتجمع حوله عدد كبير من قومه بني حنيفة، فوجه إليه الخليفة أبو بكر الصديق جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ودارت معركة شرسة سنة 12 هجرياً عرفت بمعركة اليمامة (أو حديقة الموت)، وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل مسيلمة الكذاب على يد وحشي بن حرب رضي الله عنه

4) خرج الأسوَدُ العَنْسيُّ -واسمُه عَبهلةُ بنُ كَعبِ بن غَوثٍ- في آخِرِ حياةِ رَسولِ اللهِ ﷺ في سَبْعمائةِ مقاتِلٍ، فكَتَبَ إلى عمَّالِ النَّبيِّ ﷺ : أيُّها المتمَرِّدون علينا، أمسِكوا علينا ما أخَذْتُم مِن أرضِنا، ووفِّروا ما جمعتُم؛ فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه، ثمَّ توجَّه مع مقاتِليه إلى نجرانَ فأخَذَها، ثمَّ قَصَدَ صنعاءَ، فخرج إليه شَهرُ بنُ باذامَ فتقاتلا، فغلَبَه الأسوَدُ وقتَلَه وتزوَّج بامرأةِ شَهرِ بنِ باذامَ، وهي ابنةُ عَمِّ فيروزَ الدَّيلميِّ، واسمُه آزاذُ، وكانت مؤمنةً باللهِ ورَسولِه ﷺ ، ومِن الصَّالحاتِ، واحتَلَّ العَنسيُّ صنعاءَ، فذهب معاذُ بنُ جبَلٍ وأبو موسى الأشعريِّ إلى حَضرَموتَ، وانحاز عُمَّالُ رَسولِ اللهِ ﷺ إلى الطَّاهِرِ، ورجَعَ عُمَرُ بنُ حرامٍ وخالِدُ بنُ سعيدِ بنِ العاصِ إلى المدينةِ،

قال ابن حجر (تأول السوارين عليهما لوضعهما في غير موضعهما ، لأنه ليس من حلية الرجال ، وكذلك الكذاب يضع الخبر في غير موضعه ، وفي كونهما من ذهب إشعار بذهاب أمرهما)[1] .

قال ابن بطال (النفخ فى المنام إزالة الشىء المنفوخ فيه ، وإهاب له بغير تكلف شديد لسهولة النفخ على النافخ ، والنفخ دليل على الكلام ، وكذلك أهلك الله الكذابَين صاحب صنعاء واليمامة بكلامه عليه السلام ، وأمر بقتليهما)[2]

قوله (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (هود/19) أي أن ما سلف ذكره من أخلاقهم الذميمة —والتي منها الظلم والافتراء على الله– يتمحض إلى صد عن سبيل الإسلام ، ودعوة إلى الاعوجاج عن الصراط المستقيم ، وتحريض علي إنكار الحياة الآخرة ، الأمر الذي يستتبعه تحول الناس عن الإسلام والانشغال بالحياة الدنيا بطريقة نفعية محضة ، أي بطريقة انتهازية حتى يؤول الأمر إلى ظلم وبغي على حقوق الناس ، وتلك هي النتيجة الحتمية للكفر بالآخرة .

ففي قوله (..وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ..) (19) قال الجزائري أي (أنهم يريدون من الاسلام أن يوافقهم في أهوائهم وما يشتهون حتى يقبلوه ويرضوا به دنيا)[3]، وذلك حال أهل الكتاب على وجه الخصوص ، وهم الذين ذمهم الله بأنهم

واستوثقَت اليمَنُ للأسودِ العَنسيِّ، وجَعَل أمرُه يستطيرُ استطارةَ الشَّرارةِ، واشتَدَّ مُلكُه، واستغلظ أمرُه، وارتَدَّ خَلقٌ مِن أهلِ اليَمَنِ، وعامَلَه المسلمون الذين هناك بالتَّقِيَّةِ فبعثَ رَسولُ اللهِ ﷺ حين بلَغَه خَبَرُ الأسودِ العَنسيِّ كِتابَه مع قيسِ بنِ مكشوحٍ يأمرُ فيه المسلمين الذين هناك بمُقاتَلةِ العَنْسيِّ ومُصاولتِه، فقام معاذُ بنُ جَبَلٍ بهذا الكتابِ أتَمَّ قيامٍ، واتَّفَق معاذُ بنُ جبَلٍ ومَن الْتَفَّ حولَه مِن أهلِ اليَمَنِ، وقيسُ بنُ عبدِ يغوثَ أميرُ جندِ الأسوَدِ، وفَيروز الدَّيلميُّ؛ على الفَتكِ بالأسوَدِ وقَتْلِه، وتعاقدوا عليه، فلمَّا كان الليلُ دَخَلوا عليه البيتَ؛ تقَدَّم إليه فيروز الدَّيلميُّ، وكان الأسوَدُ نائمًا على فراشٍ من حريرٍ، قد غَرِقَ رأسُه في جَسَدِه، وهو سَكْرانُ يَغطُّ، والمرأةُ جالسةٌ عنده، فعاجَله وخالَطَه، وهو مِثْلُ الجَمَلِ، فأخَذَ رأسَه، فدَقَّ عُنُقَه ووَضَع رُكبتَيه في ظَهْرِه حتى قَتَلَه، وجلس قيسٌ وداذويه وفيروز يأتمرونَ كيف يُعلِمونَ أشياعَهم، فاتَّفقوا على أنَّه إذا كان الصَّباحُ ينادون بشِعارِهم الذي بينهم وبين المسلمين، فلمَّا كان الصَّباحُ قام أحَدُهم -وهو قيس- على سُورِ الحِصنِ، فنادى بشِعارِهم، فاجتمع المسلِمون والكافِرون حول الحِصنِ، فنادى قيسٌ: أشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وأنَّ عَبهلةَ كذَّابٌ، وألقى إليهم رأسَه، فانهزم أصحابُه، وثبَتَهم النَّاسُ يأخُذونهم ويرصُدونهم في كلِّ طريقٍ يأسِرونَهم، وظهر الإسلامُ وأهلُه، وتراجَعَ نوَّابُ رسولِ اللهِ ﷺ إلى أعمالِهم، واتَّفقوا على معاذِ بنِ جَبَلٍ يصلِّي بالنَّاسِ، وكتبوا بالخَبَرِ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ ، وكانت مُدَّةُ مُلكِه منذ ظهر إلى أن قُتِلَ ثلاثةُ أشهُرٍ أو أربعةُ أشهرٍ .

https://dorar.net/history/event/6103

[5]) تفسير النيسابوري ج3 ص 312
[6]) رواه البخاري ج21 ص 416 رقم 6515
[1]) فتح الباري لابن حجر ج12 ص 424
[2]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج9 ص 551
[3]) أيسر التفاسير ج2 ص 256

يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وهم هم الذين يلبسون الحق بالباطل ، قال تعالى (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ **لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء** وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (آل عمران 99)

قوله (..وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (هود/19) معلوم أن الكافر يكفر بالله وبرسله وبكتابه وبالقدر خيره وشره لكن ذكره هنا بأنه كافر بالآخرة وتكرار الضمير (هم) للتأكيد على هذا المعنى ، **وقصر الكفر بالآخرة على الكافرين** ، لاختصاصهم به[1] ، أي إنهم هم الكافرون حقا ، وفي ذلك إشارة إلى أن الذين يريدون الاعوجاج عن منهج الله هم الذين يكفرون بالآخرة ، وهم هم الذين لا يرجون لقاء الله ، وهم الذين لا يرجون حسابا .

قوله (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ) (هود/20) نفي أن يكون قد مضي زمن أعجزوا الله هربا من قضائه أو فرارا من عذابه ، أي أنهم لم يكونوا يوما معجزين الله في الأرض ، ولكن الله يترك الظالم حتى يملي له ، لكن إذا أخذه لم يفلته ، قال رسول الله ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**)[2] ، قال العلماء (والنفي على التأبيد)[3] .

قوله (..وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء..)(20) وذلك كقوله (**وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**) (الشورى 8) ، أي أن جميع أسباب الاستقواء ووسائل التمكين وكل الأصحاب الموالين والأتباع الناصرين ليس لهم نفع يوم القيامة ، وذلك حال العرض على الله الخالق الجبار ، ما لم تكن هذه الولاية لأجل مرضاة الله سبحانه ، ولذلك يقول تعالى (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء **فَاللَّهُ** هُوَ **الْوَلِيُّ** وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الشورى 9)

والولاية لا تكون إلا لله ، ومن يوالي غير الله يقطع صلته بالله ، فلا تجتمع مع ولاية الله ولاية غيره ، قال تعالى (وَمَنْ **يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً** مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً) [النساء: 119].

قوله (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) قال الشنقيطي في سبب التضعيف أنهم (يعذبون على **ضلالهم** وعلى **إضلالهم**)[4]، قال تعالى (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً **فَوْقَ الْعَذَابِ** بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) [النحل/88].

قوله (مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ) أي (القبول والعمل به، لأنه مسبب عن السمع، فهنا أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع ، لأنهم **لو سمعوا ووعوا لاهتدوا**، لأن الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها ، **فسماعه كاف في حصول الاهتداء**) [5] , وفي ذلك تعليل لتضعيف العذاب بهم ، ذلك أن الله أعطاهم نعمه ولكنهم جحدوا بها فلم يستعملوها كما أراد الله ، وعطلوا أجهزة الاستقبال

---

[1]) تفسير أبي السعود ج3 ص 332
[2]) رواه البخاري ج14 ص 268 رقم 4318
[3]) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان ج2 ص 234
[4]) أضواء البيان للشنقيطي ج2 ص 175
[5]) فهد بن عبد الله الحبيشي : ري الظمآن في بيان القرآن ص5

قال الواحدي (فكانوا صُمًّاً عن الحقِّ فلا يسمعونه ، وعمياً عنه فلا يبصرونه ، ولا يهتدون)[1] ، قال ابن تيمية (عدم هذه الإستطاعة كان **بتفريط وعدوان** –الكافر– ..) ومن هذا قوله سبحانه (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) (الأنعام 11) وقال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله **بكفرهم** فقليلا ما يؤمنون)(البقرة 88) وقال (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها **بكفرهم** فلا يؤمنون إلا قليلا) (النساء 155)[2].

يعني أنهم عطلوا آلة السمع عن سماع الآيات والمواعظ وآلة النظر عن رؤية الآيات الكونية وإبصار مصارع الغابرين والاعتبار بها ، فكان حالهم كالعمي والصم ، لا يهتدون ، قال سبحانه (**وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ** إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)[الأحقاف/26] ، وقال تعالى (**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا** أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف/179) ، فذمهم الله تعالى وقال (**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**) (الحج 46)

قال الشنقيطي (والظاهر أن **عدم الاستطاعة** المذكور في الآية إنما هو **للختم** الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل على أبصارهم. ويشهد لهذا القول قوله تعالى (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) [البقرة/7] ، وقوله (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)، ونحو ذلك من الآيات ، وذلك الختم والأكنة على القلوب **جزاء** من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى **الكفر** ، **والاسترسال** في أسبابه .

قال رسول الله ﷺ (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا **لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا** إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)[3]

قوله (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (هود 21) خسروا أنفسهم إذ باعوها للشيطان ،ولم يبيعوها لله ، والله اشترى ، ولكنهم عقدوا صفقتهم مع الشيطان ، قال رسول الله ﷺ (**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**)[4]، قال النووي (فمعناه كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها أى يهلكها)[5] ، وقال القاضي أبو الفضل عياض أي (من باعها من الله أعتقها ومن باعها من غيره أوبقها)[6]، قال المباركفوري (فهو بائع أي باذل نفسه، فمن بذلها في طاعة الله فهو معتقها، ومن بذلها في هوى نفسه فهو مهلكها)[7]

وخسارة النفس تعني أنهم (بَخَسُوهَا حُظُوظَهَا ، وَصَرَفُوا أَعْمَارَهُمْ فِيمَا أَفْضَى بِهِمْ إِلَى العَذَابِ)[8] ، واستتبع ذلك الخسارة ضلال سعيهم في الدنيا والآخرة .

---

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 337
[2]) جامع الرسائل ج1 ض 246
[3]) رواه مسلم ج1 ص 349 رقم 207
[4]) رواه مسلم ج2 ص 3 رقم 328
[5]) شرح النووي على مسلم ج3 ص 102
[6]) مشارق الأنوار على صحاح الآثار ج1 ص 107
[7]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج2 ص 3
[8]) علي بن نايف الشحود : الخصال الموجبة لدخول النار ج2 ص 28

قوله (..وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ) (هود 21) تصوير لمشهد انهيار الآمال الزائفة ؛ فبدلا من أن تنجدهم آلهتهم المزعومة، تلاشت وكأنها لم تكن، مما يضاعف حسرتهم وعذابهم النفسي ، فالتعبير بكلمة "ضلّ" يوحي بالضيّاع والغياب التام وقت الحاجة ، وهكذا **تخيب آمالهم** فيمن كانوا يستمسكون به ويدعونه من دون الله ، ووصف آلهتهم الباطلة بـ "الافتراء" يبين أنهم كانوا ينسبون لها زورا ما لا يحق لها من التقديس والتعظيم ،وكان الواجب عليهم أن يعظموا ربهم ، ويوقروه .

قوله (لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) (هود/22) حيث يستتبع خسارة أنفسهم وضلال سعيهم في الحياة الدنيا أن يحصل لهم خسران آخر في الآخرة ، قال تعالى (قُلْ **إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الزمر/15) .

كأن المعنى **حقيق على هؤلاء أن يكونوا هم الأخسرون في الآخرة** ، ولابد أن يحصل ذلك[1] ، ذكر ابن الأنباري أن «لا» رد على أهل الكفر فيما قدَّروه من اندفاع الشر عنهم في الآخرة ، والمعنى : (لا يندفع عنهم عذابي –بل يحق بهم– ، ولا يجدون ولياً يصرف عنهم نقمتي)[2].

المسألة الثامنة : حال المؤمنين المخبتين بخلاف غيرهم

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (24)

قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (هود/23) القرآن يعقد مقارنة –كعادته– بين فريقين ، فإذا ذكر مصير الكافرين تبعه ذكر مصير المؤمنين ، فذكر هنا فريق المؤمنين بصفة "**الإخبات**" أي الذين اطمأنوا إلى ربهم ، واستجابوا لأوامره بالكلية حتى أضحت التكاليف الشرعية عاداتهم التي استراحوا بها ، قال الألوسي (وأصل الإخبات نزول الخبت ، وهو **المنخفض من الأرض** ، ثم أطلق على **اطمئنان النفس** والخشوع تشبيهاً للمعقول بالمحسوس ثم صار حقيقة فيه)[3] ، أي الذين تطامنوا وخشعوا لربهم بطاعته وخشيته ، قال الزمخشري (أي **اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع** والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئنة)[4].

قال ابن القيم (والإخبات **جامع لمقام المحبة والذل والخضوع** لا يكمل أحدها بدون الآخر) [5]، ولذلك فإن مقام الإخبات هو مقام الموحدين بالله تعالى ، الذين صحت عقيدتهم على التوحيد وعبادتهم على الإخلاص ، قال تعالى

---

1) قال الفراء : «لا جرم» كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة ، فجرت على ذلك ، وكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة «حقا» ، قال الزجاج : ومعنى «لا جرم» : «لا» نفي لما ظنوا أنه ينفعهم .

[2]) ابن الجوزي : زاد المسير ج3 ص 333

[3]) تفسير الألوسي ج8 ص 206

[4]) الكشاف ج3 ص 77

[5]) مدارج السالكين ج1 ص 136

(فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ **فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ** (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ **وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الحج 35)

وقد كان النبي ﷺ حريصا في دعائه أن ينال مقام المخبتين ، فعن بن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يدعو بهذا (رب أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي ، ويسر لي الهدى ، وانصرني على من بغى علي ، رب اجعلني شكارا لك ذكارا راهبا لك مطواعا لك **مخبتا لك** أواها منيبا ، تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة قلبي) [1].

ويشرح الشيخ خالد السبت معنى الإخبات بصورة عملية فيقول أن (**ينصرف قلب الإنسان عن الأمور المشينة ولا يلتفت إليها** ، ويتذكر مباشرة عظمة الله وجلال الله ورقابة الله، **فلا تتحرك نفسه للمعصية** أو الوقوع في الريبة والدخول في أمور وطرائق ليس له أن يدخل فيها.. 'حرست قلبي عشرين سنة وحرسني عشرين سنة ثم وردت عليّ وعليه حالة صرنا محروسين جميعاً' معنى هذا الكلام : أنه كان في مكابدة في عشرين سنة حتى استقام قلبه ، فحرسه عشرين سنة، ثم مرت عليه أحوال صار قلبه محروساً، وصارت جوارحه محروسة حينما تروضت على طاعة الله عز وجل، **فالعين لا تنظر إلا إلى ما يرضي الله**، وصار السمع المحرم الذي يعشقه كثير من الناس وتميل إليه قلوبهم صار قلبه ينفر منه وصارت أذنه تمجه لا يجد له لذة وحلاوة يجدها أولئك الذين مرضت قلوبهم ولهذا إذا أردت أن تربي نفسك فعليك أن **تحرس قلبك** أولاً ثم يحرسك هذا القلب ثم تكون بعد ذلك محروساً معها، لا يكفي أن نعلم الناس بعض الأمور الظاهرة لا يكفي أن تعلمهم بعض الآداب– مع أنها مطلوبة– بل لابد أيضا أن نربي القلوب على الإخبات والخوف والمحبة والخشية والمجاهدة والصبر واليقين وما إلى ذلك من المعاني)[2]

قوله (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) (هود/24) ذلك أن الذين **عطلوا آلاتهم وحواسهم** ليس كمن **استعملوها واستفادوا منها** ، قال تعالى (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ) (غافر/58) ، فالاختلاف بين الفريقين شديد ، والفوارق بينهما ظاهرة ، ولا مجال للتوسط بينهما ، فإما إبصار وسمع أو عمى وصمم ، وإما النور أو الظلمات ، **هكذا لابد وأن يفهم المؤمن الفارق بينه وبين من حاد عن طريقه** ، فيتذكر نعمة ربه عليه أن منَّ عليه بنعمة الإيمان .

قال ابن القيم (ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم ، فوصفهم **بعبودية الظاهر والباطن** ، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه، فشبهه بمن بصره أعمى عن رؤية الأشياء وسمعه أصم عن سماع الأصوات ، والفريق الآخر بصير القلب سميعه كبصير العين وسميع الأذن فتضمنت الآية **قياسين** وتمثيلين للفريقين ثم **نفى التسوية** عن الفريقين بقوله هل يستويان مثلا) [3] .

---

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 232 رقم 665 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 250
[2]) أعمال القلوب ج1 ص 19
[3]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 479 – إعلام الموقعين ج1 ص 183

المحور الثاني

استقامة نوح في دعوته الإصلاحية على منهج الولاء للمؤمنين وهم قلة ، والبراء من ابنه وهو كافر

قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (25) أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (30) وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّيَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (33) وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

تصدر ذكر المنهج الإصلاحي لنبي الله نوح بمشهد دعوة قومه لعبادة الله وحده وإظهار الشفقة عليهم والخوف عليهم من أن يصيبهم عذاب الله ، وهو ذات المنهج الذي تصدرت به السورة الكريمة ، ولكن يبدو أن الملأ من قومه الكافرين استكبروا كالعادة عن قبول هذه الدعوة بحجة اعتراضهم على بشرية الرسول ، وعلى أتباعه الذين تزدريهم أعينهم كذلك ، فهم يرون أنه بشر مثلهم وغير مفضل عليهم ، وكذلك اعترضوا على أتباعه بأنهم لا قيمة لرأيهم ولا شأن لهم يوزن بموازينهم ، ولذلك كذبوهم بكل جراءة وفقا **لمعايير الدنيا** التي يرتبون بها الناس درجات وطبقات ، وكأن الرسالة حكرا على الطبقة الاستقراطية ، ولا يتبوأ مقام الدعوة إلا الأغنياء والأقوياء وليس للفقراء والضعفاء نصيب من العمل لله .

فاستقام نبي الله نوح على المنهج الذي آتاه من ربه ولم يركن لطلبهم ، واستمسك بالفئة المؤمنة ولم يطردهم عن حلقته كما طلب هؤلاء المستعمين عن الحق ، فليس مطلوب منه أن يلزمهم بالحق وهم له كارهون ، فولايته للذين آمنوا ليست محل مساومة ، فهو لم يلزمهم بأن يدفعوا له أجر الاشتراك في هذه الدعوة ، حتى يتجرؤوا على مساومته ليطرد الذين آمنوا ، فالله ينصر دعوته ولا شك ببركة هذه القلة المستضعفة من الذين آمنوا ، كما قال النبي ﷺ **(هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ)** ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ **هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ)**[1].

كما أنه لم يعدهم بأنه بمنهجه الإصلاح سوف يفتح لهم خزائن من الأموال ، أو يستنصرون بملكه على اعتبار أن الملائكة الذين يحفونه والذين آمنوا هم له مؤيدون وناصرون ، كما لم يقلل من شأن أخوانه المؤمنين ، ليسترضيهم ، فالله سبحانه أعلم بما في النفوس والقلوب والصدور .

هنا انقطع رجاء الكافرين في نبيهم ، وقد ظنوا قبل ذلك أنهم هم الحظوة لو تخلى عن أصحابه وحوارييه ، واستبان ذلك بقولهم (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (32) ، ولكن المنهج الإصلاحي جعله يعرض عن قولهم ويكل هذا الأمر لله (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) (33) ولو حصل ذلك ونزل بهم ما يستعجلون به من العذاب فعندئذ محاولته للإصلاح والتغيير لن تجدي أمام قضاء الله وقدره ، فقال لهم (وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (34) بذلك يستبين أن **على النبي إرادة الإصلاح ، وليس عليه تحقيق الإصلاح ذاته** ، فالله وحده بيده هذا الأمر .

وهنا انقلب الذين كفروا على نبيهم نوح عليه السلام وبدأوا حملة التشوية والتكذيب بعدما فشلت محاولتهم استمالته لهم ومساومته في أصحابه ، والبحث عن أي مصلحة دنيوية قد تعود عليهم من اتباعه ، فلما فشلت خططهم للانضمام إليه مقابل هذه الترضيات التي لا يرضى عنها الله ورسوله ، هنا قالوا أنه مفتري على الله ، فتبرأ منهم النبي وأوحى الله إليه (أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ) ، ليبدأ عهد جديد من الدعوة الإسلامية ، وهو عهد الشروع في بناء المشروع الإسلامي المعروف على مدار الأزمان بسفينة نوح ، سفينة نجاة المؤمنين ، فلابد لكل دعوة إسلامية في أي زمان من سواعد تشترك معا في مشروع واحد يحقق إرادة الله بجعل العاقبة للمتقين ،والصبر هو الدواء حتى التمام .

وعندما شرع نوح في بناء سفينته في الصحراء ، وهو على ثقة بأن الله سبحانه سوف يعينه على ذلك ، فأعانه بعينه سبحانه ، وأخبره بغرق هؤلاء المستعمين جميعا ، ونهاه عن موالاتهم والدعاء لهم ، فقال سبحانه (وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) (37) ، ففي هذا المشهد مر عليه قومه وهم يسخرون منه ، أنه يشرع في بناء سفينة النجاة في صحراء لا زرع فيها ولا ماء ، وهنا سخر هو منهم —كذلك – أنهم لا يدركون أن عذاب الله سوف يحيق بهم ، وقد كذبوه وكذبوا بعذاب الله الذي اقترب نزوله عليهم .

[1]) رواه البخاري ج10 ص 25 رقم 2681

وظل الحال بين الفريقين في مجادلة طيلة شروع المؤمنين في بناء السفينة مع نبيهم حتى صدق الله وحصل الطوفان ، وحمل نبي الله نوح من كل كائن حي زوجين ليظل التناسل مستمرا ، وليبدأ عهد جديد بسفينة تحمل المؤمنين ، أما من كذب بها وسخر صار من المغرقين .

من ذلك نفهم أنه **لابد من الاستقامة على دوام العمل في المشروع الإسلامي حتى في ظل السخرية منه** ، وأن الأسباب الدنيوية تجري عكس ما يؤمن به أهل الحق ، لكنهم يثقون في الله فهو الذي ينجي المؤمنين ، ولذلك جرت السفينة وسط الأمواج تحملهم بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، رغم أن هذه القلة المؤمنة —وفقا لأسباب الدنيا – لا حيلة لهم بصناعة أضخم سفينة في التاريخ ، ولا حيلة لهم بقيادتها في ظل أشد وأعتى أمواج شهدتها البشرية في تاريخها ولن تشهد مثلها .

وهذه الاستقامة التي سار على نهجها نبي الله نوح هي أحد ركني عقيدة الحب والبغض في الله ، كما قال النبي ﷺ (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ **وَحَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**)[1] ، وقد بدا من السياق أنه لم يركن للذين ظلموا في شيء ، ما يعني أنه ظل مواليا للمؤمنين رغم تعدد محاولات الكافرين إقصائهم عنه ، فهل استقام نبي الله نوح علي عقيدة البراء كذلك كما استقام على عقيدة الولاء ؟

هذا هو ما تحدثت عنه الآيات حينما عرضت مشهد الموج وقد حال بينه وبين ابنه وهو علي الكفر ، وقبل هذا المشهد كان يناديه ليركب معه ، ولكنه استقوى بالجبل فلم يعصمه من أمر الله ، وغرق أمام عينيه ، هنا وبعد أن استقرت السفينة على جبل الجودي لم يصدق نوح عليه السلام ما هاله وحصل لابنه أمام عينه ، فتساءل هل هو في الجنة أم في النار ؟ فصدمة الأب في ابنه أدهشته ، **والمدهوش له أحكام خاصة** ، فقد يغفر له ما لم يغفر لغيره ، فسأل ربه أن يقبل شفاعته في ابنه ، ولكن العتاب جاءه من ربه مباشرا ، (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (46) ، وهكذا شيبت هود رسول الله ﷺ وهو يقرأها ، وهو يعلم أن الاستقامة **على الإسلام وعلى عقيدة الولاء والبراء لابد وأن تكون أحد من السيف** ، فاستفاق نبي الله نوح من عتاب ربه ، واستدرك الأمر وقال (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) (47) .

واختتمت القصة برسو واستقرار السفينة على جبل الجودي وهبوط نبي الله نوح والمؤمنين من السفينة بسلام من الله وبركاته عليه وعلى الأمم التي ركبت السفينة معه التي سوف يخلقها الله من ذرية هؤلاء الصالحين ثم يمتعهم الله تعالى في الدنيا ليبدأ الاختبار من جديد .

وقد أشارت الآيات إلى كفار أهل مكة ومن حولها من القرى هم أنفسهم ذرية أجدادهم المؤمنين الذين ركبوا في تلك السفينة مع نبي الله نوح ، فمن أين نشأ الكفر إذن ؟ فعليهم أن ينتبهوا ، فعذاب الله لابد وأن يمس من اعوج عن الطريق المستقيم ، وصار في طريق الشيطان ، فهؤلاء المشركون هم أنفسهم أحفاد المؤمنين ، ولكنهم اعوجوا عن الصراط المستقيم إلى الشرك وتركوا صراط الله الذي كان عليه آباءهم الصالحين ، **ما يعني أن دعوة نبي الله نوح الإصلاحية تتلخص في إرادة الإصلاح وليس عليه تحقيق الإصلاح ذاته .**

[1]) رواه أحمد ج27 رقم 419 رقم 13372 وصححه شعيب الأرنؤوط وقال صحيح على شرط الشيخين ـ انظر مسند أحمد بتعليقه ج3 ص 272 رقم 13902

ولذلك جاء التعقيب على هذه القصة ببيان أن الصبر مفتاح الفرج ، وأن العاقبة لابد وأن تكون للمتقين (تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (49) ، **فتحقيق الإصلاح يعني تحقيق إرادة الله سبحانه بأن تؤول عاقبة الأمور كل مرة للمتقين** .

قوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (هود/25) يلاحظ –هنا– أن **النذارة جاءت ولم ترادفها البشارة** ، بل خلت منها تماما ، لأن الذي يتعرض لخطر النار لابد من دفعه ، لا ترغيبه وتخييره ، قال الشوكاني (واقتصر على النذارة دون البشارة لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به) [1].

ولا يخفى كم البشارة التي قدمها نوح لقومه من ذلك قوله (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) (هود 52) ، لكن المقام هنا جاء بتصدير النذارة لأن **أجل هذه الأمة قد حان** .

قوله (أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) (هود26) قال الشوكاني (جملة "أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ" **مفسرة** متعلقة بأرسلنا أو بنذير أو بمبين)[2].

ويلاحظ –هنا – أن الخطاب الدعوى انحصر في بيان أمر **توحيد العبودية** ، **فهو أولى مقامات البلاغ** ، وقد اقترن به إشفاق النبي على قومه ، أن يحيق بهم استئصال الله لهم في الدنيا قبل أن يصيبهم عذاب الآخرة ، أي يهلكهم قبل أن يتوبوا .

و(جملة "إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ" **تعليلية**)[3]، قال ابن عاشور (تخويفهم بعذاب الدنيا أوقع في نفوسهم)[4]، وأيسر للاحتجاج به عليهم ، وعندها يعتبرون بما حصل للأمم التي سبقتهم ، وكانت من قبلهم .

ولذلك كان النبي ﷺ يخاف أن يُهلك الله قومه بذنوبهم ، ويتربص وقوع ذلك بهم بغتة ، ولكن الله سلم ، فعنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **إِذَا رَأَى مُخِيلَةً تَلَوَّنَ وَجْهُهُ** وَتَغَيَّرَ وَدَخَلَ وَخَرَجَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ ، فَإِذَا أَمْطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ فَذَكَرَتْ لَهُ عَائِشَةُ بَعْضَ مَا رَأَتْ مِنْهُ فَقَالَ وَمَا يُدْرِيكِ لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمُ هُودٍ (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ **قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ**)[5].

قوله (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا..) (هود/27) هنا نرى مدى العمه والصمم الذي أصابهم ، فالنبي يحدثهم عن عذاب الله ، وهؤلاء يردون عليه بأنه بشر لا يملك حق نصحهم ولا إنذارهم ، ونظير ذلك

---

[1]) فتح القدير ج3 ص 440
[2]) فتح القدير ج3 ص 440
[3]) فتح القدير ج3 ص 440
[4]) التحرير والتنوير ج11 ص 203
[5]) رواه ابن ماجة ج11 ص 362 رقم 3881 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 337 رقم 3139

قوله (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ **يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون 24)

والحقيقة أن الناس لا ينقادون غالبا إلا لمن تميز عليهم بقوة السلطان أو كثرة المال ، أما أن يدعوهم إلى الله فيستجيبون له ، فذلك محل جدل بينهم ، **فبشرية الرسول هي دليل صلاحية المنهج للتطبيق** على البشر بشكل عملي مشاهد ، (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ **أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب21) ، ما يعني أن شرع الله ليس مجرد حكم وآداب مثالية بعيدة عن واقع الناس وحياتهم ، بل سبق وأن التزم هذا المنهج نبي بشري مثلهم ، وتبعه كذلك أصحابه وحواريه وتبعهم في الاقتداء تابعيهم وتابعي تابعيهم حتى يومنا هذا .

قوله (.. وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[1] بَادِيَ الرَّأْيِ..) يستشهدون عليه بأتباعه الذين تزدريهم أعينهم ، وتحتقرهم قلوبهم ، وهم عندهم أقل الناس شأنا ، وإن كانوا عند الله أعظمهم قدرا ،يقول رسول الله ﷺ (**رُبَّ أَشْعَثَ[2] مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ[3] لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ**)[4]، ولكنهم لا يعلمون ذلك ويقولون لو كان الرسول حقا لاتبعه أفضل الناس وأغناهم وأعلاهم مكانة بيننا ، ،كما قال فرعون (**إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ**) (الشعراء/55) ، ظنا منهم أن الذين ينصرون هذه الدعوة لابد أن يكونوا من أعيان القوم ووجهائها ، وقد دهشوا لما رأوا أن النبي لا يتبعه إلا أحقر الناس — في ظنهم – شأنا ، وأضعفهم منزلة ، أي من الفقراء والمساكين الذين لا يؤبه لرأيهم ولا لطلبهم .

وهكذا يشير القرآن إلى حال أتباع الأنبياء منذ زمن نوح عليه السلام ، وكذلك أشارت السنة النبوية لحال الصحابة الذين لا يرثى لهم من الضعف ، وكيف أن قريش كانت تضطهدهم وتسخر منهم ، ولكن الله مكَّن هذه الفئة المستضعفة التي استنصرت بربها فاستجاب لها .

فعن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى **الْمُشْرِكِينَ** وَهُمْ **أَلْفٌ** ، **وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ** مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي** اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ **الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ** فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) [5].

---

1) أي أخسنا وأقلنا منزلة وشأنا وهم سفلة الناس وأكثرهم دناءة ووضاعة ، قال ابن جزي (أرذل) جمع أرذل وهم سفلة الناس ، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم ، جهلاً منهم واعتقاداً أن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الأمر كما اعتقدوا ، بل المؤمنين كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا ،التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 695

2) قوله (رب أشعث) أي ثائر الرأس مغبرة قد أخذ فيه الجهد حتى أصابه الشعث وعلته الغبرة (مدفوع بالأبواب) فلا يترك أن يلج الباب (التسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج2 ص 55)

3) قوله (مدفوع بالأبواب) أي لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم (السيوطي : الديباج على مسلم ج5 ص 543)

4) رواه مسلم ج13 ص 60 رقم 4754

5) رواه مسلم ج9 ص 214 رقم 3309

قوله (..وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (هود/27) يحتجون أهل الجدل وأصحاب الأهواء بأن المتبعين للنبي ولأنهم ضعفاء فقراء ، ليس لهم تأثير على الحياة الاقتصادية في البلاد ، ولا وزن لهم في المجتمع ، وكأنهم يتبنون وجهة نظر إقصائية لهذه الفئة القليلة المتبعة للنبي ، فقوله (وما نرى لكم علينا من فضل) يقصدون به (بالمال والشرف والجاه)[1]، قال تعالى (وَقَالُوا **نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**) (سبأ/35) ، ولذلك وبعد أن احتقر هؤلاء الكفار المؤمنين ، وظنوا أنهم لا يؤبه لشأنهم لا اجتماعيا ولا اقتصاديا ولا وزن لهم ، كان من المنطقي وفقا لمفهومهم أن لا يقبل قولهم ، بل ويكذبونهم في دعواهم ، ولذلك قال تعالى (قُتل الخراصون) .

قوله (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)(هود/28) بكَّت النبي قومه أن أصروا على عنادهم وكفرهم ، فقوله (فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ) استعارة، (شبهت الحجة التي لم يدركها المخاطبون ولم تصل إلى عقولهم ، كالعمياء التي لا تصل إليهم ، وهم كذلك لا يصلون إليها ، لأنهم أعمياء ، **فلا تصل لهم ولا يصلون لها**) [2] .

قال فاضل السامرائي (فعمّيت، أنلزمكموها، وأنتم لها كارهون) كلها تعود على الرحمة لذا اقتضى السياق تقديم الرحمة على الجارّ والمجرور)[3] ، يشهد لذلك قوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ **قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ** أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) (الفرقان 60)

ويجدر التنويه إلى أنهم قبل أن تعمى عليهم الرحمة قالوا برأيهم أنهم يرون ثلاثة أمور ، فقالوا :-

- مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا
- وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ
- وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (هود/27)

ولذلك جاء التضعيف في (فَعُمِّيَتْ) التي هي ضد (نرى) التي ذكرت ثلاث مرات لبيان أنهم يزعمون أنهم يرون ، والذي يرونه عمى ، تماما مثل الأعمى ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)[4].

قال الطوسي (وقوله "فعميت" يحتمل أمرين: أحدهما – خفيت عليكم، لأنكم لم تسلكوا الطريق المؤدي إليها، والآخر – أن يكون المعنى عميتم عنها، وأضاف العمى إلى البينة لما عموا عنها لضرب من المجاز ؛ لأن المعنى ظاهر في ذلك ، كما يقال: أدخلت الخاتم في يدي والقلنسوة في رأسي، والمراد أدخلت يدي في الخاتم ورأسي في القلنسوة)[5].

---

[1]) تفسير الخازن ج3 ص 449
[2]) في هذا المعنى ابن عاشور التحرير والتنوير ج11 ص 244 مع بعض التصرف
[3]) لمسات بيانية ج1 ص 515
[4]) د فاضل السامرائي : برنامج أفلا يتدبرون القرآن : لمسات القرآن البيانية
هود/107 ﴿فَعُمِّيَتْ عليكم ﴾ 28، وقرئت "عَمِيَت"، ما دلالة كل منها، وما دلالة استعمال ﴿فَعُمِّيَتْ﴾؟
https://www.youtube.com/watch?v=B4-ED6P0ra8

وفي قوله "أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ " (همزة استفهامية ثم جاء الفعل « نلزم » ثم كاف المخاطبة ، وهنا نكون أمام استفهام ، وفعل ، وفاعل مطمور في الفعل ، ومفعول هو كاف المخاطبة ، ومفعول ثان هو الرحمة)[1]، (والاستفهام غرضه **إنكاري**، أي لا نكرهكم على قبولها، فعلق الإلزام بضمير **البينة** أو **الرحمة**)[2] .

قال الزمخشري (يعني أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاهتداء بها ، وأنتم تكرهونها ولا تختارونها)[3] ، والله تعالى يقول (**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) (البقرة/256) ، فهذا زيادة في **تبكيتهم** وصفهم بما هم أهله ، فقوله (**وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**) بلغ الغاية في تبشيع صورتهم بوصفهم أنهم يكرهون الحق ، قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ **كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ** فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (محمد/8،9) .

وفي قوله (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ) (هود/29) تنزيه الدعوة من أي نفع مادي قد يعود على الداعية ، والرسول لا يبتغي أجرا إلا من الله سبحانه ، فإذا سأل سائل كيف تنجح دعوة بدون تمويل ؟ أجيب عليه بأن الدعوة الحق عمادها قوة الإيمان ، والعقيدة الراسخة ، فإذا وجد المؤمن الصادق وجدت معه وسائل النجاح الدعوة جميعا بتأييد من الله .

وسيرة النبي شاهدة على ذلك ، فقد ساومه قومه على المال ،وقالوا له لو أردت مالا أعطيناك ، ولو أردت سلطانا ملكناك ، ولكنه رفض هذا وذاك .

وإنما يبغي النبي من دعوته أن يدخل الناس في دين الله أفواجا ، ولو أن يؤمن به رجلا واحدا ، يقول النبي ﷺ (فَوَاللَّهِ **لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**)[4].

وفي قوله (.. وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) (هود/29) قال ابن جزي (إنّ الكفار أرادوا من نوح أن يطردهم ، كما أرادت قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد **عمار بن ياسر وصهيباً وبلالاً وأشباههم من الضعفاء**)[5]، ولكنه لم يقبل طلبهم ، وأعلنها لهم صراحة وما أنا بطارد الذين آمنوا ، في ذلك إعلاء لثوابت هذا الدين ، طرح المساومات والمناقشات في الأرض ، إستعلاء بالإيمان علي الجاهلية البغيضة .

فهؤلاء القوم الذين استهزءوا بالذين أمنوا وقالوا عنهم أنهم (أرازلنا) أي أحقر الناس شأنا ، وسفهوا أراءهم فقالوا (بادي الرأي) أي ليس لهم رأي يؤخذ به ، وليس عندهم كلمة تُسمع لهم ، وزنوا هذه العصابة الضعيفة بمقاييس أهل الدنيا فوجدوهم لا يساوون عندهم شيئا ، فظنوا أن ميزانهم عند نبي الله نوح مثلما هو عندهم ، من هنا أرادوا مساومة

---

[5]) التبيان الجامع لعلوم القرآن : تفسير الشيعة الإثنى عشرية ت 460 هـ ، https://www.altafsir.com/Tafasir.asp?tMadhNo=4&tTafsirNo=39&tSoraNo=11&tAyahNo=28&tDisplay=yes&UserProfile=0&LanguageId=1

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 4180
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 243
[3]) الكشاف ج2 ص 81
[4]) رواه البخاري ج10 ص 198 رقم 2787
[5]) التسهيل لعلوم التنزيل ص 1303

(نوح) عليه السلام على طردهم ليستبدلهم بهم ، ولكن النبي ﷺ بيَّن لهم أن أمر الدعوة لا تجوز فيه المقايضة على مصالح متبادلة ، فهو لا يسألهم على دعوته أجرا ، وليس لهم أن يأمروه بطرد الذين آمنوا ، ولو كان ذلك مقابل أن يدخلوا الإيمان بدلا منهم ، فدين الله تعالى لكل الناس دونما نظر لمستواهم الاجتماعي ولا لمركزهم الاقتصادي

وقد أحسن ابن كثير إذ جمع الآيات التي تتحدث عن كثرة محاولات الذين كفروا من زمن نبي الله نوح عليه السلام حتى زمن النبي ﷺ طرد المؤمنين من جانب النبي ﷺ ، من ذلك قوله (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) [الكهف: 28] .

قوله (وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) (هود/30) نظيره قوله (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) [الأنعام: 52] ، ذلك أن **الإسلام ليس حزبا** يختار أناسا معينين لينضموا إليه ، **ولا ناديا** يجمع طائفة من الناس ذات ميول متقاربة ، أو فريقا رياضيا يختار أكفأ المهارات ، بل هو دين الله ، **الذي يتصل فيه المسلمون بالله مباشرة دون وساطة** ، ولا يجوز أن يحول دون ذلك كاهن أو حاجب كما يفعل النصارى ، والنبي نفسه لا يملك أن يحول بين الناس وربهم .

لاسيما وقد عوتب النبي محمد ﷺ في عبد الله بن أم مكتوم لأنه انشغل بسادة قريش عن مخاطبته والسماع منه ، **فأصحاب النبي ﷺ في كل زمان ومكان لهم أولوية في الاهتمام والتذكير علي غيرهم** ، لأنهم باكورة هذه الدعوة ونواتها الصلبة ، ولابد وأن يسمع منهم النبي ﷺ ويجلس معهم أكثر من غيرهم ، فالتربية الخاصة مقام رفيع في الدعوة لا يقل أهمية عن النشر العام للدعوة .

قوله (وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ)(هود/31) تأكيد على مفهوم الدعوة الإسلامية ،وأنها ليست برنامجا اقتصاديا يدر على الدولة عوائد باهظة ، ولا تكهنات احصائية لتتبوأ الدولة مركزا مرموقا بين الدول ، أي لا يعدهم بأن يملأ خزانة الدولة بالأموال ، فالإسلام ليس حزبا سياسيا أو حركة سياسية تسعي لأن تؤول إليها السلطة ، فيتنبأ بكل بساطة من تؤول إليه مقاليد الأمور ، ولا هو ملك عضوض وحوله حاشية من الأغنياء وأصحاب النفوذ وحسب ، **فالإسلام وبكل بساطة هو هؤلاء المسلمون الضعفاء الذين لا يملأون أعين الكافرين** ، ولا يأبهون لشأنهم .

ففي قوله (..وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ)(هود/31) (تنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرؤية من غير روية بما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة منالهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم) [1]، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا **أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام: 53] ، فالنظام الاجتماعي في الإسلام قائم على المساواة بين الناس ، يقول النبي ﷺ (**قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**) [2].

---

[1]) تفسير البيضاوي ج3 ص 84

[2]) رواه الترمذي ج12 ص 471 رقم 3891 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 254 رقم 3101

قوله (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا..) (هود/32) أصابهم الضجر من إصرار نبي الله نوح علي دعوتهم ، ذلك أنه كان يدعوهم لله ليل نهار دون كلل أو ملل ، قال تعالى (قَالَ رَبِّ إِنِّي **دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا** * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) (نوح/5-6) ، قال الرازي (وذلك الجدال ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وهذا يدل على أن الجدال في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء)[1] ، قال تعالى (**وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ**) [النحل125] ، ما يعني أنه استنفد كافة سبل الدعوة باللسان ،وليس في استطاعته أن يجادلهم بالسيف ، فسبق قدر الله وأهلكهم بالغرق .

قوله (..فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (هود/32) فالعناد شيمة أهل الهوى ، ومن جهلهم أنهم سألوا نبيهم أن يعجل لهم بالعذاب الذي أنذرهم به ، استهزاء صريح منهم بهذا الإنذار ، قال الرازي (**التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار**)[2].

قوله (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) (هود/33) قال الزمخشرى يعني (ليس الإتيان بالعذاب إليَّ بل هو إلى من كفرتم به وعصيتموه) ، قوله (إن شَاء) يعني (إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم)[3] .

وفي ذلك دليل على أن **النبي ليس له علم بموعد العذاب النازل على قومه** ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ **أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ وَدَخَلَ وَخَرَجَ وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ** فَإِذَا أَمْطَرَتْ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا أَدْرِي لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الأحقاف/24)[4].

قوله (وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (هود/34) قال النبي لهم ذلك لعلمه أن الهداية ليست بيده ، لقوله (**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص 56)

قال الزمخشري (إذا عرف الله من الكافر **الإصرار** فخلاه وشأنه ولم يلجئه ، سمى ذلك إغواء وإضلالاً ، كما أنه إذا عرف منه أنه **يتوب** ويرعوي فلطف به : سمي إرشاداً وهداية)[5]

قال ابن عثيمين (**الله لا يريد الإغواء شرعا، أما كونا وقدرا فقد يريده**)[6]، (فالإرادة الكونية شاملة لما يحبه الله وما لا يحبه) [7]، (والفرقُ بين الإرادَتَين أنَّ الإرادةَ الكونيَّة تكون عامَّةً فيما يُحبُّه الله ويَسخطُه، وأمَّا الإرادةَ الشرعيَّة فلا

---

[1]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2436
[2]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2436
[3]) الكشاف ج3 ص 84
[4]) رواه البخاري : الأدب المفرد ج1 ص 313 رقم 908 ، ورواه في صحيحه ج10 ص 482 رقم 2967
[5]) الكشاف ج3 ص 84
[6]) القول المفيد على كتاب التوحيد ج1 ص 320
[7]) ابن العثيمين شرح العقيدة السفارينية ج1 ص 254

تكون إلاَّ فيما يُحبُّه الله ويرضاه، والكونيَّة لا بدَّ من وقوعها، والدينيَّة تقع في حقِّ مَن وفَّقه الله، وتتخلَّف في حقِّ مَن لم يحصل له التوفيقُ من الله)[1] .

فإرادة الله الكونية لابد وأن توافق علمه القدري ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ (فَوَاللَّهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ أَوْ الرَّجُلَ **يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ** حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ **فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ** فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا **وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ** حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ **فَيَسْبِقُ** عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا)[2] .

وقد بدا الإشكال على النووي في فهم هذا الحديث ، لاسيما وأنه يتعلق بقدر الله ، والنبي ﷺ قال إذا ذكر القدر فأمسكوا ، ومظهر هذا الإشكال أن النووي **ربط حصول ذلك بالندرة والقلة** ، فقال (المراد بهذا الحديث أن هذا قد يقع في نادر من الناس لا أنه غالب فيهم ثم أنه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة ، وأما **انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور ونهاية القلة** وهو نحو قوله تعالى (إن رحمتي سبقت غضبي وغلبت غضبي)[3].

والحقيقة أن وقوع هذا الانقلاب بكثرة أو قلة لا شأن له في تفسيره غير ما ذكر من قوله **(فيما يبدو للناس)** ، يعني أنه **كان من أهل الرياء فانقلب حاله ليكشفه الله للناس قبل وفاته فلا يقتدوا به** ، وذلك في قوله ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ **فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ** وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)[4].

قال العلماء و(فيه دلالة ظاهرة على أن الأعمال أمارات لا موجبات ، وإن مصيرها إلى ما جرى به المقادير في البداية ، فيعمل بعمل أهل الجنة بأن يستغفر ويتوب فيدخلها ، أقول **في الحديث تنبيه على أن السالك ينبغي أن لا يغتر بأعماله الحسنة ويجتنب العجب والتكبر والأخلاق السيئة** ، ويكون بين الخوف والرجاء ومسلما بالرضا تحت حكم القضاء ، **وكذا إذا صدرت منه الأعمال السيئة فلا ييأس من روح الله تعالى الطيبة** ..فإن العبرة بخواتيم الحالات ولا يطلع عليها غير عالم الغيب والشهادات) [5].

قوله (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ) (هود 35) هنا جاء وقت إعلان المفاصلة بين النبي المجاهد بكلمة الحق ألف سنة دون ملل ، وقومه الذين يصرون على تكذيبه وعدم تصديقه ، فالنبي في هذه المرحلة لا يدافع عن نفسه فقد بلغ منه الجهد أن ظل يدعوهم وهم يصمون آذانهم عنه ، كما لم يقدم لهم في هذا الموقف حججا جديدة ، فقد أعياه مجادلتهم ، وحقت عليهم الغواية ، ولذلك خاطبهم خطاب الذي يريد أن ينعم بالعيش بعقيدة الإسلام بأمان وسلام ، وفي ذات الوقت يحتفظ بحقه أن يتبرأ مما يعملون ، فأكد لهم أن **مبدأه في التعايش معهم وإن كانوا كافرين** ، أن يتركوه وأصحابه دون أن يمسوه بسوء ، فقال لهم هب أنني افتريته كما تزعمون (فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) أي جرم هذا الذنب عليَّ وحدي ولا شأن لكم به ، فعلام تهددونني ، وكل واحد له مطلق الحرية فيما يعتقد في الله دون إكراه ، أي إن كان ما أدين به لله ليس صوابا —كما تزعمون– فعلي وحدي إثم ذلك ، ولا أضركم

---

1) عبد المحسن بن حَمَد العبَّاد البدر: قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة القيرواني ج1 ص 93
2) رواه مسلم
3) شرح النووي على مسلم ج16 ص 192
4) رواه البخاري 10 ص 28 رقم 2683
5) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج1 ص 356

في شيء إن تركتموني وما أدين ، كما في قوله (**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**) (الكافرون 6) ، أما إن كان ما تدينون به هو الباطل ، وليس على الحق فإني أتبرأ منكم بعد أن أقمت الحجة عليكم وأظهرت لكم البينات ، وليس علي شيء من الإثم وقد تبرأت من شرككم ، أي أنكرت منكركم بالقلب بعد أن فرغ اللسان وعجز عن المواصلة في ظل تهديدكم لي بالرجم كما في قوله (قَالُوا **لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**)(الشعراء 116) ، وذلك أضعف هو الإيمان.

قال السمرائي وهنا المقام مقام مفاصلة بعدما انغلق عليه باب الدعوة ، لما أوحى إليه ربه (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ) انتهت المسألة وصارت مفاصلة لأنه غلق باب الدعوة والتبليغ ، وليس كقوله (**قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**) (سبأ 25) فهو في سياق الدعوة ، لأن لا تغلق قلوبهم عنه ، فهو سياق فيه محاجّة يأمل أنهم يعودوا فيستميل قلوبهم)[1].

قوله (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) (هود/36) قال المفسرون (لما أوحي إليه هذا ، استجاز الدعاء عليهم)[2] ، فقال (لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً) [نوح 26] ، فالدعاء غرضه الحفاظ على الإسلام ، لأن الكفر بعدما تجاوز مرحلة المفاصلة تأهب للقضاء على المسلمين جميعا بعد تهديده بالرجم.

قوله (..فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) (هود 36) وذلك لأن دعوته على قومه شملت ذريتهم ، إذ عزموا عزما أكيد على إضلال ذريتهم ، وإن شئت قلت منعهم من الإسلام ولو كرها ، وقتل من يأبى غير ذلك ، فقال (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ **وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**) (نوح 27) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ** كَمَا تُنْتِجُونَ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ (**أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيرٌ؟**) قَالَ (**اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**)[3] ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ "**أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ**" فَقَالَ اللَّهُ (**أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**)[4] .

قوله (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..) (هود37) ، الأمر بصنع السفينة أشار إلى أن تحقيق المعجزة في الأرض يكون بالأخذ بالأسباب التي شرعها الله تعالى ، وإن ظن العبد – لأول وهلة– عدم فاعليتها ، لكن طالما أنها مأمور بها شرعا ، فوجب الأخذ بها من باب العبادة لله ، فصنع سفينة في الصحراء أمر مبالغ فيه ، لولا أن الأمر بصنعها من الله تعالى ليكون سببا لتتحقق به المعجزة .

[1]) لمسات بيانية ج1 ص 1100
2) زاد المسير ج3 ص 339
[3]) رواه البخاري ج20 ص 265 رقم 6110
[4]) رواه البخاري ج20 ص 263 رقم 6108

وقوله (..بِأَعْيُنِنَا..) أي بحفظ الله ورعايته [1]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: " وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا " قَالَ:"بِعَيْنِ اللَّهِ وَوَحْيِهِ"[2]، قال ابن كثير أي: (بمرأى منا)[3]، قال الألوسي (إن ملابسة **العين كناية عن الحفظ**)[4]،(لما كان وضع العين على الشَّيء سبباً لمبالغة الحفظ جعل العين كناية عن الاحتفاظ)[5] ، أي أن الله تعالى لن يترك عبده إزاء افتراءات القوم عليهم وازدراءهم ومن اتبعه ، بل لابد أن ينتصر له ويحفظه من أذاهم ، ويرعاه برعايته .

وفي قوله: (..وَوَحْيِنَا..) قال ابن كثير أي: (وتعليمنا لك ماذا تصنعه) [6]، قال ابن عاشور (دلت على أن الله أوحى إليه كيفية صنع الفلك كما دل عليه .

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ) (القمر/9-14) .

قوله (..وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) (هود37) نهى الله نبيه أن يشفق على قومه الظالمين ، ولا تأخذه بهم رأفة في دين الله ، و(المعنى لا تراجعني في تأخير العذاب عنهم)[7] ، والمقصود نهيه عن أن يطمع في تأخير عذابهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان) [8]، قال تعالى (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(الأحزاب/36).

فعن عَائِشَةَ زَوْجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:"لَوْ رَحِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا، لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كَانَ نُوحٌ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ وَغُرِسَ مِائَةَ سَنَةٍ الشَّجَرَ فَعَظُمَتْ، وَذَهَبَ كُلُّ مَذْهَبٍ ثُمَّ قَطَعَهَا، ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَةً وَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: **يَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ، فَكَيْفَ تَجْرِي** ؟ قَالَ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ، فَلَمَّا فَرَغَ وَنَبَعَ الْمَاءُ وَصَارَ فِي السِّكَكِ خَشِيتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا، فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ، فَلَمَّا صَارَ الْمَاءُ عَلَى الْجَبَلِ فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا دَفَعَتْهُ بِيَدِهَا فَرَقًا فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ"[9]

قوله تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ) نلحظ أن كل الرسل الذين دعوا إلى التوحيد ، هم في دعوتهم مشغولون بمشروع إسلامي دعوي ، هذا المشروع يعتمد على علوم دنيوية كالنجارة أو الحدادة أو البناء والهندسة أو الزراعة أو الطب ..الخ ، فنوح يصنع الفلك في الصحراء، وإبراهيم وإسماعيل انشغلا ببناء الكعبة ، وموسى يظهر الآيات بعصاه ويديهم فأبطل

---

[1]) أقوال الثقات للكرمي ص 147
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 162
[3]) تفسير ابن كثير ج4 ص 319
[4]) تفسير الألوسي ج8 ص 230
5) أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني : اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 99
[6]) تفسير ابن كثير ج4 ص 319
[7]) الوجيز للواحدي ج1 ص 340
[8]) تفسير ابن كثير ج5 ص 473
9) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 165 وقال الألباني : والخلاصة : أن كون رجال هذا الإسناد ثقاتاً ، لا يعني أن إسناده صحيح ، فيه علة خفية ، وهي أن شبيباً هذا ، وإن كان ثقة من رجال البخاري ، فقد تكلم فيه إذا كانت روايته من طريق ابن وهب عنه

بقدرة الله سحر الدولة الفرعونية ، وداود كان مشغولا بصناعة الحديد والدروع وهو مشروع عسكري من الدرجة الأولى ، وسليمان مشغول بتسخير الجان لصناعة الموائد العظام يأكل منها كل الناس ، واستخراج اللالئ والياقوت .. وهو مشروع نهضوي واجتماعي يظهر عظمة البناء ويقدم الطعام للمحتاجين والفقراء ، وعيسي يبرؤ الأكمه والأبرص وهو مشروع طبي عظيم الأثر ،...وهكذا يكاد لا يخلو نبي إلا وانشغل زمانه بمشروع إسلامي عظيم.

قوله (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) (هود/38) امتثل النبي لأمر الله تعالى رغم علمه أن ما يفعله من الشروع في صناعة سفينة في الصحراء ليس أمر منطقي أو مستساغ عند قومه ، فأصول صنعة السفن أن تصنع قرب الشاطئ ليسهل نقلها على زلاجات خشبية إلى البحر ، أما وأنه يصنعها في الصحراء فذلك يدعو إلى التهكم منه ، حيث قالوا إما أن يحملها من الصحراء إلى البحر أو يأتي بالبحر إليها ، ولذلك قالوا إنه لمجنون ، فهو موهوم أن تتغير قوانين الطبيعة وتمطر السماء في الصحراء ماء يحيلها إلى بحار وأمواج ، ورغم أنه يعلم أنه سوف يلقي منهم السخرية ما لا يرضاه ، لكنه كان واثق في وعد ربه ، واستمر في صناعتها دون أن يبالي بسخريتهم ، فهو يعلم أنهم مغرقون كما أخبره الله بذلك ، ولهذا فهو يضمر السخرية منهم في نفسه ، لأنه يضحكون ويسخرون ولا يدركون أنهم مغرقون .

وهنا نلحظ أن الله تعالى لم يشفق عليهم ، إذ بلغوا الغاية في الطغيان ، وليس بعد ذلك إلا المفاصلة والمفارقة ثم المخاصمة في الله متى تظاهروا عليه ، وصار الأمر منهم استهزاء بالمسلمين ودين الإسلام .

قوله (.. قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) (هود/38) وسخرية الكافرين من المسلمين لابد وأن يقابلها سخرية المسلمين من أعدائهم ، فهجاء الأعداء غرض مشروع متى كان بقصد الرد على سخريتهم وافتراءاتهم ، والذود عن دين الله تعالى ، ولذلك كلف الرسول ﷺ حسان بن ثابت بالرد على هجاء قريش .

فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ **اهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ** ، فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ اهْجُهُمْ فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يُرْضِ فَأَرْسَلَ إِلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ حَسَّانُ قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُرْسِلُوا إِلَى **هَذَا الْأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ** ثُمَّ أَدْلَعَ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يُحَرِّكُهُ فَقَالَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بِلِسَانِي فَرْيَ الْأَدِيمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَعْجَلْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِهَا وَإِنَّ لِي فِيهِمْ نَسَبًا حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي فَأَتَاهُ حَسَّانُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ لَخَّصَ لِي نَسَبَكَ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنْ الْعَجِينِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِحَسَّانَ **إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** وَقَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَجَاهُمْ حَسَّانُ **فَشَفَى وَاشْتَفَى** قَالَ حَسَّانُ هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ

وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ.. هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا – رَسُولَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ ..فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ..تَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا – تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاءِ .. يُبَارِينَ الْأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ
عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسَلُ الظِّمَاءُ ..تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ – تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ .. فَإِنْ أَعْرَضْتُمُو عَنَّا اعْتَمَرْنَا

وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ .. وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ – يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ.. وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ ..وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا – هُمْ الْأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ .. لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ .. فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ — وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ .. وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ[1]

فاستخدام الشعر في الرد علي سخرية الكافرين واستهزائهم بالمؤمنين هو ميدان للجهاد بالقول مثل الجهاد بالسيف لاسيما إذا كان الهجاء في موطن الدفاع عن الأنبياء والمقدسات ، ولذلك كان النبي ﷺ حريصا على تبييض وجهه من افتراءات المشركين والذب عن نفسه اتهاماتهم ، وكان يجند أصحابه للدفاع عنه إعلاميا .

قوله (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) (هود/39) هذا الرد الإلهي بمثابة هجاء لهم ردا على سخريتهم ، في ذلك الوقت هو إنذار لهم بسوء العاقبة ، فالعلم المشار إليه في الإية هو إنذار إليه ، وكأنه إشعار لابد وأن يصل لهم في الدنيا أو إنذار لتوقي حصول العذاب قبل أن يأتيهم في الآخرة ، ولابد وأن يصل هذا الإنذار للناس كافة ليقيم الحجة عليهم ، وتتحقق العبرة به لمن بعدهم ، وتلك هي إرادة الله .

فوقوع العذاب بالأقوام السابقين بمثابة النذير الذي به تقوم حجة الله على البشر جميعا ، قال سبحانه (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) (الإسراء/15) أي رسولا ينذرهم ويعلمهم ويقيم الحجة عليهم ، فلا يحتج أحد بعد ذلك على الله تعالى بعدم العلم بعاقبة المكذبين .

قوله (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ..) (هود/40) يعني ما أمرنا به من زيادة الماء وإغراق الكافرين من قوم نوح[2] ، (**وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً**) (النساء 47)، (**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**) (الأحزاب 38)

قوله (..قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ– إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ– وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) (هود/40) وهكذا تستمر الحياة رغم الطوفان العظيم ، حيث تحمل سفينة نوح أركان التناسل في هذا الكون ، من كل شيء زوجين ، ذكر وأنثى ، فما من هلاك عام حصل في البشرية ، إلا والذي جاء بعده خير ، فانتشر الإسلام في الكون ، وعم الخير أرجاءه .

قوله (..إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ..) جملة اعتراضية ، مستثناه ممن صدر الأمر بحملهم في السفينة ، والمستثنون هم الذي قضى الله في علمه السابق وقدره أنهم مغرقون ، فلم يستثن من ذلك إلا من سبق عليه القول بالكفر — في علم الله–.

فعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ قَالَ قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ؟

[1]) رواه مسلم ج12 ص 284 رقم 4545
[2]) الإنصاف للباقلاني ص 25

فَقُلْتُ بَلْ **شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ** قَالَ فَقَالَ أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا قَالَ فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْتُ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ وَمِلْكُ يَدِهِ **فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** فَقَالَ لِي يَرْحَمُكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ** وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَا **بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ** وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**")[1]، معنى أن القدر موافق لحكمة الله وعلمه الأزلي بما سيكون من اختيار العباد ، قال د سفر الحوالي (والحساب يكون على ما اختار العبد وعمل، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر)[2].

قوله (..وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) (هود/40) أي بعد جهد دعوي استطال لمدة ألف سنة إلا خمسين عاما متواصل ليل نهار تكون النتيجة ألا يؤمن معه إلا عدد قليل من الناس مقارنة بالكثير الكافر به ، ما يعني أن نبي الله نوح عليه السلام لم يقصر في الجهد ولم يقصر في الإخلاص لله ، ولكن النتيجة صارت هكذا ، فالبركة تحل بالإيمان حتى وإن كان أتباع المؤمنين قليل .

لكن بعد حصول هذا الإغراق ونجاة المؤمنين ، انتشرت ذرية هؤلاء المؤمنين في ربوع العالم حتى كانت منها أمة محمد ﷺ أكثر أهل الجنة يوم القيامة ، فالقليل لابد وأن يبارك الله فيه ليكون هو الكثير الذي يباهي الله بهم الأمم على رؤوس الأشهاد ، قال رسول الله ﷺ (**أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[3]، وقال رسول الله ﷺ (وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ **شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ** فَكَبَّرْنَا)[4]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هَذَا أُمَّتِي هَذِهِ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ قِيلَ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ **فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ**)[5]

قوله (وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) (هود/41) فمحال أن تسير سفينة في طوفان مُدَمِّر وسط الأعاصير وفي ذات الوقت ينزل الماء من السماء منهمرا ، ثم تنجو بسلام ، ولكنها إرادة الله ومشيئته أن تجري باسم الله ، وترسو باسم الله ، فهذه السفينة تجري وترسو بمشيئة ربانية ، وهي في حماية الله ورعايته ، وقد سخر الكون له لهذه المشيئة في ظل الطوفان الكبير ، والرياح العاتية والأمطار الرعدية والأعاصير من كل جانب ، قال تعالى (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ) (القمر 11- 14) ، ولكنها رعاية الله للذين آمنوا ، وحفظه لمشروعهم الإسلامي الذي صنعه أهل هذه الدعوة بأيديهم وبأمر الله ، وهكذا تواجه هذه السفينة الأمواج العاتية والعواصف المدمرة دون أن يحصل لها شيء .

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 109 رقم 4790
[2]) دروس سفر الحوالي درس رقم 34 ص 14 تفريغ الشبكة الإسلامية
[3]) رواه مسلم ج1 ص 452 رقم 290
[4]) رواه البخاري ج14 ص 383 رقم 4372
[5]) رواه البخاري ج17 ص 473 رقم 5270

وللتسمية شأن عظيم في مستهل أي عمل ، ولذلك بوب البخاري بابا بعنوان التسمية على كل حال ، وقد ورد في السنة النبوية أن التسمية عند الطعام وعند فتح الباب وغلق الباب وعند الجماع وعند الصيد وعند الذبح ...الخ ، فالتسمية دليل على صحة النية لله وتوجه القلب في هذا العمل لله تعالى ، فالتسمية تعني الاستعانة بالله عند الشروع في العمل ، وتذكر القلب بأن الباعث على هذا العمل هو مرضاة الله ، ولا شيء غير ذلك ، ليتخلى القلب عن كل محظوظاته ، فيتجرد عن الثناء والمدح ورياء الناس ، ولا شك أن الله لا يقبل إلا عملا خالصا لوجه الكريم ، وبذلك تحل البركة على العمل ،ويشعر المؤمن بالطمأنينة بأنه يتبغي بعمله وجه الله وحده لا شريك له .

وقوله (..إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)(41) قال ابن كثير (مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذَكْرُ أنه غفور رحيم، كما قال: (إِنَّ **رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**) [الأعراف: 167]، وقال: (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**) [الرعد: 6] .

ولعل المناسبة تبدو –كذلك– عندما نعلم أن **العمل البشري لا يخلو من تقصير** ، والله تعالى يخبرنا بمغفرته ورحمته بعد الفراغ من عمل الدعوة ، ما يعني أن الله لم يهلك الذين آمنوا مع نوح بما فعل السفهاء ، — لاسيما وأن وعملهم وواجبهم الدعوي لم يخلو من تقصير — بل غفر الله لهم ورحمهم ، فنجاهم وأكرمهم ، وذلك كدعاء موسى ربه لما أخذتهم الرجفة ، كما في قوله (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا** إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) (الأعراف 155)

وقوله (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) يدل على أن الله تعالى أعطى لها فاعلية تفوق قدرتها بأضعاف ، وهكذا يُفَعِّل الله تعالى الأسباب الضعيفة فيغير من خصائصها لتصبح قوية ، ويُضْعِف أسباب قوية فلا تكون لها أية فاعلية ، مثلما أضعف النار التي تحرق إبراهيم عليه السلام ، متى أضحت أسباب النجاة بلا فائدة في أيدي المؤمنين وقد استفرغوا كل طاقتهم لأجل الله سبحانه .

ففي هذا الموضع جعل سبحانه سفينة نوح قادرة على مواجهة الطوفان العظيم والأمواج الهائجة كالجبال في ارتفاعها ، وليس لسفينة بدائية ، هي مجرد **ألواح خشبية ودسر** – أي **مسامير**– أن تتحمل ذلك الضغط الهائل من كل اتجاه إلا أن تكون في حفظ الله ورعايته ، وهكذا **كل مشروع إسلامي استنفذ أبناؤه بناءه واستفرغوا كل طاقتهم فإن الله يكفيهم ويغنيهم ويجري لهم أسباب النجاح من فضله.**

قوله (وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ –وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ– يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ) (هود/42) تصوير لحالة نوح عليه السلام وهو يرى ما يفجعه ، فيرى ابنه عازل نفسه عن الفئة المؤمنة ، ولا ينخرط معها ، ومعلوم أن الانعزالية هي أول خطوات استحواذ الشيطان على الإنسان ، فعن النبي ﷺ قال (**عليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**)[1]

وتصوير القرآن لحالة انشغال نوح بإنقاذ ابنه لينجيه من الغرق ، يدل على أن لدعوة الأهل والأقربين أولوية على دعوة غيرهم ، لقوله تعالى (**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**) (الشعراء214) ، وتخصيص وقت لنصحهم واجب شرعا ، لقوله (**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**) (طه 132) ، وتفضيلهم في بذل المجهود الدعوي وإيصال كلمة الحق لهم على غيرهم من المدعوين هو أولى أوليات الدعاة إلى الله تعالى .

قوله (وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ) هو ختام نصيحة نوح لابنه ، وآخر أمر ونهي وجملة إنشائية قالها له ، وبعدها فارق بينهم الموج ، أي إذا كنت منعزلا –ولابد – فاعزل نفسك عن الكافرين ، ولا تكن معهم ، قال تعالى (**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (الأنعام/68) ، لكن نوح تأسف على حال ابنه ، وهو يراه منضما للفئة الكافرة المكذبة بوعد الله ، ولم يكن لنصيحته صدى أو مردود عند ابنه.

قوله تعالى (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) (هود 43) لم يطع الابن أباه ، فهو غير مقتنع بنصيحة أبيه له ، ما يعني الفجوة النفسية بينهما كبيرة ، وقد ظن بجهالته أنه ناج من عذاب الله إذا ارتكن لجبل يحميه من الماء ، وتناسى قدرة الله العلي العظيم ، وأن الله تعالى جعل هذه السفينة هي وسيلة نجاة المؤمنين ، وليس الجبل يقوى على ذلك ، فظن أنه ليس بحاجة لأن ينضم لأبيه مع المؤمنين ، وتناسى أن الأسباب الشرعية تكمن في ركوب هذه السفينة ، لكنه العناد وحسب ، ورغم أن المصيبة أصابته ، فإنه لا يزال يجادل أبيه في أمر نجاته ، وظل مستعصما بالأسباب التي يراها في مخيلته قوية ، ويظنها أقوى من الأسباب التي شرعها الله للنجاة ، تلك السفينة ونسي التوكل على الله .

قوله (..قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ..) (هود 43) وهنا صاح الأب بأعلى صوته وأطلق جملة خبرية تضمنت نفيا قاطعا وجازما (لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ) ، ولم يكد يخفت صوته حتى حال الموج

[1]) رواه ابن حبان في صحيحه ج5 ص 458 ورواه النسائي ج3 ص 363 رقم 838 ، وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج1 ص 102 رقم 427 ، صحيح سنن أبي داود ج3ص58 رقم 556 وصحيح وضعيف سنن النسائي ج2 ص 491 رقم 991

بينهما ، فصار الأمر على خلاف ما كان يظن الابن ، فعذاب الله لا مفر منه ولا محيص ، قال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * **فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ**) (الأنبياء/11) .

وفي قوله (..وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) (هود 43) تصوير للحظة الفراق بين الأب وابنه ، وكم هي لحظة محزنة أن يرى الأب ابنه قد مات على الكفر ، وقد حال عذاب الله دون أن يتصل الأب بابنه ، ليزيد من تحذيره وإرشاده ونصيحته ، فيغلق الموج الستار بينهما ، فيصير النبي من أهل الجنة ويصير ابنه من أهل النار .

قوله (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء) (هود/44) بيان لسرعة نفاذ أمر الله تعالى في التو واللحظة، قال تعالى (**وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**) (القمر 50) ، فما يحدث في الكون من أهوال ينطفي أثره في لحظة واحدة ، قال تعالى (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) (يس 82).

قوله (..وَقُضِيَ الأَمْر..) (هود/44)كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) (العنكبوت/14-15) .

قوله (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ..) (هود/44) إشارة إلى بداية جديدة لحياة جديدة ليس فيها غير المؤمنين الناجين مع نوح ، فليس معنى أن الطوفان أغرق من علي الأرض جميعا أن الحياة قد انتهت ، بل لابد من استقرار وبداية جديدة ، وعهد أفضل ، قال تعالى (**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ**ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) (النساء 133) .

قوله (..وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (هود/44) جاء هذا الاستبعاد للذين يصدون عن سبيل الله ، ويقفون حائلا دون إيصال كلمة الحق ليخلي الله بينه وبين عباده ، فلا يعوقهم عائق للوصول إليه، قال الشوكاني (**وصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك**)[1].

قال إسماعيل حقي (الدعاء عليهم بذلك ، وهو تعليم من الله تعالى لعباده أن يدعوا على الظالمين ، أي : ليبعد القوم بعداً وليهلكوا)[2] .

قوله (وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) (هود/45) اندهش نوح لسوء خاتمة ابنه ، وانزعج انزعاجا شديد لذلك ، ومن شدة اندهاشه جادل ربه في مصير ابنه وهو يعلم أنه كافر ، (فسأله أن يبين له مصيره ، ولم يصرح بمطلوبه تأدبا مع الله) [3]، (إذ ظن أن الله سوف ينجيه وأهله) [4]، ولعله لم يعلم كفره إلا في تلك اللحظة ، أو تمنى على الله أن يهدي ابنه في آخر لحظة .

---

[1]) فتح القدير للشوكاني ج3 ص 450
2) تفسير روح البيان ج4 ص 84
[3]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2213
[4]) تفسير ابن كثير ج4 ص 325 ، تفسير الطبري ج15 ص 339

قوله (..وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ..)(هود/45) ظن نوح أن ابنه علي دينه ، وأنه ناج لهذا السبب ، فلما وجده قد غرق ، هاله الأمر ، وقد قال الله له (احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك) ، فظن أن ابنه داخل ضمن الموعود لهم بالنجاة ،ولم يدرك معنى الاستثناء (إلا من سبق عليه القول) ، قال الرازي (إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم إيمانه وجمع من المنافقين ، وكان حكم المؤمنين "النجاة" ، وحكم الكافرين "الغرق" ، وكان ذلك معلوماً ، **وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفياً وكان ابن نوح منهم** ، وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافراً ، بل على الوجوه الصحيحة ، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة ... وهذا أيضاً لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافراً ، فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن ، فطلب من الله تعالى تخليصه .. ، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق ، وأنه ليس من أهل دينه)[1].

قوله (..وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)(هود/45) تضمن تفويض الأمر لله في ابنه ، وأنه لا يعلم قدر ما يعلمه الله عنه ، وكل ما يفعله الله لحكمة ، قد ندركها وقد لا ندرك منها شيئا ، فهو يقر بأن ابنه غرق لحكمة الله يعلمها ، فآمن بحكمته وقدرته ، رغم أنه اندهش –قبل ذلك– من سوء المنظر ، لكن قلبه ظل مؤمنا بالله وحكمته فيما قدره في شأن ابنه وقضاه .

قال حافظ إبراهيم : –

لا يُهولَنَّكَ صَرْفُ الدَّهْرِ في عَرَبٍ .... فالخَرْقُ يُصْلِحُهُ مَنْ يَخْلُقُ العَرَبَ[2]

قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه» [3]

قوله (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)(هود 46) جاء الاستدراك من الله تعالى ففي قوله (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) **إعادة لترتيب العلائق في إطار الرابطة في الله تعالى ، فمن ليس موصول بالله يخرج عن إطار الموالاة ، وإن كان موصولا بغيره** ، فالابن لو لم يكن على الإيمان بالله فليس من أهل المرء ، وليس من عيشيرته وإن حمل اسمه .

والمقصود هنا هو **ضبط الولاية** بحيث لا تمتد لمن كفر بالله تعالى وإن كان من الدرجة الأولى في القرابة ، وليس المعنى هو أنه ليس له أي حق يتعلق بصلة الرحم ، بل **يظل حق البر قائما** بينهما لا مساس له ، كما ثبت في الحديث عَنْ أَسْمَاءَ قَالَ قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ﷺ مَعَ ابْنِهَا فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا قَالَ نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ)[4].

---

[1]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2448

2) لا يُهولَنَّكَ :لا يُفزعك ولا يخيفك.

صَرْفُ الدَّهْر :تقلبات الزمن ومصائبه وشدائده.

الخَرْقُ :الفساد والتمزق والضعف.

يَخْلُقُ العَرَبَ :يقصد الخالق عز وجل الذي أنشأهم وأوجدهم.

[3]) رواه الترمذي ج8ص36 رقم 2070 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 101

[4]) رواه البخاري ج18 ص 276

وقوله (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)[1] (هود 46) تعليل لجملة "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ"[2] ، قال البيضاوي (وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة)[3] ، (**لقطع الولاية بين المؤمن والكافر**)[4]، واستبان ذلك المعنى بقراءة الكسائي : قرأها (عَمِل) على صيغة الفعل الماضي ، والمعنى (إن ابنك عمل عملاً غير صالح **يعني أشرك وكذب**)[5].

قال الشعراوي (فالإيمان ليس نسبا ، ولا انتماء لبلد ما ، أو انتماء لقوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أي رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إنَّ النسبة للأنبياء لا تأتي للذات التي تنحدر من نسب النبي ، بل يكون الانتساب للأنبياء بالعمل الذي تصنعه الذات)[6].

وكأن الله سبحانه قد أطلع نبي الله نوح على حقيقة ابنه ،وأنه عمل غير صالح وإن بدا له في الظاهر أنه عمل صالحا ، كما في الحديث (**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**)[7] ، أي فيما يبدو لهم أنه عمل صالح لكن الله يعلم أنه عمل غير صالح ، قال (وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) فيختم الله عمله بعمل غير صالح ليكون ذلك كاشف لعاقبة أمره .

قال ابن عاشور (**أطلق على الكفر "عمل" لأنه عمل القلب** ، ولأنه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان)[8] .

قوله (..إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود 46) فنوح لا علم له فيما غاب عنه من علم الله تعالى بشأن مصير ابنه وما قدر له ، قال البغوي عن **الجهالة التي عوتب لأجلها** نبي الله نوح أنه (**أنه دعا بهلاك الكفار ثم سأل نجاة كافر منهم**)[9]، إذ قال (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ) (القمر/10) ، فذلك يتعارض مع قوله (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، لكنه لم يكن يعلم ذلك ، إلا بعدما بدا له من عمله قبل أن تُختم سيرته بما شاهده منه ، ولذلك قال ابن العربي : (**وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين ، ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين**)[10] .

قال المحققون : الظاهر أن ابنه كان منافقاً ، فلذلك اشتبه أمره على نوح ، وحمله شفقة الأبوة أوّلاً على دعوته إلى ركوب السفينة ، فلما حال بينهما الموج لجأ إلى الله في خلاصه من الغرق ، فعوتب على ذلك لأنه لما وعده الله إنجاءه أهله واستثنى منهم من سبق عليه القول ،كان عليه أن يتوكل على الله حق توكله ، ويعلم أن كل من كان من أهله مؤمناً لابد أن يخلص من الغرق لا محالة ، ولما لم يصبر على تبيان الحال **توجه إليه العتاب على ترك الأَوْلى** ، فلذلك تنبه ورجع إلى الله قائلاً "رب إني أعوذ بك أن أسألك" فيما يستقبل من الزمان "ما ليس بن علم")[11]

---

1) قال ابن جزي (فيه ثلاث تأويلات على قراءة الجمهور : أحدها : أن يكون الضمير في إنه لسؤال نوح نجاة ابنه ، والثاني : أن يكون الضمير لابن نوح وحذف المضاف من الكلام تقديره : إنه ذو عمل غير صالح ، والثالث : ان يكون الضمير لابن نوح ، وعمل : مصدر وصف به مبالغة كقولك : رجل صوم ، وقرأ الكسائي « عمل » بفعل ماض « غير صالح » بالنصب ، والضمير على هذا لابن نوح بلا إشكال)

[2]) الكشاف ج3 ص 90

3) تفسير البيضاوي ج3 ص 94

4) تفسير البيضاوي ج3 ص 94

[5]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2446

6) تفسير الشعراوي ج1 ص 1018

[7]) رواه البخاري ج10 ص 28 رقم 2683

[8]) التحرير والتنوير ج11 ص 271

[9]) تفسير البغوي ج4 ص 181

[10]) فتح القدير للشوكاني ج3 ص 453

[11]) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج4 ص 27

قوله (قَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) (هود/47) (والمراد بنفي العلم نفي المعلوم)[1]، قال الطبري أي : (أس**تجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لي به علم ، مما قد استأثرت بعلمه ، وطويت علمه عن خلقك**، فاغفر لي زلتي في مسألتي إياك ما سألتك في ابني، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك)[2].

قال الرازي (فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه **لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره** ، بل اجتهد في ذلك ، وكان يظن أنه مؤمن ، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد ، لأنه كان كافراً فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد)[3] .

وقوله (وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) يدل على أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر ، وإنما العصمة التي تلحقهم من الشرك والكبائر ، دون بعض الصغائر ، قال شيخ الإسلام (الْقَوْلَ بِأَنَّ **الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ دُونَ الصَّغَائِرِ هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَجَمِيعِ الطَّوَائِفِ** ، وَهُوَ أَيْضًا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفُقَهَاءِ بَلْ هُوَ لَمْ يَنْقُلْ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ إلَّا مَا يُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ)[4]

قوله (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)(هود/48) هنا كلف الله الفئة المؤمنة بالاستخلاف لإعمار الكون ، لتبدأ الحياة مرة أخرى بالسلام والبركة من الله تعالى ، وهما العنصران اللازمان لحياة هانئة ، تلك الحياة التي أنعم الله بها على آمنوا .

لكن هذا المتاع موقوت بالحياة الدنيا ، أي في حدودها ، ومرهون بالدوام على الطاعة والإسلام ، ولذلك أعقبه ذكر حال أمم قد متعهم الله تعالى بعد نوح لكن حق عليهم أن يمسهم العذاب لما تركوا الطاعة والشكر لله

قوله (..ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)(هود/48) أي استحقوا العذاب بعدما انتكسوا وارتدوا على أعقابهم ، وقد كانوا على الفطرة ، أي رغم أن السفينة كانت تحمل المؤمنين ولم ينج غير المؤمنين ، لكن جاءت من ذريتهم طائفة من الناس استحقوا العذاب الأليم ، من هنا تعلم أن البشرية ولدت على الفطرة ،وأنهم جميعا جاءوا من أصل مؤمن ، أي المؤمنين الذين نجو على ألواح ودسر ، فمن أين تطرق لهم الشرك والكفر بالله ؟

فحديث رسول الله ﷺ يؤكد أن كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه ، ومن ثم فقد انتفى فرض تطبيق شطره الثاني في شأن سفينة نوح عليه السلام ، لأنها لم تحمل غير المؤمنين ، فمن أين دخل الكفر بين الناس ، بعد الطوفان العظيم والتطهير الكوني للشرك والاستئصال الرباني له ؟

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 1887
[2]) تفسير الطبري ج15 ص 352
[3]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2448
[4]) مجموع الفتاوى ج4 ص 319

أجاب على ذلك حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، **فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**)[1].

قوله (تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (49) تعقيب على هذا القصص بأن العبرة من حكايتها للنبي ﷺ أن يقتدي بصبر الأنبياء قبله على قومهم في أمر الدعوة ، ويستبشر بالخير في العاقبة .

قوله (..مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا..) قال أبو حيان (دليل على نبوّة رسول الله ﷺ إذ أخبر بغيوب لم يطلع عليها إلاَّ من شاهدها ، أو : من قرأها في الكتب السابقة ، أو : من أوحي الله إليه بها ، وقد انتفى العيان والقراءة ، فتعين الثالث وهو الوحي من الله تعالى)[2].

وأهل الكتاب شاهدون على ذلك ، قال ابن عاشور (وإعجازه لعامة الناس **أن تجيء تلك العلوم من رجل نشأ أميا في قوم أميين**، وإعجازه لأهل الكتاب خاصة إذ كان ينبئهم بعلوم دينهم مع كونه أميا، ولا قبل لهم بأن يدعوا أنهم علموه لأنه كان بمرأى من قومه في مكة بعيدا عن أهل الكتاب الذين كان مستقرهم بقرى النضير وقريظة وخيبر وتيماء وبلاد فلسطين، ولأنه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية، والإنحاء على اليهود والنصارى في تحريفهم فلو كان قد تعلم منهم لأعلنوا ذلك وسجلوا عليه أنه عقهم حق التعليم)[3]

قوله (..فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)(49) قال ابن القيم (والمراد : **العاقبة في الدنيا قبل الآخرة** ، أي عاقبة النصر لك ولمن معك كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه)[4]، قال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر/51) .

قال ابن عجيبة (فاصبر على **مشاق التبليغ مع إذاية قومك** ،كما صبر نوح عليه السلام ، إن العاقبة للمتقين بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة)[5] ، وقال أبو السعود (أي فاجتهد في التبليغ وجد في الرسالة واصبر على الشدائد واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة) ، قال ابن عطية الأندلسي (ومعنى ذلك أن النبي ﷺ مطالب بأن يصبر على قومه كما صبر نبي الله نوح ، **وليستيقن أن العاقبة له مهما طال الزمان** كما كانت لنوح بعد ألف سنة إلا خمسين عاما) [6]

---

[1]) رواه البخاري ج15 ص 225 رقم 4539
2) البحر المحيط ج3 ص 243
[3]) التحرير والتنوير ج1 ص 126
[4]) إغاثة اللهفان ج2 ص 185
[5]) البحر المديد ج3 ص 53
[6]) المحرر الوجيز ج3 ص 432

المحور الثالث

استقامة هود مع المؤمنين علي البلاغ للمجرمين الجبارين حتى جاء الأمر بالاستبدال واستخلافهم

قال تعالى (وَإِلَى عَادٍ **أَخَاهُمْ هُودًا** قَالَ يَا قَوْمِ **اعْبُدُواْ** اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ **أَجْرًا** إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ **اسْتَغْفِرُواْ** رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ (52) قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن دُونِهِ **فَكِيدُونِي** جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (55) إِنِّي **تَوَكَّلْتُ** عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (56) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ **أَبْلَغْتُكُم** مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ **وَيَسْتَخْلِفُ** رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا **نَجَّيْنَا** هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ **عَادٌ جَحَدُواْ** بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

ثنى الله بقصة **هود** الذي أرسل لقوم عاد بعد أن ذكر قصة نوح ، والغاية من ذكرها هنا هو الاستشهاد به وبقومه الذين وصلوا مبلغا من العناد والتجبر لم يبلغه قوم النبي محمد ﷺ ليكون ذلك أدعى أن يتأسى بنبي الله هود في دعوة قومه ، وهم أجلاف الطبع ، **كما تأسى بنبي الله** نوح في طول مدة الصبر عليهم ، وهو مستمسك بالمؤمنين المستضعفين رغم كثرة محاولات استبدال الكافرين أنفسهم محلهم بعد إقصائهم .

ويبدو من عرض تجربة هود مع قومه أنه ركز في دعوته على عبادة الله وحده ، وأوضح لهم بكل جلاء تجريد الدعوة من أي مصالح أو منافع مادية ، وأنها عمل تبرعي محض ، وإن جاز تصحيح القول بأنه عمل تكليفي مأجور عليه من الله في الآخرة ، ثم ألان لهم الخطاب ورغبهم في الله كعادة الأنبياء جميعا، فوعدهم بإصلاح شأن دنياهم وزيادة قوتهم متى التزموا التوبة والاستغفار ، (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) (52) ولكنهم لم يفقهوا قوله ، بل بارزوه بالسب واتهموه بالجنون واعتبروه ممسوسا بسوء ، فلم يكن منه إلا أن تبرأ من شركهم ، وتحداهم بعدما خال له أنهم يكيدونه ، ويدبرون أمرا بليل للتخلص منه ، ولكن المؤمن الواثق في الله يقول دوما (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم) (56) ، وهكذا بدا المنهج الدعوى في إصلاح العقيدة بالتوكل على الله مستقيما في كل مرة وفي كل موقف ، لا يفارقه .

هنا وكالعادة حين يرى النبي من قومه هذا العناد والإصرار علي الشرك لابد وأن ينذرهم ويهددهم بقرب عذاب الله ، وعندئذ ينفذ الله سنته فينجي المؤمنين ويهلك الجبارين المعاندين ، فيُقصي من الحياة من استوجب اللعن لتظل العاقبة للمتقين .

قوله (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ) (هود/50) استهل نبي الله هود دعوته لقومه أن أمرهم بالتوحيد ، بذلك تأكد أن مضمون الخطاب الدعوي في كل رسالة ومع كل نبي واحد ،

فهم مرسلون برسالة واحدة وهي رسالة التوحيد ، قال الشعراوي (ونلحظ أن الخطاب هنا خلا من فاء التعقيب التي كان بها الخطاب مع نوح "فقال يا قوم" مما يدل على أن **إصرار هود ليس كإصرار نوح ، فلم يبلغ درجته في الإلحاح على قومه**)[1] ، ورغم ذلك فإنه بهذا القدر أقام عليهم الحجة في أمر الدعوة .

قوله (..مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ) (هود/50) زاد في بيان أمر توحيد الله وإفراده بالعبودية فوصمهم بالافتراء على الله الكذب ، أنهم يشركون في عبادتهم لله غيره ، فيخترعون دين مبتدع يتنافى مع التوحيد السليم ، قال القرطبي أي (ما أنتم في اتخاذكم إلها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز)[2]

وهكذا يستبين أن الذين لا يوحدون الله تعالى هم الذين يفترون عليه الكذب ، وقوم عاد عبدوا أهواءهم وعظموا أنفسهم وبيوتهم التي اتخذوها من الجبال ، وقالوا من أشد منا قوة ،(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (فصلت/15) ، قال حقي (إن أنتم إلا مفترون فيما تتخذون الهوى والدنيا معبوداً ومطلوباً) [3]، وتناسوا أن الله الذي خلقهم قادر على أن يسخر الريح فتهلكهم.

قوله (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (هود51) نفي طلب الأجر جاء هنا ليؤكد تكرار ذات المنهجية مع كل نبي في الدعوة إلى الله ، بتجريدها عن المنافع المادية والمكاسب الدنيوية ، فالتكسب المادي من احتراف أعمال الدعوة يبطل مصداقية الدعاة .

ولذلك يجب التفرقة بين أخذ أجر على العمل الدعوي ، وبين أخذ أجر على استقطاع الوقت للأعمال الدعوية من الوقت الذي يحتاجه العبد للانشغال بالكسب سعيا على رزقا ، وذلك في الوقت الذي انشغل فيه الناس بطلب الرزق ، وعدم تفرغهم لتعليم القرآن حتى وصل الحال بالناس أن عجز الوالدان عن توفير الوقت لتعليم أبنائهم القرآن ، وإن تفرغا لذلك فإنها يكونان في الغالب غير مؤهلين لأداء هذه المهمة .

وعليه فإن جواز أخذ أجرة على العبادة كالإمامة في الصلاة أو الأذان والتفرغ لذلك وتعليم الناس القرآن والرقية الشرعية ... وخطبة الجمعة كل ذلك فيه خلاف كبير بين العلماء ، وأصل الخلاف بين العلماء وجود أحاديث متعارضة في المعني ، الأول ما أخرجه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال (**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ**)[4] ، وذلك كان لقاء رقية رقاها أحد الصحابة لمصاب باللدغ فشفي بها ، فهو صريح في جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن ، استطرد البخاري ذكر أخذ الأجرة على الرقية في هذا الباب فأخرج من حديث أبي سعيد في رقية بعض الصحابة لبعض العرب وأنه لم يرقه حتى شرط عليه قطيعاً من غنم فتفل عليه وقرأ عليه (الحمد لله رب العالمين)، فكأنما

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 2927 مختصرا
[2]) تفسير القرطبي ج9 ص 51
[3]) تفسير روح البيان ج4 ص 90
[4]) رواه البخاري ج18 ص 15 رقم 5296

نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة أي علة، فأوفاه ما شرط ولما ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ قال: قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم سهماً

ويؤيده —كذلك – ما أتي في النكاح من جعله ﷺ تعليم الرجل لامرأته القرآن مهراً لها

ويعارض الأدلة المتقدمة في الجواز ما أخرجه أبو داود عن عبادة بن الصامت قَالَ عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا فَقُلْتُ لَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَآتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَأَسْأَلَنَّهُ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ أَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا مِمَّنْ كُنْتُ أُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ وَلَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ إِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تُطَوَّقَ طَوْقًا مِنْ نَارٍ فَاقْبَلْهَا)[1] ، فهو صريح في عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن .

قال الصنعاني تعليقا على الحديثين (فاختلف العلماء في العمل بالحديثين، فذهب الجمهور ومالك والشافعي إلى جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن سواء كان المتعلم صغيراً أو كبيراً ، عملاً بحديث ابن عباس ، وقالوا: أنه محمول على أن عبادة كان متبرعاً بالإحسان ، وأما حديث عبادة فقالوا أنه بالتعليم غير قاصد لأخذ الأجرة فحذره ﷺ من إبطال أجره وتوعده، وفي أخذ الأجرة من أهل الصفة بخصوصهم كراهة ودناءة لأنهم ناس فقراء كانوا يعيشون بصدقة الناس فأخذ المال منهم مكروه،وذهب الحنفية وغيرهم إلى تحريم أخذ الأجرة على تعليم القرآن مستدلين بحديث عبادة)[2].

من هنا أجاز بعض العلماء في عصرنا الحالي أخذ أجر على الرقية وتعليم قراءة القرآن لأجل التفرغ لهذا الأمر ، وإلا ترك أهل القرآن تعليمه لانشغالهم بأعمال الدنيا ، قال ابن باز (**أجمع العلماء على أنه لا يُعطَى لمجرد القراءة، يُقال تسمعنا بعض الآيات ولك كذا. هذا ما يجوز، مجرد التلاوة فقط، أما العلم الذي يعلم الناس، يوجههم إلى الخير، يعلمهم كتاب الله، يعلمهم السنة، يدرس في المدارس؛ يعطى رواتب حتى يتفرغ لهذا الأمر، حتى ينشط في ذلك، وهكذا يعالج بالقرآن، يعالج بالدعوات، ويتطبب طبًا شرعيًا، طبًا مباحًا؛ يعطى أجره، لا بأس**)[3]

لكن إذا استطاع معلم القرآن أن يستغني بمهنة أخرى عن طلب الأجرة من تعليم القرآن ، وتمكن من توفير الوقت الكافي للجمع بين المهنتين دون تعارض ، هنا لا يستحب له أن يطلب أجرة على التعليم لأجل أن يكون عمله أكثر رواجا وقبولا لدي الناس ، فلا شك أن أعمال التبرع المحض تروج دعويا عن الأعمال التي يدفع لها مقابل .

قوله (..إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (هود/51) التعبير عن التماس الأجر من الفاطر كما أنه يدل على التجرد من المكسب الدنيوي فإنه يوحي —كذلك –بيقين نبي الله هود عليه السلام بأن الذي خلق الخلق لم يتركهم هملا ، بل تكفل برزقهم ورعايتهم كما في قوله (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) (هود 6) بما يربط أول السورة بوسطها.

[1]) رواه أبو داود ج9 ص 267 رقم 2964 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج7 ص 416
[2]) سبل السلام ج 3 ص 82
[3]) https://binbaz.org.sa/fatwas/3477

وأصل الفطر الشق ، واستعير هنا لبيان الخلق من العدم ، روى مجاهد عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى آتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : (أنا فطرتها أنا ابتدأتها)[1]، قال الألوسي (استعمل فعل "الفطر" –الذي هو الإيجاد والإبداع– لكونه أبعد من أن يتوهم نسبته إلى شركائهم)[2] ، وليقر له بالفضل الأول والنعمة ، أن أوجده من عدم .

وقال الراغب : (الفطر) الشق طولاً ثم تجوز فيه عما تقدم وشاع فيه حتى صار حقيقة أيضاً ، ووجه المناسبة أن السماوات والأرض والمراد بهما العالم بأسره ، .. كأنه تعالى شق العدم بإخراجهما منه)[3].

قوله (..أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (هود/51) تشديد على أنه لا يبتغي الأجر منهم ، وأن الأجر الذي يلتمسه من الله كاف لامتناعه عن هذا الطلب ، إذ العاقل هو الذي يعي ذلك ويفهمه ، ولذلك قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب (ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ **فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**)[4].

فالأجر الذي يتمناه أي نبي من دعوته ما أخبر عنه النبي ﷺ بقوله (**غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ**)[5]

قوله (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) (هود 52) حضهم على الاستغفار علي ذنوبهم وقد تلبسوا بالكبر بسبب قوتهم التي أنعم الله بها عليهم ، فلم يكن لهم نجاة مما هم فيه إلا بالاستغفار.

قال الطبري (والاستغفار هو الإيمان بالله في هذا الموضع ، لأن هودًا ﷺ إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم، كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) [نوح 3 – 4][6]، فإذا آمنوا بالله لم يكن لهم أن يستكبروا علي خلق الله ، ويتباهوا بقوتهم كما كانوا يفعلون ، فإن حصل منهم ذلك فقد تابوا وقبلت توبتهم ، وزادت البركة في أرزاقهم والقوة في أبدانهم .

قوله (..يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ..) ذكرهم بجائزة الاستغفار في الدنيا ، وهي توسعة الرزق ، وهي جائزة كل المستغفرين وليست خاصة بهم ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**)[7] ، قال الشنقيطي (رتب إرسال السماء عليهم مدرارا على استغفارهم ، وهذا يدل على أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قد يكون سببا في تيسير الرزق)[8].

---

[1]) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج2 ص 1682 تفسير ابن أبي حاتم ج12 ص 28
[2]) تفسير الألوسي ج8 ص 275
[3]) تفسير الألوسي ج16 ص 340
[4]) رواه البخاري ج10 ص 94 رقم 2724
[5]) رواه مسلم ج9 ص 464 رقم 3495
[6]) تفسير الطبري ج15 ص 358
[7]) رواه أبو داود ج4 ص 314 رقم 1297
[8]) أضواء البيان ج8 ص 307

وأهل الاستغفار ليس همهم الدنيا ، بل هم في غنى بفضل الله عن ذلك ، لأنهم مشغولون بالذكر والاستغفار فكفاهم الله هم الانشغال بهموم الدنيا كلها ، قال رسول الله ﷺ (**مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ ، جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ**) [1].

ولا يخفى ما للاستغفار من آثار تُصلح القلب ، وينصلح بها حال العبد ، وقد روي في الأثر (**إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار**)[2]، فإذا انصلح حال القلب مع الله أصلح الله شأن العبد كله ، وظهر أثر نعمة الله على عبده ، ونظير ذلك قوله "فقلت **استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً** "

قال أبو حيان (الاستغفار من الذنب أول حال الراجع إلى الله ، فناسب أن يرتب عليه صلاح حال الدنيا ، والتوبة هي المنجية من النار ، وبها يدخل العبد الجنة ، فينصلح حال الآخرة له كذلك)[3].

قوله (..وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) (52) فمجرد التولي عن الإيمان بالله هو ضرب من الإجرام ، والتولي يعني الإعراض أي (الإعراض عن التوحيد إلى الشرك)[4] ، ولا يوجد وصف أدق لحالة المعرض عن ذكر الله من وصف القرآن له بالإجرام ، **فمن الإجرام التولي عن جناب الله إلى ضيعة الدنيا الفانية** .

قوله تعالى (قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (هود/53) استمروا في العناد والاستكبار عن قبول دعوة الإسلام ، وأنكرو البينات التي جاءتهم رغم وضوحها عن جحود وكبر ،

فقولهم (..وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا..) يدل على شدة **التعنت** والتعصب **لمذاهبهم** الضالة ، ومدى الإصرار على الكفر بالله دون أدنى محاولة منهم للسماع منه ووزن قوله وتعقل الأمر ومقارنة حالهم بما يدعوهم إليه ، إنما هو مجرد التعصب الأعمى وإعلان الانحياز لوجهة نظرهم وإن كانت خاطئة ، ويدل ذلك كذلك على قدر المعاناة التي يعانيها النبي في تبليغ دعوته .

وقولهم (..عَن قَوْلِكَ..) يدل على أن كل ما يملكه النبي في إيصال الدعوة هو **مجرد قول** ، وأنه لا يملك شيئا غير ذلك ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد أمر الله بالقول الحسن فقال (**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً**)(البقرة 83) .

---

[1]) رواه أحمد ج44 ص 75 رقم 20608 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 403 رقم 404
[2]) رواه الطبراني في المعجم الصغير ج1 ص 307 رقم 509
[3]) البحر المحيط ج6 ص 380 مع بعض التصرف
[4]) ابن الجوزي : زاد المسير ج3 ص 350

قوله (..وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (هود/53) حاولوا أن **يقنطوه** منهم فأكدوا بهذه المقولة علي أنهم **يملكون حرية الاختيار** لعقيدتهم ،ولا إكراه عليهم في شيء ، فإما أن يؤمنوا بما يقوله النبي أو يكفروا به ، ولكنهم اختاروا الكفر على الإيمان ، بل ضموا إلى كفرهم محاربتهم لله ورسوله بالافتراء علي رسوله .

قوله (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ) هذه محاولة منهم للصد عن سبيل الله ، **بالتشكيك** في **شخص الرسول** وقدراته العقلية حتى يصرفوا الناس عنه ، قال السعدي (فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة، التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم)[1].

قوله (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) (هود/54) (مِن دُونِهِ) هنا أعلن النبي التبرؤ من قومه ، وتلك أول صور المخاصمة منه لهم ، وأشهدهم- ههنا – على تبرؤه حتى تكون بينه وبينهم مفاصلة ، إذا أصروا على الباطل وهو يدعوهم إلى الحق ، فإشهادهم تضمنى معنى إنكار المنكر عليهم ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ **بِيَدِهِ** فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ **فَبِلِسَانِهِ** فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ **فَبِقَلْبِهِ** وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) [2].

ولذلك ورد نهي النبي ﷺ عن ملاينة المشركين ،وأمر بتعميق هذه المفاصلة حتى تيئيسهم من محاولة مساومته في أمر العقيدة والدين قال تعالى ﴿ **قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ (الأنعام: 56)

والبراءة من المشركين تشمل **البراءة من شركاءهم** ، أي فعل الشرك ذاته ، كما في قوله قال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) (فاطر 40)

وقال تعالى (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) (النحل 86) قال أبو حيان (**وسمي الأصنام شركاءهم** من حيث أن لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله تعالى)[3]، والمعنى أنهم لما اتخذوا هذه الأصنام آلهة ،كان من الواجب أن يذعنوا لأوامرها ويستجيبوا لقولها ، ولكنها لا تتكلم ولا تعقل ، وإنما الذي يتكلم عنها الجني المتلبس بها ، وهو لا يتكلم إلا بما يتماشى مع أهوائهم المائجة ورغباتهم الجامحة وشهواتهم المشتعلة ، فكأن تأليههم لهذه الأصنام هو في الحقيقة تأليه لرغباتهم وشهواتهم وأهوائهم كما قال الله (**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**) من هنا جاءت تلك النسبة .

ولأجل ذلك عد النبي ﷺ مفارقتهم من أركان بيعته ، لأن عقيدة الولاء لا تكتمل إلا بالبراء ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُبَايِعُهُ فَقُلْتُ هَاتِ يَدَكَ وَاشْتَرِطْ عَلَيَّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالشَّرْطِ فَقَالَ أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ **وَتَنْصَحَ الْمُسْلِمَ وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكَ**)[4] ، ورتب على ذلك عدم جواز مساكنتهم ، فقال ﷺ (**لَا تُسَاكِنُوا الْمُشْرِكِينَ وَلَا تُجَامِعُوهُمْ** فَمَنْ سَاكَنَهُمْ أَوْ جَامَعَهُمْ فَهُوَ مِثْلُهُمْ)[5].

---

[1]) تفسير السعدي ج1 ص 384
[2]) رواه مسلم ج1 ص 167 رقم 70
[3]) البحر المحيط ج6 ص 27
[4]) رواه أحمد ج39 ص 240 رقم 18441 وصححه الألباني : إرواء الغليل ج5 ص 21
[5]) رواه الترمذي ج6 ص 138 رقم 1530 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج4 ص 105

وقوله (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ) (هود/55) هنا أعلن النبي بكل ثبات ثقته في الله ، ويقينه به ، فاحتسب أمره عليه سبحانه ، وأضحى **لا يبالي** بما قد يصدر منهم **من كيد** حتى وإن تحزبوا عليه جميعا، فإنه لا يسترجيهم ولا يطلب منهم أن يمهلوه ، فقد وثق بربه أنه كافيه ، قال تعالى (وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ** وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة/137)

وقد روي عنه ﷺ أنه قال (**ولو اجتمع الخلق أن يضروك بشيء** لك يكتبه الله في أم الكتاب لم يستطيعوا فإن استطعت أن **تعمل لله بالرضا واليقين** فافعل وإن لم تستطع فإن **الصبر** على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن **النصر مع الصبر** وأن **الفرج مع الكرب** وأن مع العسر يسرا)[1]، وفي لفظ (**لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**)[2]

قوله (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (هود/56) جملة (إِنِّي تَوَكَّلْتُ) تعليل لمضمون (فَكِيدُونِي) بقصد التعجيز والاحتقار لشأنهم ، يعني (أنه واثق بعجزهم عن كيده لأنه متوكل على الله) [3]، وإن بدا في الظاهر تقلبهم في البلاد ، فذلك وضع مؤقت لابد وأن ينقلب إلى وضعه الصحيح ، وهو ظهور دين الإسلام على الدين كله ، فالمتوكل على ربه لا يسأل الله متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا .

قوله (..مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا..) فيه تمثيل ، فالأسير يقاد بناصيته ، وكذلك الفرس ، والعرب تصف الإنسان بالذلة والخضوع بقولهم (ما ناصية فلان إلا بيد فلان) كناية على أنه مطيع لمن يمسك بزمامه ، حيث يصرفه كيف يشاء)[4].

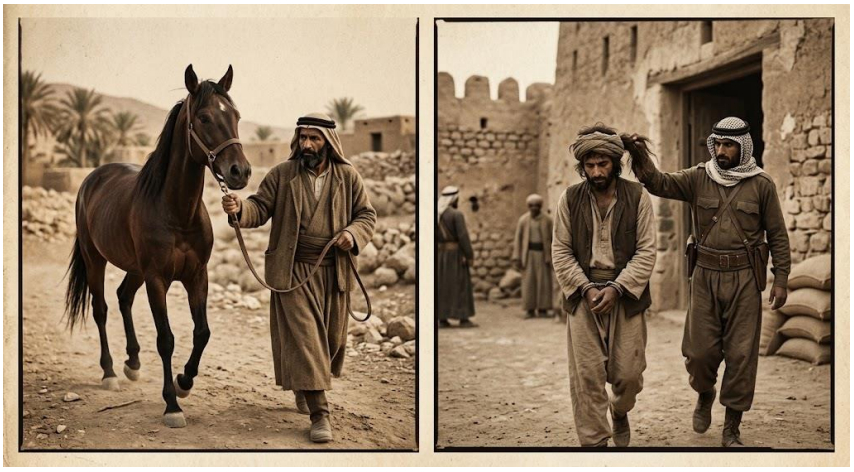

فعلام يظن الإنسان أنه قادر على معصية ربه ، وهو يحاول السير بخلاف ما يأمره ربه ، وكل المقادير بيده ، قال ابن القيم (وكون كل دابة تحت قبضته وقدرته ، وهو آخذ بناصيتها ينبغي **أن لا يقع في ملكه من أحد المخلوقات شيء بغير مشيئته وقدرته** ، وأن من ناصيته بيد الله وفي قبضته لا يمكنه أن يتحرك إلا بتحريكه ولا يفعل إلا بأقداره ولا يشاء إلا بمشيئته تعالى)[5].

---

[1] رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7ص 203 رقم 10000
[2]) رواه الترمذي ج9 ص 56 رقم 2440 وصححه الألباني صحيح كنوز السنة ج1 ص 102
[3]) التحرير والتنوير ج11 ص 281
[4]) البحر المحيط ج6 ص 426 مع بعض التصرف
5) (مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 84 - صـ 85)

قال ابن القيم (أخبر الله عن عموم قدرته تعالى ، وأن **الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته** ، وأنه آخذ بنواصيهم فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم ثم عقب ذلك بالإخبار عن **تصرفه** فيهم وأنه **بالعدل** لا بالظلم **وبالإحسان** لا بالإساءة **وبالصلاح** لا بالفساد .

فهو **يأمرهم وينهاهم** إحسانا إليهم وحماية وصيانة لهم ولا حاجة إليهم ولا بخلا عليهم بل جودا وكرما ولطفا وبرا **ويثيبهم إحسانا وتفضلا ورحمة** لا لمعاوضة واستحقاق منهم ودين واجب لهم يستحقونه عليه .

ويعاقبهم عدلا وحكمة لا تشفيا ولا مخافة ولا ظلما كما يعاقب الملوك وغيرهم بل هو على الصراط المستقيم وهو صراط العدل والإحسان في أمره ونهيه وثوابه وعقابه)[1]

قوله (..إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (56) فقدر الله عدل ، ولا يفوته رزق عبده ، ولا يدفعه شيء ، قال ابن القيم (المراد أنه في **تصرفه في ملكه يتصرف بالعدل** بمجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته **ولا يظلم** مثقال ذرة ولا يعاقب أحدا بما لم يجنه ولا يهضمه ثواب ما عمله ولا يحمل عليه ذنب غيره ولا يأخذ أحدا بجريرة أحد ولا يكلف نفسا ما لا تطيقه ، فيكون من باب له الملك وله الحمد ومن باب **ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك**)[2].

قال ابن عاشور جملة (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) تعليل لجملة (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ) ، أي توكلت عليه لأنه **أهل لتوكلي عليه**، لأنه متصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله ، و"عَلَى" للاستعلاء المجازي، مستعارة للتمكن المعنوي، وهو **الاتصاف الراسخ الذي لا يتغير** ، و"الصراط المستقيم" مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة لأن العدل يشبه بالاستقامة والسواء ، قال تعالى: (**فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً**) [مريم: 43]، فلا جرم لا يسلم المتوكل عليه للظالمين)[3].

قال ابن القيم (تأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله "إني توكلت على الله ربي وربكم" أي هو ربي فلا يسلمني ولا يضيعني وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمكنكم مني فإن نواصيكم بيده لا تفعلون شيئا بدون مشيئته فإن ناصية كل دابة بيده لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه فهو المتصرف فيها .

ومع هذا فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم **لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة** ، ولو سلطكم عليَّ فله من الحكمة في ذلك ماله الحمد عليه لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم لا يظلم ولا يفعل شيئا عبثا بغير حكمة)[4].

وقال ابن القيم (فتأمل ألفاظ هذه الآية وما جمعته من عموم القدرة وكمال الملك ومن تمام الحكمة والعدل والإحسان .. فإنها **من كنوز القرآن** ولقد كفت وشفت لمن فتح عليه بفهمها فكونه تعالى على صراط مستقيم ينفى **ظلمه للعباد** وتكليفه إياهم ما لا يطيقون وينفى العيب من أفعاله وشرعه ويثبت لها غاية الحكمة والسداد .. فهو

---

1) (مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 84 - صـ 85)
2) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 145
3) التحرير والتنوير ج11 ص 282
4) التفسير القيم ج1 ص 18

سبحانه على صراط مستقيم في عطائه ومنعه وهدايته وإضلاله وفي نفعه وضره وعافيته وبلائه واغناه وإفقاره وإعزازه وإذلاله وانعامه وانتقامه وثوابه وعقابه وإحيائه وإماتته وأمره ونهيه وتحليله وتحريمه وفي كل ما يخلق وكل ما يأمر به ، وهذه المعرفة بالله لا تكون إلا للأنبياء ولورثتهم)[1].

قوله (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ **أَبْلَغْتُكُم** مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ **وَيَسْتَخْلِفُ** رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)(هود/57) هنا يؤكد النبي ﷺ لقومه أنه بذل ما عليه من واجب البلاغ ، ولم يدخر جهدا لذلك ، فإن هم تولوا –بعد البلاغ – فليس عليه غير ما فعل ، وهنا لابد وأن **تتدخل القدرة الإلهية** لتعيد البشرية إلى جادة الصواب ، **فلا ينبغي أن يظل المتخاذلون عن نصرة النبي هم المستخلفين في الأرض** ، وإنما لابد وأن تتحقق فيهم سنة الاستبدال ، ليستخلف الله تعالى قوما آخرين ، وليس ذلك على الله بعزيز ، فالله تعالى هو الحافظ لهذا الدين ، وهو الذي يؤيده بالمؤمنين .

أما الذين انشغلوا بالدنيا عن واجب الاستخلاف في الأرض وتولوا عن وظيفتهم التي خلقهم الله لأجلها ، لابد وأن يُستبدلوا ، **يستبدلوا لكي يظل الدين قائما لله** ، وتظل كلمة التوحيد تلهجها الألسنة ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ **وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا** فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[2]، قال ابن علان أي (بمنزلة الخلفاء عنه في التصرف فيها ، **فلا تتصرفوا بما لم يأذن لكم به**)[3] ، وقال النووي (معنى مستخلفكم فيها **جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم**)[4]، قال المناوي في قوله (فناظر كيف تعملون) يعني (أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله خلقها وخولكم إياها وخولكم الاستمتاع فيها وجعلكم خلفا بالتصرف فيها، فليست **هي بأموالكم حقيقة بل أنتم فيها بمنزلة الوكلاء** ، فناظر هل تتصرفون فيها على الوجه الذي يرضى به المستخلف أو لا ،والمراد **مستخلفكم فيما كان بأيدي من قبلكم بتوريثكم إياهم** فناظر هل تعتبرون بحالهم أو لا)[5].

قوله (...وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ..)(57) قال ابن جزي أي لا تنقصونه شيئاً ، إذا أهلككم واستخلف غيركم)[6]، وفي الحديث القدسي : قال الرب " يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ **لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي** وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي "[7]، قال المناوي (لأني الغني المطلق والعبد فقير مطلق)[8].

قال ابن علان أي أن (**ونفع عباداتهم إنما يعود عليهم**)[9] فلا حاجة له بذلك ، وهو غني عن عبادتهم ، ولذلك قال (يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي

---

1) (مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 84 - صـ 85)
2) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925
3) محمد علي بن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج4 ص 245
4) شرح النووي ج17 ص 55
5) فيض القدير ج2 ص 226
6) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 704
7) رواه مسلم ج12 ص 455 رقم 4674
8) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 359
9) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج1 ص 407

شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم؛ **ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**)[1].

قوله (...إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)(57) أي أن **الحكمة من هذا الاستبدال والاستخلاف هي حفظ هذا الدين** ، والله خير حافظا ، قال الألوسي (فالحفظ كناية عن المجازاة ، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي ..، ومن شأه ذلك كيف يضره شيء)[2] ، قال الثعلبي ("على" بمعنى اللام ، أي لكل شيء حافظ ، **فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء**)[3].

قوله (وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) (هود/58) فهذه **النجاة سنة ربانية** كشف عنها قوله تعالى (**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**) (الروم/47) ، وقوله سبحانه (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ **وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**) (الأنبياء/88) ، من هنا نفهم أن الله تعالى لا يرضى لعباده أن يصيبهم عذاب في الدنيا ، إلا أن يكون ذلك بقدر الاختبار والابتلاء والتمحيص ، بأن يبتليهم بالشر والخير فتنة ، ولكنه سبحانه — وفي كل الأحوال – ناصرهم ومؤيدهم على الذين كفروا ، وذلك حين يجيء أمره ، مثل قوله تعالى (**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا** مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) ، وقوله: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا) .

وأمر الله قد يتأجل ، وذلك حتى تستوف شروط الولاية والاستخلاف في الأرض ، فإن حصلت الولاية كان حقيق علي الله أن ينجي أهل ولايته وينصرهم ثم يستخلفهم ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**)[4].

قوله (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (هود/59) جحدوا بها –ظلما وعلوا– وإن استيقنتها أنفسهم ، فالمعصية التي بدرت من عاد تمثلت في شقاقهم لله ولرسوله ، و الطاعة التي امتثلوا لها كانت للجبارين المعاندين ، فكانت عليهم خيبة وخسرانا ، (وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (إبراهيم/15)

قوله (..وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (59) أي اتبعوا الجبارين خوفا من بطشهم ، ولم ينتهجوا نهج الإسلام الذي **يرفض التجبر كما يرفض الخنوع له** ، بل **ويأمر المسلمين أن يجاهدوا الجبارين** باليد واللسان والقلب ، كل بحسب استطاعته ، وفي كل الأحوال يرفض الرضى بظلمهم ومتابعتهم ، قال البغوي أي: (واتبع السفلة والسقاط أهل التكبر والعناد)[5] ،(والجبار: المتكبر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق)

يقول الشيخ علي بن نايف الشحود (حمل القرآن **حملة شعواء على المتألهين في الأرض، وحمل على الشعوب التي تتبع هؤلاء**، ولذلك قال عن قوم فرعون: (وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً) وقال عن عاد قوم هود:

---

[1]) رواه مسلم ج12 ص 455
2) تفسير الالوسي ج8 ص 282
3) تفسير الثعلبي ج1 ص 1132
[4]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021
[5]) تفسير البغوي ج4 ص 184

(وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)، فلا يجوز للأمة أن تتبع.. وقال عن فرعون: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) **حمَّل الشعوب المسؤولية**، لأن الشعوب يجب أن تتحمل تبعاتها في علاقتها بالحاكم ، لا أن تكون قطيعاً يسوقه الحاكم بجبروته [1].

فهذا الأمر ليس خاصا بمعاملة الكفار وحسب ، بل كذلك بمعاملة كل ظالم جبار وإن كان مسلما ، فيجب على المسلم أن يرفض ظلمه ولا يُقهر به ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ **وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ** قَالُوا أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ قَالَ لَا مَا صَلَّوْا)[2]

ونلحظ أن صفة العناد عُطِفت على صفة الجبار ، وأن هاتين الصفتين هما سببا اتباع قوم عاد لهؤلاء الجبارين المعاندين في محاربة أهل الحق لأجل الحصول علي الاقتراب من مجد السلطة وثروة المال ،فالتابعون لهؤلاء الجبارين هم فسقة — كما ذكر البغوي — يعبدون المال ويخشون السلطان ، فاتخذوا من بيده السلطة والمال أربابا من دون الله ،يقول النبي ﷺ (**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ** وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ)[3].

قوله (وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) (هود/60) قال ابن عجيبة (جعلت **اللعنة تابعة لهم في الدارين**؛ في الدنيا أهلكتهم ، وفي الآخرة أحرقتهم)[4]، وفي ذلك شفاء لصدور الذين آمنوا برؤية مصارع الجبارين وعتاة المجرمين ، وقد لحقتهم دعوات المظلومين عليهم ، قال السدي:"وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً لَمْ يُبْعَثْ نَبِيٌّ بَعْدَ عَادٍ إلا لُعِنَتْ عَادٌ عَلَى لِسَانِهِ"[5] ، فلما استجاب الله لهم أذهب غيظ قلوب انتكسرت لما ظُلمت ، وأحيا أملها لما يئست ، برؤية النصر ، (حَتَّى إِذَا **اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ** وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ **جَاءهُمْ نَصْرُنَا** فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (يوسف/110) .

ومن مظاهر هذه اللعنة يوم القيامة أن يتشاجر الضعفاء مع الجبارين الذي كانوا قادة لهم وهم لهم تبعا ، قال تعالى (**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ** فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) (غافر/47-48)

قوله (أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ) (هود/60) تعليل لاستحقاقهم اللعن في الدنيا والآخرة ، فالكفر سبب كاف لاستحقاق اللعن والهلاك ، قال (إن لإفادة التعليل) لجملة (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) تعريضا بالمشركين ليعتبروا بما أصاب عادا) [6].

---

[1]) موسوعة الدفاع عن الرسول ﷺ ج7 ص 20
[2]) رواه مسلم ج9 ص 400 رقم 3445
[3]) رواه البخاري ج10 ص 11 رقم 2673
[4]) البحر المديد ج3 ص 57
[5]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 201 تفسير ابن كثير ج4 ص 331
[6]) ابن عاشور: التحرير والتنوير ج11 ص 286

قال طنطاوي أى : (ألا إن يوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر)[1].

قوله (أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) (هود/60) قال البغوي (للبعد معنيان: أحدهما ضد القرب ، والآخر: بمعنى الهلاك)[2] ، قال ابن عجيبة (دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا؛ للدلالة على أنهم كانوا **مستحقين** له ، مستوجبين لما نزل بهم؛ بسبب ما حكي عنهم ، وإنما كرر « ألا » وأعاد ذكرهم؛ **تفظيعاً** لأمرهم ، وحثاً على **الاعتبار** بحالهم)[3]

[1]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2226
[2]) تفسير البغوي ج4 ص 185
[3]) البحر المديد ج3 ص 57

المحور الرابع
استقامة صالح على الرجاء في الله
دون اكتراث لرجاء قومه فيه أو عنادهم معه

قال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ **اعْبُدُواْ** اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا **فَاسْتَغْفِرُوهُ** ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (61) قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ **كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا** أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ **عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي** وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ **وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) **فَعَقَرُوهَا** فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا **نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ** بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) **وَأَخَذَ** الَّذِينَ **ظَلَمُواْ** الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ **بُعْدًا لِّثَمُودَ** (68)

ذكر الله قصة ثمود في هذا الموضع ليبين لنبيه محمد ﷺ صورة ثالثة من صور الدعوة في سبيل الله التي يتعين عليه أن يستقيم عليها ، إذ لم يُقَصِّر نبيهم صالح في الخطاب الدعوي ، ولم يتوان عن البلاغ ، بل استقام على المنهج الإصلاحي ، فتقدم بدعوته إليهم لإصلاح جانب العقيدة وأمرهم بعبادة الله ، وألان لهم الكلام ورغبهم في الله ، وفصَّل لهم آياته تفصيلا ، فلما وجد منهم الصد عنه ، وقد انقطع رجاؤهم فيه – وكانوا من قبل يرجون حسن عشرته – قطعوا حبال الوصال معه ، وأعلنوا خصومتهم له لمجرد مخالفته في العقيدة ، ثم عاندوه وتحدوه أن يأتي بآية مادية شاهدة على صدق دعوته للتوحيد ، فجاءهم بآية بينة ، وهي ناقة الله ، قيل أنها ولدت من الصخرة ، وشاهدوا بأعينهم خروجها ، ولكنهم كذبوا الآية التي اقترحوها ، لا لشيء إلا لمجرد التكذيب وحسب ، والانتصار لرأيهم وفقط ، ما يؤكد على عنادهم الفج ، وقد اتخذوا من سياسة الاستعماء والاستحمار منهجا ليسوقوا الناس لهم في هذا الطريق المعوج عن صراط الله المستقيم .

هنا كان لابد أن يحذرهم النبي مغبة أمرهم ، ويخيفهم من عذاب الله ، ولكن أنى لهؤلاء أن يفقهوا ، وقد ألفوا الكبر ، فلما جاء أمر الله نجا الله المؤمنين وأهلك قوم ثمود ، ليقصي الله ويستأصل هؤلاء القوم لتكون العاقبة للمتقين ، وهم الضعفاء في قومهم الذين لا يؤبه لهم ولم يوضع لشأنهم وزن بين الناس ، ولكنهم عند الله أثقل من الجبال ، بل إنه سبحانه ليصعق أعدائهم بصيحة واحدة ترضية لهم ولقسمهم به ، يقول النبي ﷺ (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ **لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ** أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)[1] .

فالقصة يُستشهد بها على أن الغاية المرجوة من الاستقامة على المنهج الإصلاحي هي الاجتهاد في الدعوة وبذل الجهد دون انتظار النتائج ، فهداية القوم ليست بيد أحد غير الله ، فالله هو الهادي ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى .

[1]) رواه البخاري ج15 ص 218 رقم 4537

قوله (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) (هود/61) دوما يقرن القرآنُ بين قصة عاد وقصة ثمود ، فهما في الزمان متعاقبان ، وقد وصف صالحا أنه أخٌ لثمود رغم ما بينهما من اختلاف في العقيدة ، ما يعني أنه **أخوهم في الإنسانية** ، وهو **معيار** كاف كأساس مشترك بينهم لأن **يعيشوا معا في وطن واحد** ، مما يسمح لهم بالتعامل المدني في إطار مبدأ المواطنة ، ولذلك كان جبريل يوصي النبي ﷺ بجاره حتى ظن أنه من كثرة إيصائه به أنه سيرثه بعد وفاته[1] ، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : **(ما زال جبريل ﷺ يوصي بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)**[2].

من ذلك نفهم المبدأ الذي اهتم به الإسلام كأساس للتعارف بين الناس ووسيلة لإسداء النصح بينهم وتبادل الخبرات ، فمبدأ المواطنة وضمان حقوق الجيرة هو أول توطئة للدعوة الإسلامية ، ذلك أن المسلم حقا هو الذي يكن لأهله وعشيرته وجيرانه الخير ويعمل دوما لأجل الصالح العام ، فهو لنصحتهم وقيادتهم للخير ، والعكس كذلك صحيح ، **فليس أهلا للدعوة من لا يحسن لجيرانه وأصدقائه وأهله وعشيرته** .

وقد استهل نبي الله صالح دعوته بذلك الأمر ، فكانت **الأخوة الإنسانية وسيلته إلى تبليغ دعوة الإسلام** لهم **وشرحه لمجمل عقيدة التوحيد بعبارة بليغة** (مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) ، وشرح **توحيد الربوبية** مجملا بقوله (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ) وتفصيل ذلك المعني بقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ) (السجدة/7-8) ، ودعاهم **لتوحيد الألوهية** بقوله (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) ما يدل على وجوب الحركة لعمارة الأرض، قال ابن العربي (الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى للوجوب)[3] ، وهو مناط التكليف الشرعي للإنسان في هذا الكون ، ويتضافر معه **التكليف الشرعي بالعبادة المحضة** في قوله سبحانه (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ) فجمع بذلك بين تكليفين ، أحدهما "توحيد الربوبية" ومن مظاهرة العبادات التوقيفية ، والثاني "توحيد الألوهية" بقصد الاستخلاف في الأرض ، ومن مظاهره عمارة الكون وفيه حظ للنفس البشرية ، كل ذلك في آية واحدة .

قوله (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) تذييل الآية بما يستوجب الطمع والرجاء في رضوان الله ، ليحثهم على أن يخلصوا في الطلب من الله ، ولا يطلبوا من غيره ، كما في قوله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي **فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ** إِذَا دَعَانِ) [البقرة: 186] ، قال رسول الله ﷺ **(إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ)**[4] .

قَالَ رسول الله ﷺ **(أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)**[5]، فمن استقام على كثرة السجود زاد قربه من ربه ، ومن استقام على الدعاء في هذا الحال ، استجاب الله له ولابد أن يستجيب ، قال ابن تيمية (وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ "قَرِيبٌ مُجِيبٌ" مُقْرُونَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ أَرَادَ بِهِ قَرِيبٌ مُجِيبٌ لِاسْتِغْفَارِ الْمُسْتَغْفِرِينَ التَّائِبِينَ إلَيْهِ كَمَا

---

[1]) رواه البخاري ج18 ص 430 رقم 5555
2) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 49 رقم 101 ، ورواه البخاري في صحيحه ج18ص 431 رقم 5556
[3]) أحكام القرآن لابن العربي ج4 ص 495
[4]) رواه الترمذي ج11 ص 468 رقم 3479 : انظر صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 42 **لمؤلفه بارع عرفان توفيق**
[5]) رواه مسلم ج3 ص 29 رقم 744

أَنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ بِهِمْ وَقَدْ قَرَنَ الْقَرِيبَ بِالْمُجِيبِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُقَالُ إِنَّهُ مُجِيبٌ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَإِنَّمَا الْإِجَابَةُ لِمَنْ سَأَلَهُ وَدَعَاهُ فَكَذَلِكَ قُرْبُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)[1].

قوله (قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (هود/62) قال ابن عجيبة أي : (كنا نرجو أن ننتفع بك؛ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد ، فتكون لنا سيداً ، أو مُستشاراً في الأمور ، وإن توافقنا على ديننا ، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا منك)[2] ، (ويبدو من تلك العبارة **انقلاب أهله عليه** ، فبعد أن كان صالح يُرجَى في أهله ، لكن لما دعاهم إلى الحق وإلى ترك الباطل كرهوه)[3] ، وكونهم ذكَّروه بذلك يعني طمعوا أن يرشوه باسترداد مكانته بينهم ، ليكون أهلا للرجاء فيهم كما كان من قبل ، وكذلك فعلوا من قبل مع النبي محمد ﷺ لما قالوا له (فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا)[4].

فأجابهم النبي ﷺ إجابة الواثق في ربه المتوكل عليه ، فقال لهم (ما أدري ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، أو كما قال رسول الله)[5].

بذلك ضحى النبي ﷺ بمكانته من قومه ليستقيم على أمر الدعوة ، وقد كان بينهم مصدقا ، ويشهد لذلك أنه لما جمعهم قال لهم (أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟) قَالُوا نَعَمْ (مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا) ، وبالرغم من تصديقهم له إلا أنه لما دعاهم للإسلام كذبوه ، فقَالَ (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ (تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا)[6]، وهكذا أهل الباطل ينقلبون على أهل الحق ويتناسون مكانتهم بينهم عندما يشرعون في تذكيرهم بالله .

قوله (..وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (62) هذا هو ردهم عليه ، أي شككوا في دعوته وكانوا من قبل يصدقونه لما له من منزلة عالية عندهم ، قال ابن عاشور (جاء حرف التأكيد في (إننا) لبيان يأسهم من حاله)[7]، شككوا في دعوته ، بمعنى انقلبوا عليه .

وهذا الموقف أشبه بموقف اليهود من عبد الله بن سلام ، لما أسلم قال للنبي ﷺ (إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ فَجَاءَتْ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَيْتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ قَالُوا أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا وَأَخْبَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ قَالُوا أَعَاذَهُ اللَّهُ

---

[1]) مجموع الفتاوى ج5 ص 493
[2]) البحر المديد ج3 ص 58
[3]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 179
[4]) السيرة النبوية لابن اسحق ج1 ص 68 ، السيرة لابن كثير ج1 ص 479 ، وحسنه الألباني في فقه السيرة للغزالي ج1 ص 106
[5]) السيرة النبوية لابن اسحق المرجع السابق
[6]) رواه البخاري ج14 ص 434 رقم 4397
[7]) التحرير والتنوير ج11 ص 289
ومن محاسن النكت هنا إثبات نون "إن" مع نون ضمير الجمع لأن ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد ، والإظهار ضرب من التحقيق بخلاف ما في سورة إبراهيم من قول الأمم لرسلهم: (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا) لأن الحكاية فيها عن أمم مختلفة في درجات التكذيب، ولأن ما في هاته الآية خطاب واحد، فكان (تَدْعُونَا) بنون واحدة هي نون المتكلم ومعه غيره فلم يقع في الجملة أكثر من ثلاث نونات بخلاف ما في سورة إبراهيم لأن الحكاية هنالك عن جمع من الرسل في "تدعوننا" فلو جاء "إننا" لاجتمع أربع نونات.

مِنْ ذَلِكَ فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَوَقَعُوا فِيهِ)[1].

وهكذا يزداد الكفار ريبا في رسولهم ومن ينذرونهم عندما يتعاطف إنكار المنكر مع الأمر بالمعروف ، قال سيد قطب (وهكذا يعجبون مما لا عجب فيه ؛ ويستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون أن دعاهم إلى عبادة الله وحده)[2] ، ويقول (فصالح الذي كان مرجواً في قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه! لماذا؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره ! إن **القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده** حتى إن الحق البسيط الفطري المنطقي ليبدو عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق فطري أو منطق عقلي على الإطلاق!)[3].

قوله (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) (هود/63) **جاء رد نبي الله صالح لقومه قاطعا لرجاءهم فيه ، وطمعهم في رشوته** ، بإخبارهم أنه لن يحيد عن الحق ويعصي ربه لأجل خاطرهم ، فليس لأحد خاطر يخول له حق أن يُجامل أحدا في دين الله ، فهم يذكرونه برجائهم فيه قبل نبوته ، كأنهم يكشفون له عن نيتهم في أن يجعلوه زعيما وسيدا عليهم ، وهو يؤكد لهم أنه على بينة من ربه ، أي واثق في ربه متوكلا عليه ،مستيقنا الصراط المستقيم الذي يسير فيه إليه ، محدثهم عن رحمته ، ومحذرهم من غضبه.

وفي ذلك تأصيل لمسألة سمو دين الإسلام وقداسته على أي اعتبار ، فلا تجوز المداهنة مع الكافر على حساب الاعتقاد في الله ، ولو كُسِر خاطرهم ، يقول الشيخ مصطفى العدوي (**فمع أقرب الأقربين لا مجاملة في أصل المعتقد بحال من الأحوال**)[4] ، قال سيد قطب (**وفرقٌ بين الاعتقادِ والتجارة كبير**، فصاحبُ العقيدة لا يتخلى عن شيءٍ منها، لأنَّ الصغير منها كالكبير، بل ليس في العقيدة صغير وكبير، إنَّها حقيقةٌ واحدةٌ متكاملة الأجزاء، لا يطيعُ فيها صحابها أحدًا، ولا يتخلى عن شيءٍ أبدًا، **وما كان يمكنُ أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصفِ الطريق، ولا أن يلتقيا في أي طريق**)[5]

قوله (..فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) (63) بيَّن لهم في غير مواربة أنه لن يطيعهم بشيء مما يطلبون ، ولا يظنون عندما ألان الخطاب معهم أنه يمكن أن يخالف أمر ربه لمجرد قرابته لهم وجيرتهم له ورجاءهم فيه ، فلا يكون ذلك أبدا على حساب دعوته ودينه ، لأنه يخاف الله ، **ويخشى إن فرط في شيء من البلاغ أن يصيبه شؤم المعصية ، فالذي يخاف جناب الله لا يجامل أحدا على حساب دينه** ، ولو قيد أنملة ، قال سبحانه (قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الأنعام/15) .

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 110 رقم 3082
[2]) في ظلال القرآن ج4 ص 249
[3]) في ظلال القرآن ج4 ص 252
[4]) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ج60 ص 3
[5]) في ظلال القرآن ج7 ص 292 تفسير قوله (ودوا لو تدهن فيدهنون)

قال ابن تيمية (الْخَائِفُ مِنْ اللَّهِ مُمْتَثِلٌ لِأَوَامِرِهِ مُجْتَنِبٌ لِنَوَاهِيهِ)[1]، وقال ابن القيم الجوزية (فأعرف الناس –بالله– أخشاهم لله ، **ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له ، وكلما ازداد معرفة ،ازداد حياء وخوفا وحبا)**[2].

قوله (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) (هود/64) النداء هنا غرضه إظهار الضجر الممزوج بالتحسر والتحزن والأسى على حالهم أن كذبوه وبالبينات التي جاءته من ربه ، فقد ذكرهم من قبل بصنع الله وقدرته علي الخلق والتدبير .

ولكنهم ولإلحاحهم عليه طلبوا آية مقترحة ، وقد أشفق عليهم هذا النبي الصالح أن يفتنوا بها ، (إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ) (القمر 27) ، فيصيبهم عذاب الله إن كذبوها بعد ظهورها ، ولكنه أمام هذا الإلحاح سأل الله أن يأتيهم بتلك الآية التي اقترحوا ، فكان ما أرادوا ، وقد اختصرت الآيات هذه الحكاية في ذلك السياق ، ولكنها فصلتها في موضع آخر وهو قوله سبحانه (قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (الشعراء 153) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (الشعراء 154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) (الشعراء 155)

أي قال لهم (فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الأعراف 74) ، وقال لهم (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (الشعراء 146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (الشعراء 147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (الشعراء 148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (الشعراء 149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (الشعراء 150) ، وفي سياق هذه السورة قال لهم (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) ، كل ذلك تذكير منه لهم بآيات الله ، حتى إذا لم ينتبهوا لها آتاهم بأية هي من اقتراحهم ، وهي الناقة التي قيل أنها خرجت لهم من الصخرة .

أي أن الأمر إذا صار إلى الإتيان بالآية المقترحة لإقامة الحجة عليهم ، فلا محيص من أن يأتيهم بها كما طلبوا ، ولكن هذا الأمر جد خطير ، لأن **الإيمان بما هو مشاهد بخلاف الإيمان بما هو غائب** ، ولذلك فإنه أشفق عليهم أن يأتيهم بآية يشاهدوها بأعينهم ، لأنهم بعد مشاهدتها لا يملكون تكذيبها ، وإلا فإنهم ملومون ومعاتبون ومعذبون .

وهذا ما حصل فيهم ، إذ أنهم ذبحوها رغم نهي نبيهم لهم ألا يمسوها بسوء ، فلا يعود ذبحها عليهم بشيء فمرعاها ليس على أحد ، بل هي تأكل في أرض الله ، فلا يكلفهم رعايتها شيء ، لكن عقرهم لها دليل دامغ على تكذيبهم بنبوته وعصيانهم أمره ، بما لا يُرجى معه صلاحهم ، وعندئذ يحق عليهم عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة .

وذلك مثل قوله تعالى (قَالَ اللهُ **إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيَ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا** مِّنَ الْعَالَمِينَ) (المائدة/115) , فالعذاب القريب المذكور في الآية يعني استئصالهم لتطهر البشرية من هذه الجبلة من الناس المعاندة مع الخالق سبحانه ، قال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ **فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى** فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (فصلت/17-18)

---

[1]) مجموع الفتاوى ج7 ص 24
[2]) طريق الهجرتين ج1 ص 424

قوله (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) (هود/65) "فعقروها" يعني قتلوها بالطعن في الرقبة لأن الناقة (الجمل) طويل العنق ويصعب ذبحه إلا بالطعن قائما ، قال (تمتعوا) أي : (تمتعوا بالعيش في منازلكم ثلاثة أيام ، فإن العقاب نازل عليكم بعدها)[1]، قال تعالى (**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**) (الطارق/17)

ولعل الامهال –والله أعلم– الذي منحه الله لثمود نظير قولهم لصالح (**قد كنت فينا مرجوا**) فلأجل ما بينهم وبين صالح من رجاء الصلة بينهم متعهم الله في الدنيا حظهم كاملا ولم ينقصهم منه شيئا ، يقول النبي ﷺ (**الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**)[2] .

قوله (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) (هود/66) نجاة المؤمنين في الموطن الذي ينزل الله غضبه وعذابه على الكافرين هو تحقيق لوعد الله تعالى بأن يصطفي من خلقه الذين آمنوا لينجيهم من عذاب الخزي يوم أن ينزل بالظالمين ، قال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم** لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (يونس/13-14) .

قوله (..إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) (66) تذييل الآية بما يتناسب مع ختام القصة ، فأشارت إلى قوته لاستظهار قدرته وقوته وبطشه بقرى الظالمين ، قال تعالى (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ** إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود/102)

ذكرت عزته ، لأنه بعزته أعز أهل هذا الدين ، قال تعالى (**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**)(فاطر/10) ، وقال سبحانه (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون/8) .

قوله (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود/67) أي **صرعى** "**هامدين**" [3]"**خامدين**" [4]موتى لا يتحركون"[5] ، فحالهم أشبه بحال عاد الذين قال الله في شأنهم (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) (الحاقة/7) ، وتلك هي نهاية الظالمين ، يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى **إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** قَالَ ثُمَّ قَرَأَ "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ")[6].

قوله (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ) (هود/68) يدل على أن الظالمين مهما طالت أعمارهم في هذه الدنيا فكأنهم لم يغنوا فيها بشيء من متاعها ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**)[7] .

---

[1]) فتح القدير للشوكاني ج3 ص 461
[2]) رواه مسلم ج13 ص 413 رقم 5022
[3]) الكشاف للزمخشري ج2 ص 250
[4]) الوجيز للواحدي ج1 ص 230
[5]) تفسير أبي السعود ج3 ص 367
[6]) رواه البخاري ج14 ص 268 رقم 4318
[7]) رواه الترمذي ج8 ص 299 رقم 2242 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 320

فقوله (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا) يعنى محو آثارهم كما قال (**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**) [يونس: 24]، تصويرا لهول وشدة ما ألم بهم من العذاب ، وقد فنوا فلم يأبه أحد بهم ، إذ (قضى عليهم بعذاب الاستئصال فهلكوا جيمعاً)[1] ، ولم يبق غير المؤمنين الذي استعملهم الله تعالى واستخلفهم لاستعمار الأرض ، لتظل دعوة الله ماضية حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

قوله (..أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ) (هود/68) فالله يقصي من طريق الدعوة من يتصدى للسائرين فيه ليقطع عليهم سبيلهم ، فيبعدهم إقصاء وطردا ، ليخلي بينه وبين عباده السائرين الله

وبختام هذه القصة انتهى عهد الآيات المقترحة فبعدا لهؤلاء القوم الذي يقترحون الآيات ثم يكذبون بها لمجرد التكذيب والعناد ، كما في قوله (**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا **وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**) (الإسراء 59) ، وأضحت الآيات التي يرسلها الله لعباده تخويفا بالرعد والبرق والزلالزل والبراكين والسيول والظواهر التي يسميها الناس ظواهر طبيعية ، وهي بالفعل طبيعية لأنها خلق الله ، ومن الطبيعي أن يسبح الكون لله ، قال تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (الرعد 12) **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ** وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد 13) ، لكن من غير الطبيعي ألا يفقه الإنسان هذا التسبيح ، ويظل يعاند أهل الحق ليتجنب صراط الله .

[1]) النكت والعيون للماوردي ج2 ص 209

المحور الخامس

استقامة ابراهيم علي التزام الدعاء قوبلت ببشرى الاستجابة ، واستقامته على المجادلة بالحق توافقت مع أمر الله

قال تعالى (وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ **بِالْبُشْرَى** قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ **فَبَشَّرْنَاهَا** بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ **الْبُشْرَى** يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

ضرب نبي الله إبراهيم أورع الأمثلة في الثبات على الحق والصدع به ، وعدم الخوف إلا من الله ، ومصارعة أعدائه بالكلمة ، والثبات عليها ، كما ضرب الله به المثال في التوكل عليه واليقين به ، والثقة فيه ، وقد تكلل ذلك كله بالبشرى ، فبُشر بخير ذرية نسل منها الأنبياء جميعا ، رحمة وبركة من الله ، لما عُرِف عن أهل بيته بالحمد والتمجيد لله سبحانه ، ورغم ذلك فقد **سُجل عليه موقف يدل على أن الاستقامة على الحق ابتلاء عظيم** ، فقد ذُكرت قصته وهو يجادل الملائكة في قوم لوط ، وهو أمر قد قدره الله عليهم فعلام الجدال ، هنا يأتي دور الاستقامة على الحق ، وعدم المجادلة في أمر الله ، ولذلك شاب شعر رسول الله ﷺ من هذه السورة لما تضمنته الاستقامة من معاني يصعب على النفس البشرية أن تحققها بدرجة كاملة إلا من أخلص قلبه لله ، ونبي الله إبراهيم جاء لربه بقلب سليم ، ورغم ذلك لا يزال قلبه **يحمل بعض معاني الشفقة علي نبي الله لوط** ، فخاف عليه أن يصيبه الهلاك العام عندما ينزل بقومه ، ولكن الله أعلم بمن فيها ، ولذلك ليس عليه بأن يحمل همه والله عليم بحاله وحال قومه ، ومن يستحق الهلاك ومن يستحق النجاة .

إذن **يريد الله منا أن يتوجه المؤمن بقلبه بالكلية لله تعالى ، فلا يحمل هَمَ غيره إزاء قدر الله المقدور** ، وليس في يديه شيء هو مكلف به من ربه حتى يتدارك ما سيكون ، إذا ما قُدِّر الله له ذلك ، أي إذا ما قَدَّر الله تغيير القدر بما سوف يفعله من التكليف الذي أُمر به ، كما في قوله ﷺ **(لأن يهدي الله بك رجلا واحدا)**[1] قال ابن علان (أي: ينقذه من الكفر والضلال بدلالتك له على الإسلام والهدى)[2] ، قال ابن جبرين (فجعله سبباً للهداية، والله هو الهادي)[3] ، قال حقي (الهداة من العباد الأنبياء عليهم السلام ثم العلماء الذين أرشدوا الخلق إلى السعادة الأخروية وهدوهم إلى صراط الله المستقيم ، بل الله الهادي لهم على ألسنتهم وهم مسخرون تحت قدرته وتدبيره)[4]

أو تفعيل الأحداث لتحقيق الأقدار وفق ما يتمناه المسلم ويهواه ويدعو به ، فلا يرد القضاء إلا الدعاء ، فيصادف هواه ماجاء به القدر ، وهكذا **يريد كل نبي الإصلاح ما استطاع ولا يتدخل فيما جرت به المقادير** ، بل **يكل الأمر لله سبحانه ويرضى بقضائه وقدره** .

---

[1]) رواه البخاري ج10 ص 198 رقم 2787
[2]) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج2 ص 144
[3]) شرح العقيدة الطحاوية لابن جبرين ج3 ص 292
[4]) تفسير روح البيان ج4 ص 226

قوله (وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى..) (هود/69) تصدر ذكر قصة إبراهيم عليه السلام بقدوم البشرى إليه بعدما اعتزل قومه الكافرين ، وقد أنجب إسماعيل من هاجر في فلسطين ثم هاجر لمكة وتركها هناك ، ثم عاد لفلسطين لزوجته سارة وأنجب منها اسحق ، وكلاهما أنجبهما في الكبر ، ولذلك قال (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق) ، فلم تكن له من ذرية في شبابه ترث ميراثه من الدعوة في سبيل الله حتى كبر في السن ، فجاءته البشرى مرتين :-

فجاءت البشرى الأولى بولادة إسماعيل في قوله (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (الصافات 100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (الصافات 101) ، فكانت البشرى الأولى – في هذا الوقت– أعظم سلوى ، تعويضا لصبره على ما لاقاه من أذى من قومه وهجرانهم له وقطيعته وجفاءهم معه ، ولكنه ابتلي فيه مرتين :-

المرة الأولى لما أمره الله أن يتركه وزوجته في مكة حيث لا زرع ولا ماء ، فعن ابْنُ عَبَّاسٍ أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا)[1]، أي انطلق إلى سارة في أرض فلسطين .

والمرة الثانية كما في قوله (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات 102)

وبُشر مرة ثانية بولادة اسحق كما في هذه الآية من سورة هود ، فالسياق هنا يتحدث عن البشرى الثانية أي ولادة اسحق ، ذلك أن سارة لم تكن تنجب ، فلما أنجبت هاجر إبراهيم تمنن الولد ، فبشرتها الملائكة باسحق[2] .

وقد تزامن مع البشرى الثانية خبر قرب هلاك قوم لوط ، لكن الملائكة لم تتحدث عن ذلك إلا بعدما سألهم عن سبب مجيئهم ، فالملائكة قدمت البشرى ثم ذكرت بعدها ما جاءت لأجله وهو إهلاك قوم لوط ، لنتعلم من ذلك أن البشرى مقدمة على غيرها ، فعن النبي ﷺ قَالَ (**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**)[3] ، والمؤمن يفرح بالبشري ، فحالة الفرح تدفع المؤمن إلى الخير ، بخلاف حالة الحزن التي تؤدي إلى تثبيط العزيمة فيتكاسل عن العمل ، قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (يونس 63-64).

قال ابن القيم (لم يأت (الحزن) في القرآن إلا منهيا عنه كقوله تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا) أو منفيا مثل (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، وسر ذلك أن "الحزن"لا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره ويوقفه عن سلوكه ، وقد استعاذ منه النبي ﷺ "**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن**")[4].

قوله (..قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ ..) ابتدأوه بالسلام ، فالسلام سنة مؤكدة في الإسلام ، وخلق المسلمين ، وعادتهم ، ورد عليهم النبي السلام دون أن يعرفهم ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 150 رقم 3113

[2]) ملتقى أهل التفسير
https://mtafsir.net/threads//25229./المسافات-الزمنية-المطوية-في-قصة-إبراهيم-عليه-السلام

[3]) رواه البخاري ج1 ص122 رقم 67

[4]) مدارج السالكين ج1 ص 506

الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ (تُطْعِمُ الطَّعَامَ أنَ **تَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**)[1] ، قال النووي أى (تسلم على كل من لقيته عرفته أم لم تعرفه **ولا تخص به من تعرفه** كما يفعله كثيرون من الناس) .

مسألة في حكم السلام على الكافر

قال النووي (ثم إن هذا العموم مخصوص بالمسلمين فلا يسلم ابتداء على كافر)[2]، ولعله يقصد بذلك المحارب ، بدليل أن غيره من العلماء أجازوا إلقاء السلام على المسالم منهم استنادا لقوله تعالى (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة 8) ، **وأقل مراتب البر عدم ترويعته ، ويحصل ذلك بإلقاء السلام عليه** ، فيكون ذلك في دار الإسلام –خصوصا– من باب ترقيق قلبه وتأليفه للإسلام ، (وقد سئل عن ذلك سفيان بن عيينة فأجازه واستشهد بتلك الآية (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ..) .

ونقل نقل القرطبي عن الطبري أنه (روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب) ، وبضعهم تمسك بعموم الأمر بالسلام ، وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ قيل له في ذلك فقال: أمرنا أن نفشي السلام ، وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم)[3] .

وعن شعيب بن الحبحاب قال: كنت مع علي بن عبد الله البارقي، فمر علينا يهودي أو نصراني عليه كارة من طعام، فسلم عليه علي، فقال شعيب: فقلت: إنه يهودي أو نصراني! فقرأ علي آخر سورة الزخرف :﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾]الزخرف: 88، 89][4].

عَن عَلْقَمَةَ ، قَالَ : أَقْبَلْت مَعَ عَبْدِ اللهِ –بن مسعود– مِنَ السَّيْلَحين فَصَحِبَهُ دَهَّاقِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا الْكُوفَةَ أَخَذُوا فِي طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَرَآهُمْ قَدْ عَدَلُوا ، فَأَتْبَعَهُمَ السَّلاَمَ ، فَقُلْت : أَتُسَلِّمُ عَلَى هَؤُلاَءِ الْكُفَّارِ ، فَقَالَ : نَعَمْ إِنَّهُم صَحِبُونِي وَلِلصُّحْبَةِ حَقٌّ)[5].

ومن الفقهاء من قصر الجواز على رد السلام لا ابتداؤه ، واستند في الجواز على ما رواه البخاري عن بن عباس قال : ردوا السلام على من كان يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ذلك بأن الله يقول وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها[6]

(فهي مسألة مختلف في حكمها بين الفقهاء) [7]وقد ذكر ابن القيم الخلاف بشأنها في زاد المعاد ، ولذلك فلا إنكار على أحد سلم أو لم يسلم عليهم لأجل هذا الاختلاف ، فقد سئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك .

---

[1]) رواه البخاري ج1 ص 19 ص 11
[2]) شرح النووي على مسلم ج2 ج10
[3]) تفسير القرطبي ج11 ص 112
[4]) رواه ابن أبي شيبة في مصنفهج8 ص 468 رقم 26386 : قال الدكتور حاكم المطيري: إسناده صحيح.
[5]) رواه ابن أبي شيبة ج8 ص 467 رقم 26383 بسند صحيح على شرط الشيخين
[6]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 378 رقم 1107 وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ج1 ص 441
7) فقد اختلف العلماء في السلام على الكافر ابتداءً، وفي رد السلام عليه إن سلم هو، فأكثر العلماء من السلف والخلف على تحريم الابتداء ووجوب الرد عليه، فيقول في رده على سلام الكافر: وعليك أو عليكم. واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم : "لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه" رواه مسلم.
وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام وكذلك ردنا عليهم، وهو مذهب ابن عباس وأبي أمامة وابن محيريز وهو وجه عند الشافعية، لكن باللفظ المفرد كأن يقول: السلام عليك للواحد، والسلام عليكم للجماعة، بخلاف المسلم فإنه يسلم عليه بلفظ الجمع سواء كان مفرداً أو جماعة.

وقد علل المانعون من ابتداء السلام عليه ذلك بوجوب المصارحة لا المهانة في أمور العقيدة ، ومنهم المناوي بعدما نقل قول النووي فيها (وقيل بإجزائها في أصل الرد ، وإنما **امتنع السلام على الكافر لأنه لا سلامة له** ، إذ هو مخزي في الدنيا بالحرب والقتل والسبي وفي الآخرة بالعذاب الأبدي)[1] ما يعني أن القائلين بعدم جواز الابتداء بالسلام عليهم في دار الإسلام معنى دعوى ، فهو من قبيل إنكار المنكر عليهم ، وتعريفهم بحالهم إن بقوا على الكفر ، فإن ظلوا على الكفر ليس عليهم سلام الله ، وإن كانوا محاربين فليس عليهم سلام المسلمين ، وليس ذلك من باب العقوبة لهم أو تأديبهم ، بل على العكس من ذلك ، فإن **الصراحة مع الكافر وعدم التصنع له في أمور الاعتقاد** يعني إظهار الشفقة بهم ، وتوضيح أمور العقيدة لهم بجلاء ، لكن إن جاز لبعضهم تأليف قلوبهم والصفح عن مساليهم ،والبر لصحبتهم وجيرتهم كما كان يفعل بعض السلف تلك مثلما تقدم ذكره ، وكانت تلك هي غاياتهم من السلام ، فلا بأس .

قوله (..فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) أكرم ضيوفه بعجل سمين ، وهو لا يعرفهم ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ)**[2]، فالسلام هو القول الحسن ، ويستحب أن يلحقه إعطاء الهدية ، لم عنده فضل زاد ، لقول النبي ﷺ (تهادوا تحابوا)[3] ، فذلك أدعى لتحقيق المحبة بين الناس ، ومعلوم أن إطعام الطعام يؤلف القلوب بين الناس ، فكان مستحبا تقديمه للضيف وإن لم تعرفه ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ **تُطْعِمُ الطَّعَامَ** وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)[4] ، ذلك أن **المسلم يستشعر سعادة عند رؤية غيره سعيدا ، وتلك الحالة النفسية تظل مصاحبة له متى استقام على آداب الإسلام .**

والسؤال المطروح الآن ، لماذا جاءهم بعجل حنيذ ويكفيهم للضيافة أقل من ذلك بكثير ، فتكون الإجابة أنه نظر إلى حالهم وأنهم على سفر ، والمسافر يحتاج لأن يتزود ، فجاءهم بعجل سمين ، ليأكلوا منه ثم يتزودوا في سفرهم منه ، وهكذا يكون التضامن الاجتماعي في الإسلام .

قوله (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) (هود/70) قال ابن الجوزي (نكرهم وأنكرهم بمعنى واحد وأوجس أضمر حظرا أن يكونوا لصوصا)[5] ، قال القطان (الذّي لا يأكل الطعام من الضيوف يكون أمره مريباً ، ويُشعر بأنه ينوي خيانةً أو غدراً حسب تقاليد العرب)[6] ، ذلك أن من عادة العرب قبول الدعوة ، لكن الملائكة لا تأكل ولذلك امتنعت عن الطعام ، وهو لا يدري أنهم ملائكة .

وذهبت جماعة إلى أنه يجوز ابتداؤهم به للضرورة والحاجة، أو لسبب معتبر كمصلحة دينية مرجوة، وهو قول عكرمة والنخعي، وعن الأوزاعي أنه قال: إن سلمت فقد سلم الصالحون وإن تركت فقد ترك الصالحون .
والأظهر ـ والله أعلم ـ أن المسلم إذا كان في دار الإسلام فإنه يحرم عليه ابتداؤهم بالسلام لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام.." وغيرهم من الكفار من باب أولى، إلا إذا كان المسلم في دار الكفر بينهم فله أن يسلّم عليهم مبتدئا ورادّاً، مصانعة لهم ودفعاً للضرر الذي قد يحصل من ترك السلام عليهم
فتوى عبد السلام البسيوني – الأقصى 16 صفر 1422 ، 2001/5/10 ، انظر المفصل في أحكام الهجرة ج5 ص 168 للشيخ علي بن نايف الشحود

[1])فيض القدير ج1 ص 483
[2]) رواه البخاري ج18 ص 437 رقم 5559
[3]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 208 رقم 594 وصححه الألباني ج1 ص 235
[4]) رواه البخاري ج1 ص 19 ص 11
5) الامام ابي الفرج ابن الجوزي : تذكرة الأريب تفسير الغريب ج1 ص 251
[6]) تيسير التفسيرللقطان ج2 ص 228

فمن السنة تلبية الدعوة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ **(إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْوَلِيمَةِ فَلْيَأْتِهَا)**[1]، والمقصود هو تلبية الولائم التي تحض على صلة الأرحام لا تلك التي يقصد بها الرياء والتفاخر ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ **(شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى لَهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ)**[2] ، إذن لابد النظر إلى الدعوة إلى الوليمة فإن كانت بقصد التفاخر والتباهي ، فهي شر ، وإن كانت بقصد التحاب والتآلف في الله ، فهي خير .

وعليه تكون إجابة الدعوة من باب تأليف القلوب بين الناس ، وكسر الكبرياء بينهم والعلواء ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ **(لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ)**[3]، فكان من تواضعه ﷺ أن يقبل الكراع كهدية وإذا دعي إلى وليمة بها كراع أجاب ولم يرفض .

والكراع هو رجل الشاة أو البقرة ، وكانوا يحقرون من شأنه في الماضي ، لأنه ليس فيه لحم

قوله (قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ..) أجابت الملائكة علي ما كان يساور إبراهيم في نفسه دون أن يطرح عليهم سؤالا ، ولكنهم استشعاروا توجسه منهم خيفة ، وهكذا تكون لغة الجسد أقوى تعبيرا من اللسان .

فالخوف الفطري لا غبار عليه ، بينما الخوف الاعتقادي من غير الله شرك بالله ، والفرق بينهما كبير ، فالخوف الفطري (أو الطبيعي/الجِبِلّي) هو شعور غريزي يحدث نتيجة استجابة تلقائية من المخ لخطر متوقع ، ينتج عنه رد فعل الجهاز العصبي مما يؤدي إلى إفراز هرمونات تحفز الجسم لمواجهة هذا الخطر المحدق به ، مثلما خاف موسى من الحية التي تسعى ، فهذا الخوف ما هو إلا نوع من الأخذ بالأسباب الشرعية ، لكن لما أمره ربه بعدم الخوف وإمساكها بقوله (خذها ولا تخف) لما أدبر خوفا من الحية كان النهي عن الخوف يدل على معنى طلب إقباله)[4] ، فأخذها ولم يتردد طاعة وامتثالا لأمر ربه وتغلبا على خوفه الفطري بخوفه الاعتقادي من ربه الذي خلق الأسباب وأودع فيها فاعليتها وأضعفها وأبطلها ، أما الخوف الاعتقادي (خوف العبادة) فهو خوف قلبي مقترن بالتذلل والخضوع واعتقاد أن المخوف يضر أو ينفع بذاته دون أسباب ظاهرية ، ولا يجوز وصرفه لغير الله ، ذلك أن الأسباب وحدها لا تضر ولا تنفع ، فالنار سبب للإحراق ورغم ذلك لم تحرق نبي الله إبراهيم .

قوله (..قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ..) (هود 70) بيان لسبب وجومهم وأنه مرسلون للعذاب لا للرحمة ، وأنهم مرسلون خصوصا لقوم لوط ، ولذلك ألقي في قلبه خوفا منهم لما رآه من حالهم

---

[1]) رواه البخاري ج16 ص 163 رقم 4775
[2]) رواه البخاري ج16 ص 168 رقم 4779
[3]) رواه البخاري ج16 ص 170 رقم 4780
[4]) التحرير والتنوير ج20 ص 50

قوله (وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ..) (71) جاء ضحكها بعدما طمأنت الملائكة إبراهيم روعه بقولهم (لا تخف) ، فهذا هو حال الإنسان دائما أن ينتابه الضحك والسرور بعدما يزول عنه الروع والقلق ، قال تعالى (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) (النجم 43) ، فحالها قبل الضحك مثل حال إبراهيم الخوف والروع والترقب والوجس ، وسبحان الله انقلب الحال إلى النقيض تماما بعد قول الملائكة (لا تخف) ، وبينوا سبب تجهمهم أنهم مرسلون بالعذاب لقوم لوط ، فاستبشرت بذلك أن حال وقت هلاك القوم المجرمين .

وقد تعجبت من حالها قبل هذه البشرى ، فسرت لزوال الغم عنها والترقب والخوف ، فكان ضحكها لأجل التعجب من تغير الحال بين لحظة وأخرى ، قال الشنقيطي (كان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد)[1]، قال العلماء (وضحكها كان للتعجب بدلالة قوله (أتعجبين من أمر الله)[2] ، وقال الخازن (أنها ضحكت لزوال الخوف عنها)[3] .

وهكذا تأتي البشري بالسرور على المؤمن ، ولا يخفى عظم أجر من يفعل ذلك ، يقول النبي ﷺ (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحب الأعمال إلى الله تعالى **سرور تدخله على مسلم** أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا)[4].

قوله (..فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ) (هود/71) جاء هذه البشرى بعد الإخبار بهلاك قوم لوط ، وذلك لبيان أن أن الله تعالى لا يهلك قوما إلا وقد كان في قدره أن يستبدل قوما بآخرين ، **فلا يهلك الله القرى إلا ويستبدل خير منها** .

فصارت البشرى مركبة ، أي ليست بشرى واحدة ، فلم تبشر بولد وحسب ، وإنما بُشرت كذلك بأن اسحق سوف ينجب يعقوب فتكون من ذريته أنبياء ، وتستمر ذرية يعقوب ثم يوسف ومن بعده إلى موسى وداود وسليمان ثم عيسى هذا من فرع ، ومن فرع إسماعيل جاء النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء جميعا ، فما قطع الله شيئا إلا وصل بغيره ، قال ابن عطاء الله السكندري: "ومتى فتح لك باب الفهم في المنع، صار المنع عين العطاء"

قوله (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (هود/72) جاء توقيت البشرى في وقت **يئست فيه امرأة إبراهيم (سارة) أن تنجب ولدا ، وقد يئست من المحيض** ، الأمر الذي أثار استغرابها ، أتلد بعد كل هذه المدة وقد صارت عجوزا ، لا تلد ، أتلد وزوجها صار شيخا كبيرا ، **فالأسباب العلمية والطبية لحصول الحمل منعدمة** ، ولكن لله قدرة على تفعيل الأسباب الضعيفة وخلق أسباب فاعلة تحل محل الأسباب المنعدمة ، ولله الحكمة في ذلك .

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 296
2) أبو القاسم الحسين بن محمد : المفردات في غريب القرآن ج1 ص 292
[3]) تفسير الخازن ج3 ص 466 وذكر البغوي قال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقال مقاتل والكلبي : ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة في بيته وهو فيما بين خدمه وحشمه، وقيل: ضحكت سرورًا بالبشارة مختصر تفسير البغوي ج4 ص 77 المؤلف : عبد الله بن أحمد بن علي الزيد
4) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج12 ص 453 رقم 13680 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1 ص 154

وجاء عجبها بعدما ازداد شوقها للولد ، سيما أن (هاجر) أنجبت من نبي الله من إبراهيم ابنه "إسماعيل" والذي من ذريته جاء رسول الله ﷺ ، فجاءت البشرى لسارة حتى تعلم أن الله صدقها في نيتها لله خيرا ، فرزق الله تعالى آت آت ، ولا يعلم أحد متى سوف يأتي إلا الله .

قال ابن حجر أخرج الطبري من طريق السدي قال (انطلق إبراهيم من بلاد قومه قبل الشام فلقى سارة وهي بنت ملك حران فآمنت به فتزوجها فلما قدم مصر وهبها الجبار هاجر ووهبتها له سارة **وكانت سارة منعت الولد وكان إبراهيم قد دعا الله أن يهب له ولدا من الصالحين فأخرت الدعوة حتى كبر** ، فلما علمت سارة أن إبراهيم وقع على هاجر حزنت على ما فاتها من الولد ثم ذكر قصة مجيء الملائكة بسبب إهلاك قوم لوط وتبشيرهم إبراهيم بإسحاق فلذلك قال إبراهيم الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ويقال لم يكن بينهما إلا ثلاث سنين وقيل كان بينهما أربع عشرة سنة)[1].

قوله (قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ..) (73) حيث عجبت من أن الله يخلق الله منها ولدا ، وقد تمنت الولد زمنا ،ولم يقدر لها ذلك ، واليوم بعد أن كبرت يجيب الله دعوتها ويرزقها الولد ، فكم تمنت المرأة في شبابها الولد لتربيه وتهتم به ، فلما كبرت في السن وأصبحت عاقر لا تنجب تأتيها البشرى بالولد ، فكيف تهتم به وهي بحاجة لمن يهتم بها ويرعاها ؟ فحسبان الله الذي قدر المقادير على هذا النحو لحكمة هو يعلمها ، فالمستقبل بيد الله وحده ، والإنسان لا يكلف إلا بما يستطيع ، فليس عليها أن تحمل هَمَّ المستقبل ، وهَمَّ وليدها ورضيعها ، (**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا**) (النساء 9) .

قوله (رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) (هود 73) فلا ييأس العبد من رحمة الله أن تصله ، ولا بركته أن تفيض عليه ، طالما سأله فلابد وأن يستجيب ، قال النبي ﷺ (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل) ، فإعطاء سارة الولد من رحمة الله التي أنزلها عليها ، ومن بركته أن جعلها تحمل في هذا السن ، قال ابن عاشور (فأهل بيت النبوة أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندهم)[2] .

وعلى وجه العموم فإن الرحمة والبركة التي يعم الله بها المؤمنين الموحدين بوجه عام ، قال سبحانه (**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**) (الأحزاب/43) ، والبركة عم الله بها المتبعين لسنة نبيه ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيَّتِهِنَّ الْبَرَكَةُ)[3] .

قوله (..إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) (هود/73) قال ابن عاشور (تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأن الله يحمد من يطيعه، وبأنه مجيد، أي عظيم الشأن لا حد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدا، وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم – عليه وآله)[4]

---

[1]) فتح الباري ج12 ص 379
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 298
[3]) رواه مسلم ج10 ص 332 رقم 3796
[4]) التحرير والتنوير ج11 ص 298

وقد خص الله الرحمة والبركة –هنا– بأهل البيت ، لمعنى خاص ، حيث تظل الرحمة والبركة في آل البيت إلى يوم القيامة ،وقد سن النبي ﷺ الصلاة الإبراهيمية في التشهد في كل صلاة ،كدليل على هذه الرحمة والبركة عليهم ، فعن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ فَقَالَ أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً سَمِعْتُهَا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ بَلَى فَأَهْدِهَا لِي فَقَالَ سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ قَالَ **قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**)[1] .

قوله (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) (هود/74) فلما اطمأن لهم وجه إليهم سؤالا ، كما في قوله تعالى (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) (الذاريات/31-34) ، **ولم يأت في سورة هود ذكر لهذه الحكاية** ، ولعل سبب حكاية القصة بهذه الطريقة في سورة هود الاهتمام بالأمر الذي جاءوا منه أجله ، والذي لأجله **جادلهم** نبي الله ابراهيم ، وهو إهلاك قوم لوط ، وقد جاء التلطيف بالبشري حال الإخبار به ، في حين أن المقصود في سورة الذاريات هو استظهار البشرى ذاتها ، وهو ما يتماشى مع سياق السورة والتي تتحدث عن الرزق ، وإنما جاء الإخبار بالعذاب في ثنايا الحديث عن البشرى لمن كذب بهذا الرزق ، وبحث عن الحرام لتلبية شهوته .

فكانت مجادلته لأجل نبي الله لوط ، قال تعالى (قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ **قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ**)[العنكبوت/31، 32] ، بيد أن المجادلة هنا تطرقت إلى قوم لوط ، ولعله يقصد الصالحون في قوم لوط ، ولم يكونوا مصلحين .

ويشهد لذلك ما سألت عنه زوج رسول الله ﷺ ، فعن زَيْنَبُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ** قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[2]، أي إذا لم يستطع الصالحون أن ينكروا على أهل الخبث خبثهم فكثر الخبث ، ولم يؤثر صلاحهم في ردعهم عنه أو الحد منه أو تقليله ، جاز أن يهلكوا جميعا ، قال تعالى (**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**) (هود/117)، فلم يعتد بصلاحهم وإنما بمحاولة إصلاحهم .

قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ) (هود/75) ذلك أن الأنبياء **يعملون بالإرادة الشرعية** لله تعالى ، **ويسلمون للإرادة الكونية لله** ، فالإرادة الشرعية معلومة بما ورد عن الوحي ، أما الإرادة الكونية فلا تُعرف إلا حالما تقع وتحصل ، ولا يبقى غير التسليم لله بها ، إيمانا بقضاءه وقدره ، فالنبي في إطار علمه ووظيفته الشرعية يرجو تأخير العذاب عن قوم لوط لعلهم يتوبون ويسلمون ، لكنه لما علم أن قضاء الله نافذ كونا أعرض عما كان يتمناه وسلم تسليما لقضاء الله وقدره .

من هنا جاز (وصفه ﷺ بثلاثة أوصاف :–

[1]) رواه البخاري ج11 ص 156 رقم 3119
[2]) رواه البخاري ج11 ص 432 رقم 3331

الأول : بأنه "حليم" أي صبور على أذى قومه ، يصفح عن جنايتهم ، ويقابلها بالإحسان
والثاني : أنه "أواه" أي كثير الدعاء والتأوه والتضرع
والثالث : أنه "منيب" أي سريع الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار وإلى كل ما يحبه الله ويرضاه) [1]

إذن كان جدل إبراهيم في إطار العمل بالإرادة الشرعية للمولى سبحانه ، قال الرازي (ولو كان هذا "الجدل" من الذنوب لما ذكر عقيبه ما يدل على المدح العظيم)[2]، أي أن الله مدحه بوصفه "أواه" ، "منيب" وهما صفتان محمودتان ، أي أنه "أواه" بما يعني أنه يطيع الله تعالى بخشوع حتى التأوه في الدعاء والإلحاح على الله ، وأنه "منيب" أي يعود إلى الله وينيب إليه ، ويسترجع بقوله لا حول ولا قوة إلا بالله .

قوله (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) (هود/76) والمقصود نهيه عن السبب الذي حمله على المجادلة وهو (رقة قلبه وفرط ترحمه)[3]، فقد أخبره الله بأن أمر الله الكوني قد نفذ ، ولا وجه لاستكمال العمل الدعوي ، فهو **يعلم ما لا يعلمه** ، مثلما كان يعلم سبحانه أن ابن نوح ليس صالحا ، وكان نوح يظن فيه خيرا ، لكن الله عاتبه أن استمر في المجادلة فيما لا يعلمه ، قال سبحانه (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود/46).

فتلك صورة أخرى من صور الاستقامة على الصراط المستقيم ، وأنه لا سبيل للمجادلة فيما قدره الله وأمره به ، وكان قدر الله أمرا مقدورا ، فلا راد لحكمه ولا مانع لقضائه إذا نزل ، يقول ابن عطية (هذه الآية تقتضي أن الدعاء إنما هو أن **يوفق اللهُ الداعيَّ إلى طلب المقدور** ، فأما **الدعاء في طلب غير المقدور فغير مجد ولا نافع**)[4].

[1]) تفسير الوسيط لطنطاوي ج1 ص 2235
[2]) تفسير الرازي ج8 ص 443
[3]) البحر المديد ج3 ص 62
[4]) المحرر الوجيز ج3 ص 449

المحور السادس

استقامة لوط على إنكار المنكر –حال الضعف– تكللت بالفرج

قال تعالى (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (78) قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (82) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (83)

سجل القرآن في هذا المقطع أروع مثال في الاستقامة على **إنكار المنكر في ظل استفحاله وبشاعته وعلانيته** ، وفي الوقت الذي يعجز أهل الإصلاح عن مواجهة أهل المنكر وصدهم عن منكرهم حتى حاق المنكر بمن حولهم وبضيوفهم ، فاستشعروا الحرج والخزي أن يصيبهم مكروه وهم في ضيافتهم ، ولا يملكون من أسباب القوة المادية شيء ليذودوا عن ضيوفهم ، وإنما ينكرون المنكر بالقول تارة وبالقلب تارة أخرى ، ولا يستطيعون أكثر من ذلك

وما أروع **تذكير لوط قومه بمنهج الإسلام في تصريف الشهوة** ، وأنه منهج معتدل يحقق **الغرض من الاستخلاف في الأرض** ويحفظ للشهوة طبعها المحمود في إطار عقد زواج شرعي يتفق مع الفطرة ولا يصطدم بها ، ولكن قومه ألفوا سعار الشهوة غير المنضبطة وغير الموظفة لعمارة الكون ، فكلما انساقوا وراءها ازدادوا سعارا ، **وهنا اعتذر نبي الله لوط واعتذر المؤمنون معه إلى الله ضعفهم وقلة حيلتهم** ، وكأن حال لسان أهل الإصلاح يقول :–

اللهم إليك **أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس** أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو ينزل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك

فسمع الله دعاء أهل الإصلاح وأمر ملائكته لتقلب قرى المجرمين رأسا على عقب ونجي المؤمنين الذين يستمسكون بالحق ويستقيمون على الصراط المستقيم

ولكن وقبل أن تحصل هذه الاستجابة بقي عمل بسيط لابد وأن يقوم لوط والذين آمنوا به جميعا ، وهو **الحركة لأجل هذه الدعوة** ، بأن يسير بالمؤمنين بالليل ويصبر حتى يأتي قبيل الصبح ، وقد أخبرته الملائكة بأن زوجته ليست ضمن الناجين لأنها لم تكن يوما ضمن طائفة المصلحين المنكرين للمنكر حتى ينجيها الله من نقمته وعذابه الذي سوف يحيق بالظالمين .

وهنا لابد وأن نفهم أن المشروع الإصلاحي لابد لنجاحه من عمل ، وهؤلاء المصلحين عجزوا عن مقارعة الباطل بالقوة ، **فكانت الحركة التي أمروا بها هي دليل على أنهم لم يقصروا في التماس أسباب القوة** ، ولذلك لما أمرهم الله بتلك الحركة لم يتوانوا عنها وانطلقوا حيث أمرهم الله ، لتحصل المعجزة ،وينتصر الحق ويزهق الباطل ، فتنزل حجارة معلمة بأسماء المجرمين لترجمهم واحدا واحدا ، فلا يفلت منهم أحد .

قوله (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (هود 77) التفات عن قصة إبراهيم مع الملائكة لاستكمال قصة الملائكة من جانب نبي الله لوط ، فقد جاءته الملائكة ، ولم يعرفهم أول الأمر ، وظن أنهم بشر ، وهو يعلم أن قومه متلبسون بفاحشة اللواط ، فخاف عدوان قومه عليهم لما قدموا عليه ، وهاله أن يخزلهم وليس به قوة أن يدفع الشر عنهم ، ولذلك سيء من رؤية الضيوف قادمين عليه ، وضاق بهم ذرعا ، لأنه لا يملك نصرتهم والذود عنهم ، في ذلك دليل عظيم على أن المؤمن يقع عليه واجب حماية ضيوفه ، ومن يدخل في جواره ، وبقدر حماه تكون دولته ، ويوسع الله على من يشاء من عباده دولتهم ، فدولتك حيث تستطيع أن تطبق أحكام الله .

ونبي الله لوط لم تكن له دولة ، فأقل قريته قادرون على أن يدخلوا بيته ، ويفعلوا الفاحشة في ضيوفه ، ولذلك أصابه غم كبير ، فقال هذا يوم عصيب ، قال الواحدي (ولما علم قومه بمجيء قومٍ حسانِ الوجوه أضيافاً للوط قصدوا داره ، وذلك قوله (وجاء قومه يهرعون إليه) أَيْ : يُسرعون إليه "ومن قبل" أَيْ : ومِنْ قبل مجيئهم إلى لوطٍ (كانوا يعملون السيئات) يعني : فعلهم المنكر)[1].

وقوله (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (هود 77) قال هذا القول ليُحَمِّل نفسه مسئولية أداء واجب إنكار المنكر في ذلك الوقت ، وهم في شدة الضعف ، فليس أهم الآن من أن يذود عن ضيوفه الخطر ، وليس له أن يخذلهم ، ولا أن يعجز في دفع الخطر المحدق بهم ، ولذلك **تأهب لذلك الخطر** ، **وحمس نفسه بهذا القول** ، واستعد للمواجهة مستعينا بالله حتى لا يقع ، مع قلة حيلته ، وشدة سعارهم وفجورهم .

قال العلماء ولا تعارض بين هذا القول وحديث رسول الله ﷺ (**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ**)[2] ، يعني هو الذي قدر ما قدر في ذلك الزمان ، كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ **يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**)[3]، ذلك أنه لم يُرد أن يسب هذا اليوم ويقدح فيه ، فليس لنبي أن يسخط قدر الله ، **ولكنه أراد أن يخبر** بأنه يوم شديد عليه ، إذ **لا طاقة له علي محاربتهم ودفع الشر عن ضيوفه** ، **ولكنه سوف يفعل ما يقدر** مستعينا بالله عليهم رغم ضعفه ، قال العثيمين (يجب الفرق بين الإنشاء والقدح والذم وبين مجرد الخبر، وهذا حسب نية الإنسان)[4]، وهو المستبان من قوله ﷺ (**لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر**)[5]، أي بقصد الشكوى ، والاعتراض على قدر الله وقضائه .

---

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 348
[2]) رواه مسلم ج11 ص 313 رقم 4169
[3]) رواه البخاري ج19 ص 161 رقم 5713
[4]) العثيمين : لقاء الباب المفتوح ج39 ص 14 دروس صوتية فرغها موقع الشبكة الإسلامية
[5]) رواه البخاري ج1 ص 269 رقم 769

قوله (وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...) (هود/78) **تصوير لمدى غلواء الشهوة وسعارها وشذوذ الفطرة وانتكاستها** عندما رأى قومه الضيوف ، وتوصيف لحالهم أنهم كانوا متلبسين بها قبل مجيئهم ، ما يبين أنهم لا يكادون ينتهون عنها أبدا ، بل أرادوا أن يستكملوا في الفاحشة من غير انقطاع ودون استراحة ، ما يؤكد أن هؤلاء خطر داهم على البشرية ولابد وأن ينزل بهم عذاب الله لاستئصالهم .

قوله (.. قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ..) (هود/78) من فطنة لوط عليه السلام أنه لم **يواجه الشهوة المستعرة بالصد أو الكبت ، بل أشار إلى مصرفها الطبيعي كما خلق الله** ، وهو الزواج من البنات ، فذكرهم بالزواج من البنات اللاتي هن في عمر بناته ، وقد نسب البنات له لأنه وليهن جميعا ، فهن نسوة لا رجال يقومون عليهن ، وقد فسد رجالهن ، فلسن لهن ولي يرعاهن بانشغال الرجال بفعل اللوطية ، فكان نبي الله لوط هو ولي من لا ولي له ، بعدما فقد أهلهن الاعتبار والثقة ، وسقطت الولاية لهم عليهن ، لسوء الخلق .

وهكذا لم يوجد في شرع الله شيئا إلا ويحض على الطهارة والنقاء ، كما قال رسول الله ﷺ **(قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)** [1]، فالزواج الشرعي مكتمل الأركان طهر ولا شك ، ولذلك قال نبي الله لوط "هن أطهر لكم" ، أي إتيان الشهوة وتصريفها في مصارفها الشرعية أطهر من تصريفها في غير ذلك ، (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ، فعلام تصريفها فيما حرم الله ، والفرصة في الشعور النقي والطاهر باللذة أحله الله في إطار الزواج الصحيح ، قال رسول الله ﷺ **(وَفِي بُضْعِ – أي المني – أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ** قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا)[2] ، ما يعني أن **الإسلام لا يضيق مجاري الشهوة** ، بل يجعلها تجري في مصارفها الطبيعية بما يحقق الغرض من الاستخلاف في الأرض .

وعند عقد المقارنة بين الزواج الشرعي من حيث مزاياه وأعبائه وتكاليفه مع غيره من وسائل تصريف الشهوة المحرمة ، نجد أن المحصلة تميل بقوة إلى الزواج الشرعي الذي يتميز عنها بالطهارة ، قال أحد المتأملين في حكمة الزواج (خلق الله لهذه الشهوة قوة ، فالإِنْسَان مسوق إلى التناسل رغم أنفه ومسخر على احتمال كُلّ ما يترتب عَلَيْهِ من النصب ومَعَ ذَلِكَ فهو راضٍ كُلّ الرِّضَا ، وَكَذَلِكَ المرأة لولا ما جعل الله فها من هذه الشهوة القوية ما كانت تستطيع حمل عبء الولادة والحمل ومشاق تربية الأولاد وهم صغار والسهر في الليالي والقيام على حراستهم ودفع الأضرار المكروهة عنهم وهم أطفال صغار واحتمال ما يعتريهم من الآلام وعدم الرَّاحَة.

وأيضًا فإن الله قَدْ خلق النساء على حالةٍ من الضعف لا يقدرن معها على احتمال تكاليف الحياة ومشاق الجهاد في معتركها ، فسخر الله لهن الرِّجَال يحملون عنهن كُلّ ما يعجزن عن احتماله في سبيل حياتهن بدافع هذه الشهوة القوية التي أودعها العزيز الحكيم جَلَّ وَعَلا ، ولولاها –الشهوة– لما كَانَ للنساء هَذَا السُّلْطَان على النُّفُوس .

---

[1]) رواه الحاكم في المستدرك ج1 ص 175 رقم 331

[2]) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674

وإذا علمت أن شهوة الفرج لها تلك القوة والتأثير ، علمت كذلك أنها ما خلقت إلا لحكمة أرادها الله ، فاعْلَمْ أن العقل مسئول عن تصريف هذه الشهوة والوقوف معها عَنْدَ الحد الَّذِي خلقت من أجله ، ولا يتركها تهيج بالوسائل المختلفة بل يجب عَلَيْهِ أن يبتعد عن كُلّ الأسباب التي تحركها وتبعثها إلى ما هُوَ ممنوع شرعًا)[1] .

قوله (..فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) (هود/78) لم يملك نبي الله لوط عليه السلام من الأمر شيئا إلا أن ذكرهم بتقوى الله الذي شرع لهم الزواج ، فيلتمسوا طريق الفطرة السليمة ، و**استرجاهم ألا يلحقه الخزي والعار من فضيحتهم** ، **وشناعة فعلتهم** ، فأظهر خشيته من عدوانهم على ضيوفه ، والتمس منهم أن يكفوا عدوانهم عليهم ، ويلتزموا مكارم الأخلاق التي هي معروفة في كل ملة .

وهو موقف شديد الحرج على نبي الله لوط ، ويدل على شدة هوانه وضعفه في طريقة دفع خطرهم الوشيك ، فلا يصل إلى هذا الحال من **الاسترجاء والاستعطاف من اللوطيين** الذين هم أجرم خلق الله إلا من كان في ضعف شديد ، ولكنه بصلته بالله قد آوى إلى ركن شديد **وإن انقطعت عنه أسباب الاستقواء** وإنكر المنكر ، **لكنه لم يستسلم** واستقام على كلمة الحق ، وجاهدهم بالكلة ، وهو في هذا الحال من الضعف والهوان .

قوله (.. أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) (هود/78) التمس أن يجد فيهم رجلا رشيدا ، لعله يعزز موقفه وينهاهم معه عن ذلك ، لكنه لم يجد من يجرؤ على ذلك ، فالظاهر من السياق أن **القلة المؤمنة لم تملك حتى حيلة لدفع هؤلاء اللوطيين** عن ضيوف نبيهم ، فرغم إيمانهم به ، إلا أن قدرتهم على الإصلاح لا تتعدى إنكار المنكر بالقلب ، وقد استطاع نبي الله لوط أن ينكر المنكر بالقول .

فمن **أضعف حالات إنكار المنكر أن يستنصر المؤمن بعدوه ، فيستنصر بمروأته أو** رشده ، ولا غرو في ذلك متى انتهكت حقوق الإنسان وأضحى المستضعفين تنتهك كل حقوقهم ولا ناصر لهم ، فلعل يأتي من بني الإنسان من لم يزل عنده نخوة فيدافع عن الحق رغم أنه لا ينتمي لأهل الحق ، كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا بِلَالُ قُمْ فَأَذِّنْ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، **وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**)[2].

والحقيقة أنه لا يستنصر بهم بقدر ما يكون غرض سؤاله التوبيخ والإنكار عليهم ، ولعله يقصد من تلك المناشدة –كذلك – **تقسيم مطالب أعدائه حتى تكون المنعة منه ذاته** ، فينشغلون بأنفسهم ، ويقل الضرر علي ضيوفه ، وقد حصل مثل ذلك في شأن أخوة يوسف لما هموا بقتله ، قال تعالى (قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) (يوسف/10) ، وكذلك حصل مثل ذلك في قصة امرأة فرعون لما وجدت موسى في اليم وهو رضيع ، قال تعالى (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (القصص/9) .

---

[1]) عبد العزيز بن محمد عبد المحسن السلمان : موارد الظمآن لدروس الزمان ج5 ص 93 عضو في ملتقى أهل الحديث : المتوفي 1422 هـ
وقد ذكر الغزالي في إحياء علوم الدين فوائد من هذا القبيل وقرأتها منذ زمن ، ولكنني وجدت كلام الشيخ عبد العزيز يعدلها فاكتفيت بكلامه اختصارا للوقت

[2]) رواه البخاري ج20 ص 273 رقم 6116

وهكذا أراد نبي الله لوط أن **يلتمس منعة من أي عاقل منهم** ، ليكون عونا له عليهم ، قال ابن عاشور (وهذا **إغراء لهم على التعقل** ليظهر فيهم من يتفطن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم، فإن **ظهور الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم ، وبالعكس تمالؤهم على الباطل يزيدهم ضراوة به**)[1].

قوله (قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ..) (هود/79) والمعنى (ما لنا في بناتك رغبة)[2]، وهو ما يؤسف عليه ، أن تنطفي الشهوة التي أحلها الله ، وتستعر الشهوة المحرمة في المقابل ، وهذا من شؤم المعصية ، فما من شهوة محرمة إلا وبسببها ينطفئ التلذذ بالنعمة التي أحلها الله تعالى ، تماما مثل شارب الخمر ، فإنه إذا أدمنه لم يشرب اللبن والعسل إلا نادرا ، تماما مثل الخنزير يأكل الروث والفضلات والقاذورات ويرغب عن المراعي الخضراء .

وقولهم (وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) (هود/79) فيه شيء من التأدب مع هذا الشيخ الكبير وعدم التصريح بمطلبهم أمامه رغم جراءتهم على ضيوفه ، وفي ذلك فائدة وهي الحرص على أن **يظل الحاجز الأدبي قائما بينه وبين عدوه حتى في أحلك الظروف** وأحرجها .

ويشهد لهذا المعنى ما روي عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ أُنَاسٌ مِنْ الْيَهُودِ فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ)[3]، فالشاهد من الحديث أنهم كانوا يلقبونه بكنيته رغم تمنيهم موته ، وقد بدا ذلك من أفواههم ، لأن (السام) يعني الموت ، فتجدهم يحرفون السلام لمعنى آخر بقصد الدعاء عليه بالخلاص منه ، ولكنهم ورغم ذلك يظهرون له احترامهم ، بمناداته بكُنْيته ، أي اللقب الذي اشتهر به .

قوله (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً..) (هود/80) هنا يلتمس النبي من الأسباب الشرعية ما يجعله قادرًا على مواجهة خيانة قومه ، وإنكار منكرهم ، وجهادهم ، ودفع صولتهم ، فكنى بالقوة عن الأهل والعشيرة ، ولذلك قيل (.. إنما أراد العدة من الرجال ، وإلا فله ركن وثيق مع معونة الله ونصرته ، فضمنت الآية بيان عما يوجبه حال المحق إذا رأى منكرًا ولا يمكنه إزالته ، فيتحسر بقلبه على أنه ليس معه قوة أو معين على دفع المنكر ، ما يدل على حرصه على طاعة ربه ، وجزعه من معصيته ، فامتنع من إنكار المنكر بالقوة لامتناع من يعينه على ذلك)[4]، وهذا من أقوى الأدلة على الاستقامة على إنكار المنكر بالقلب في شدة الضعف والتحسر على ذلك .

---

[1]) التحرير والتنوير ج11 ص 303
[2]) وهو ما عليه جمهور المفسرين : التحرير والتنوير ج11 ص 304 ، التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزي ج1 ص710 ،
[3]) رواه مسلم ج11 ص 133 رقم 4028
[4]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج10 ص 293 مع كثير من التصرف

والمقصود أنه لم يكن معه أحد ينصره من أهل قرابته قال رسول الله ﷺ (ورحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال لقومه لو إن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد **ما إن بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه)** ("الثروة" الكثرة والمنعة)[1] ، ونحن نعلم من سيرة رسول الله ﷺ أن عمه أبو طالب كان يمنع القوم عنه ، ما يعني أن نبي الله لوط لم يكن له قرابة وأهل ينصرونه ، بينما غيره من الأنبياء الذين جاؤوا بعده كان لهم عصمة من الأنبياء ، قال الطحاوي (فدل ذلك أن قول لوط هذا كان لأنه لم يكن في ثروة من قومه يكونون له ركنا يأوي إليهم)[2]

قوله (.. أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) (هود/80) أي أنه لم **يجد غير ركن الله تعالى ، فيأوي إليه وهو يعلم أنه ركن شديد** ، بما يستدل منه على انقطاع الأسباب إلا الدعاء ، أي أنه ليس عليه أن يأخذ بالأسباب ، فليس عليه تكليف شرعي لصد قومهم بعدما استفرغ وسائل الإنكار اللسان ، غير أن يتوجه بالدعاء لله .

فعن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (يَغْفِرُ اللَّهُ لِلُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)[3]، قال النووي (**المراد بالركن الشديد هو الله** سبحانه وتعالى)[4] ، قال المناوي (أي أشد أي أعظم وهو الله تعالى) ،وقال البيضاوي : (لا ركن أشد من الركن الذي كان يأوى إليه وهو عصمة الله وحفظه)[5] .

فقوله هذا يدل على أنه قد انقطعت عنه الأسباب ، ولم يبق غير جناب الله ليأوي إليه ، قال أبو حيان (كنى به عن جناب الله تعالى)[6]، فمن آداب التوكل على الله ومن آداب الدعاء ، الفراغ من الأسباب ، ليكون الدعاء بعدها هو عين التوكل وليس التواكل .

قوله (قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ) (هود/81) بشرت الملائكة نبي الله لوط بالفرج القريب ، وأخبرته بأنه في منعة منهم ، ما يعني تفريج همه بأنهم لن يصلوا إلى ضيوفه ولن يمسوهم سوء ، وهو ما يعني كذلك أن ما ألم به من عسر وإن طال زمنه فقد صاحبه اليسر ، وهو لا يدري ، فالذين جاءوا لنجدتهم ظن أنهم هم المجني عليهم ، فجاء أمر الله وحان وقت الفرج .

قوله (..فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) اشترطوا عليه استمرار الحذر والابتعاد من عدوه ، فالأخذ بالأسباب عبادة ووسيلة إصلاح شرعية حتى عند قرب ظهور المعجزة ، وقد أوشك عذاب الله ينزل عليهم ، ما يعني أن وجوب الأخذ بالأسباب حتى آخر لحظة ، **فأمروه بأن يسير بالليل حتى لا يتبعهم أحد** ، وهو عين ما أمر الله به نبيه موسى لما أمره بأن يضرب بعصاه البحر فانشق ، فالمعجزة وإن كانت ستحصل فإنها تحصل بجهد أهل الصلاح أنفسهم ، وذلك بالتماس أسباب النصر والإصلاح ، ولو شاء الله أن يشق البحر بغير أن يضرب بعصاه لفعل .

---

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 212 رقم 605 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج 1ص 238رقم 605/473
[2]) الطحاوي : بيان مشكل الآثار ج1 ص 173
[3]) رواه البخاري ج11 ص 166 رقم 3124
[4]) شرح النووي على مسلم ج2 ص 184
[5]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 58
[6]) البحر المحيط ج6 ص 445

قوله (..وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) (هود/81) تلك هي النصيحة التي أسدوها إليه ، بأن يعتزل قومه بالليل غير آبه ما سوف يصيبهم من العذاب ، فلا يلتفت إليهم مرة أخرى مهما سمع من أصواتهم وصرخاتهم .

وأخبروه بأنه سوف يفقد في الطريق امرأته فلا يلتفت لصراخها ، لأنها لم تكن من أهله ، فأهل الدعوة هم أهل الحق الذين ينكرون المنكر ولو بالقلب ، ولم تكن هي منهم ، **فمن لم يكن من أهل الإصلاح وصف بالخيانة** ، وإن كان صالحا ، لأن الصلاح لا يكون حقا إلا لأهل الإصلاح ، واستقام على إرادة الاصلاح ما استطاع في ظل أحلك الظروف وأشد لحظات الاستضعاف ، قال سبحانه (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ **فَخَانَتَاهُمَا** فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) (التحريم/10) .

قوله (..إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) تضمنت البشرى تحديد موعد وقوع هذا العذاب بالقوم المسرفين ، بأنه وقت الصبح ، ليكون لهم وقت يراجعوا فيه أنفسهم بعدما طمس الله أعينهم عن ضيوفه ، لعلهم يتوبون .

وترتب على ذلك أن على نبي الله لوط ظل صابرا محتسبا حتى جاء موعد إهلاكهم في الصبح ، **فالنصر لابد معه من صبر ، وهو وإن صبر زمنا طويلا ، إلا أن صبره حتى الصبح هذه المرة أطول من ذي قبل** ، وذلك ليعلم المؤمن أنه ليس هو الذي يختار وقت النصر ، وإنما يأتيه الله به ، وليس عليه سوى التماس أسبابه حتى يبشره الله به ، قال تعالى (**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**) (غافر/51) .

قوله (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) (هود/82) المنضود المتتابع بقوة لا سبيل للنجاة منه ، فالقصف المتتابع يدك القرى دكا ، فيجعل أعلاها أسفلها ، وتصير بيوتهم درما ، فهذا التعبير كناية عن التدمير الشامل ، فعن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**)[1].

قوله (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) (هود/83) مسومة يعني معلمة ، مكتوب على كل حجر اسم من يصيبه ، قال الواحدي (**مَعلَّمة على كلِّ حجرٍ منها اسم مَنْ يهلك به**)[2] ،فلا يفلت منهم أحد أي أن هذا العذاب ليس عام وحسب، فهو وإن كان في ظاهره عام ، إلا أنه خاص بأسماء مستحقيه فردا فردا .

[1]) رواه ابن ماجة ج7 ص 462 رقم 2551 وصححه الألباني ج7 ص 462 رقم 2551
[2]) الوجيز للواحدي ج1 ص 934

المحور السابع

استقامة شعيب على إصلاح الفساد التجاري حتى جاء وقت المفاصلة عندما هددوه بالرجم

قال تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (84) وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (86) قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

من اللافت للنظر في هذا المقطع أن دعوة نبي الله شعيب الإصلاحية تقدمها كالعادة الأمر بعبادة الله والشفقة على قومه وخوفه من أن يصيبهم عذاب الله ، لكن هنا بعض التفصيل ، وهو نهيه لهم نقص المكيال والميزان ، أي نهاهم عن الغش التجاري ، وهو أمر لافت للنظر حقا ، لأنه الترجمة الحقيقية لقول لا إله إلا الله ، فالمسلمون معروفون بجملة آداب معينة منها أنهم لا يغشون في التجارة ، هكذا عرف المسلمون الأوائل ، ولابد أن يعرفوا بذلك ، حتى **فتح التجار المسلمون بلدان شرق أسيا عبر التجار** والدعاة والملاحين المسلمين القادمين من العرب والفرس والهند والصين، دون حروب أو فتوحات عسكرية .

فقد ظهرت أولى طلائع الوجود الإسلامي في القرن التاسع الميلادي في شمال سومطرة (منطقة آتشيه) ، وانتشر الإسلام بشكل واسع وتأسست الممالك والسلطنات الإسلامية الأولى في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين؛ مثل مملكة بيرلاك (سُجلت كإسلامية عام 1292م) وسلطنة ملقا التي اعتنق حاكمها الإسلام رسمياً عام 1414 [1].

وهكذا نهاهم عن الفساد ، والله لا يحب الفساد ، فقال لهم (وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ، فاستبان بذلك أن المصلح ضد المفسد ، وأن الإصلاح ضد الإفساد ، **فالمسلم يسير على صراط مستقيم** ولا يبالي بمن اعوج عنه ، أما الذي يبتغي أن يعيش الحياة عوجا ، فإنه لا يلتزم بمنهج الإسلام ، وقد استبان أن نبي الله شعيب قد نهاهم عن الفساد ، وأمرهم بأن يعدلوا في الميزان التجاري ، فذلك خير لهم من حيث الربح ، ذلك أن التجارة تقوم في الأساس على

[1]) مسلمو آسيا ثقافة واندماج : بوابة الأزهر ، https://azhar.eg/observer/details/ArtMID/1142/ArticleID/8818

الصدق والأمانة والشرف ، والتاجر الأمين هو الذي تروج تجارته ، أما التجار الذين يغشون لابد وأن تبور تجارتهم لعزوف الناس عنهم ، والتفافهم حول الأمين .

فلما وجد قوم شعيب أن نبيهم يستطرد في بيان أسباب منهجه الإصلاحي للاقتصاد والتجارة والنابع من منهجه الدعوي لإصلاح العقيدة ذاتها ناقشوه مستنكرين عليه إقحام الدين في التجارة والاقتصاد فقَالُواْ (يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (87) ، وهكذا نجد **الفكر العلماني الذي يريد أن يحصر الدين في دائرة المسجد ويقصيه عن دوائر الحياة كلها** بكل مجالاتها الاقتصاد والتجارة والسياسة والعسكرية والتعليم والفن والإعلام .....الخ ، هذا الفكر كان موجودا من بعيد الزمان حتى زمننا هذا

ولكنه عليه السلام رد عليهم ، (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88) أي **أن عليه إرادة الإصلاح ، أما إيكال النتائج فعلى الله** وحده سبحانه ، وهددهم وحذرهم أن يصيبهم عذاب الله مثلما أصاب من قبلهم من المكذبين بالدعوة ، ثم ترأف بهم في الخطاب الدعوى وألان جانبه وحببهم في رحمة الله فقال (وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

هنا بدا انقلابهم عليه ، مثلما انقلبوا من قبل على نوح وعلى صالح وعلى هود وعلى إبراهيم وغيرهم من الأنبياء ، وهذا هو المعتاد من أهل الدنيا ، فبداءة اتهموا منهجه الاقتصادي بأنه منهج معقد غير مفهوم ، فإذا كان كذلك فلابد أنه غير قابل للتطبيق ، وهكذا أبطلوا النظرية الاقتصادية الإسلامية التي جاءهم بها **بسياسة الاستعماء والاستحمار** ، فلما أصر على منهجه استضعفوه وهددوه بالرجم , وهي عقوبة لا تتناسب إطلاقا مع حرية الفكر التي تنادت بها المجتمعات التي تزعم اهتمامها بحقوق الإنسان ، فعلام يرجم المرء على أفكاره وعقيدته ، ولم يرتكب فعل مادي يمس الآخرين ، إنما هي مجرد أقوال دون أفعال ، عبر عما في قلبه من مشاعر ، وما في عقله من اعتقاد جازم ، ولكن **المجتمعات التي تتشدق بالانفتاح الاقتصادي وضمان حقوق الإنسان هي أول من يحتكر السلع ويغش في الميزان ويهضم حرية التعبير ولا يحترم حقوق الإنسان** إذا ما لم تكن قد دانت لله تعالى بالعبادة وحده .

وقد منعهم من تنفيذ عدوانهم عليه ما بينه وبينهم من قرابة ، فتعللوا بالرهط الذي هم أقربائه وأنسبائه ، فذكرهم بالله حتى يكون الرجاء فيه وحده والخوف منه وحده ، وهكذا يظهر المنهج الدعوي لإصلاح العقيدة في كل موقف ، وظل الحال بينهما على ذلك (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ، حيث **صار إنكار المنكر بالقلب هو عنوان هذه المرحلة** ، وليس يملك أكثر من ذلك حتى جاء الفرج من الله سبحانه ، فنجا الله شعيب والذين آمنوا معه لكونهم أهل إصلاح ولم يسكتوا على المنكر ، بل أنكروه ولو بالقلب ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فهلكوا جميعا ، (فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) .

وهكذا أقصى الله أمة من الأمم واستأصلها من الوجود ، لتظل العاقبة للمتقين رغم ضعفهم وقلة حيلتهم ، فإنهم إذا التزموا واستقاموا على منهج الإصلاح ، فلابد وأن تكون العاقبة لهم رغم انتفاء الأسباب التي تعينهم على إنكار

المنكر بالقوة ، **فالاستقامة على المنهج الإصلاحي تكفي لتحقيق النتائج** ، وليس على أهل الإصلاح تحقيقها وإنما عليهم السعي لها بقولهم (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ) فهذا هو شعار أهل الإصلاح وعنوان منهجهم .

قوله (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) أي (وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم في النسب شعيباً)[1] ، من هنا لابد وأن نعي دوما أن لمبدأ **المواطنة أهمية قصوى في إيجاد صلة بين الداعي والمدعوين** ، وهي صلة قوية تسهل إيصال الدعوة لهم ، لاسيما إذا ما احترمت **حقوق الجيرة** ،وبدا حسن المعاملة بينهما ، كما أن **طول العشرة** والجيرة يؤديان إلى توطيد هذه العلاقة حتى تصير أخوة إن لم تكن فعلا كذلك ، من هنا وصف القرآن بأخاهم شعيب

وقيل أنه (ما من نبي بعث مرتين إلا شعيب بعث مرة لأهل مدين ، فلما هلكوا بعثه الله لأصحاب الأيكة)[2] ، ولذلك وصف هنا بأنه أخوهم ، ولم يذكر ذلك في شأن أصحاب الأيكة ، لأنه لم يكن من أهل الأيكة ، قال تعالى (إذ قال لهم شعيب).

وكان يحسن الخطاب ، وقد بان ذلك فيما قصه القرآن عنه ، فعن محمد بن إسحاق قال : وشعيب بن ميكائيل النبي ﷺ بعثه الله نبيا فكان من خبره وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال : **ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه)**[3]

قوله (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) (هود 84) واختيار مدين في إطار سرد حكايات الأنبياء له سببه لينضم إلى أسباب هلاك الأمم هو الفساد التجاري ، فعقيدة التوحيد لابد أن تصلح النظام التجاري في البلاد ، من هنا يسود الصدق في التعامل والأمانة في الميزان من منطلق عقائدي ، قائم على عبادة الله وحده ، ولأنهم لم يكونوا على تلك الأخلاق جاءهم نبي الله شعيب ناصحا لهم .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ **مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي)**[4].

وقد تساءل الشيخ عطية سالم عن حكم الغاش ، ومعنى قول النبي ﷺ (ليس مني) هل معناه ليس من المسلمين أي صار كافرا أم ليس من المتقين ، ثم أجاب فقال (مثل هذا النص لا يفسر، ولا يشرح، ويترك على إجماله؛ لأنه كالسوط المعلق، فمن رآه أرهبه، وهذا من أشد الوعيد فيما يتعلق بالغش)[5] ، ويقول الدكتور محمد الوهيبي (مثل هذه البراءة من النبي ﷺ معناها أنه ليس من المطيعين لنا ولا المقتدين بنا ، ولا المحافظين على شرعنا [6].

---

[1]) التفسير الميسر لأبي بكر الجزائري 2 185
[2]) تفسير البحر المحيط لأبو حيان ج8 ص 427 وكذا الألوسي ج7ص297
[3]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 620 رقم 4071
4) رواه مسلم ج1 ص 267 رقم 147
[5]) شرح بلوغ المرام درس 193 ص 8 تفريغ الشبكة الإسلامية
[6]) د محمد الوهيبي : نواقض الإيمان الاعتقادية ج1 ص 90

فقوله (إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ) (84) قال الألوسي أي (**ملتبسين بثروة واسعة تغنيكم عن ذلك**..والجملة في موضع التعليل للنهي)[1] ، فيبدو أن النبي المفوه والخطيب تلمس جانب الخير الذي يظنه فيهم ، ليكون الحياء منه مانعا لهم أن يحتالوا على الناس ويغشوا في الميزان والمكيال ، فقال لهم (**إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ**) أي خاطبهم مادحا حالهم أنهم **أهل ثراء** ولا حاجة لهم لحيل الغش التجاري حتى يقبلوا نصيحته ، فلا تخلو دعوة من رجاء النبي في قومه الخير لهم ، وأن تدوم لهم البركة في الرزق ، فخاطبهم من حيث هم متفقون معه ، بأنهم على خير حال وليسوا مضطرين لتلك الحيل لعلة الفقر والحاجة ، ولكن الإنسان كعادته (لحب الخير لشديد) ، يقول الرسول ﷺ (**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**)[2] ، فالطمع يقلل بركة ما جمع.

قوله (..وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) (هود 84) **تعضيد لحيثيات النهي** ، لأن تبرير النهي بغاية إصلاح الدنيا لا يكفي لتعليل سلوك الفرد المسلم الذي غايته إصلاح الدنيا لأجل إصلاح الآخرة ، فلابد وأن تتضافر مع هذه الحيثية حثية أخرى تتعلق بإصلاح الآخرة ، ولما كان المقام مقام نهي كان التهديد بالعذاب حيثية لابد من ذكرها لردع من تسول له نفسه غش الناس في المكيال أو الوزن لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ما يعني أن الأمر مرجعه في النهاية إلى يقظة الوازع الديني عندهم .

قوله (وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) (هود 85) فمن أغراض الشريعة الإسلامية إقامة القسط بين الناس ، كما في قوله سبحانه (وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ**) (الرحمن/7-9).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** عَزَّ وَجَلَّ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ **الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**)[3]، وقال تعالى (**وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) (الحجرات 9) ، قال ابن علان (العادل أنه الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه بغير إفراط ولا تفريط)[4]

قال النووي (فمعناه أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك)[5] أي ونحو ذلك ولو تولى أمر سلعة ليبيعها للناس .

قوله (وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (هود/85) نهاهم أن يخفضوا من ثمن السلعة عند الشراء عن الثمن العادل ، وهو الثمن السائد في السوق الحر ، وهذا يحصل عند شراء التجار السلعة من تاجر الجملة ، أو المزارع بكميات كبيرة فيبخسوا بائع الجملة حقه ، أي يشتريها بائع التجزئة بثمن بخس ، ثم يبيعها بثمن باهظ ، فيقع الظلم في مرتين : الأولى عند الشراء من تاجر الجملة فيبخسوه حقه ، والثانية عند البيع للمستهلك ، فيغبنوا المشتري غبنا فاحشا ، وهكذا يفسدون في الأرض ، ويظنون أن قواعد التجارة تجيز ذلك .

---

1) تفسير الألوسي ج8 ص 329
2) رواه البخاري ج20 ص 65 رقم 5956
3) رواه مسلم ج9 ص 350 رقم 3406
4) ابن علان : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج4 ص 74
5) شرح النووي على مسلم ج12 ص 212

ولكن الإسلام يعلمنا أن **نُقدِّر ثمن السلعة للناس بالحق ، بصرف النظر عن مبدأ تراضي الطرفين** ، فهذا المبدأ ليس على إطلاقه ، بل تحد قواعد العدالة منه ، بمعنى أن الرضاء المعتبر في الشريعة الإسلامية هو الذي يحقق المصلحة للطرفين ، لا مصلحة أحدهما على الآخر ، وهو ما يحقق مبدأ تكافؤ اقتصاديات العقد ، فيكون المسلم أحرص على شراء السلعة بثمن عدل ، دون بخس حق البائع ، ولا يبيعها – كذلك- بثمن يتجاز حد التسامح ، فيقلب اقتصاديات العقد ، وهو ما يسمى بالغبن الفاحش .

أما الغبن اليسير المتعارف بين الناس فيتسامح فيه ، لأن من السنة التسامح في البيع والشراء والمقايضة ، لقول رسول الله ﷺ **(رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَا عَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى)**[1] ، ولقوله ﷺ **(وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ)**[2]، ولا يتسامح – إطلاقا – في الغبن الفاحش ، بل يبطل به العقد ، لكن أنى تبطل العقود إذا كان السوق كله قد استشرى فيه الغبن بصورة فاحشة ، ولم يعرف الثمن العادل للسلع في ظل الفساد التجاري المستشري .

كما نهى النبي ﷺ عن شراء السلعة قبل قدومها السوق ، وهو ما يسمى **بتلقي الركبان** ، أي استقبال قافلة التجار خارج السوق ، قال رسول الله ﷺ (وَلَا تَلَقَّوْا السِّلَعَ حَتَّى يُهْبَطَ بِهَا إِلَى السُّوقِ)[3] ، حيث يخرج تجار السوق إلى القوافل التجارية خارج المدينة فيشترون منهم السلع قبل قدومها للسوق ، فيستغلون جهل التجار بمعرفة الأثمان في السوق ، فيبخسون أصحاب القوافل حقهم ، ولو أنهم تركوهم وشأنهم لباعوا مثل غيرهم من التجار بالسعر السائد في السوق ، الذي يحدده العرض والطلب وفقا لمعايير اقتصادية بحتة ، ولكنهم يفعلون ذلك ليبخسوهم حقهم وليتحكموا في السعر بسياسة الاحتكار ، وقد يضطروهم للبيع بمنعهم دخول السوق أو تخويفهم من دخول السوق بنشر أخبار كاذبة .

كذلك الحال فيمن يحتكر سلعة قد ولاه الله عليها ، ولا يعدل في ثمنها عند البيع ، وكذلك من يبخس الناس أشياءهم عند الشراء ، فهذا قد أخل بميزان القسط بين الناس ، وكلاهما يشق علي الناس ، يقول النبي ﷺ **(اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ)**[4].

وفي علوم الاقتصاد لا يتصور أن يبيع الناس أشياءهم بثمن بخس إلا لمحتكر السلعة اضطرارا ، وهو ما يدل على انهيار ميزان العدل في الأسواق وفسادها بالكلية ، ويحصل ذلك عندما يكون احتكار السلع الأساسية سياسة تجارية متبعة ومتعارف عليها بين التجار ، لأن الطبيعي أن **يصحح السوق ذاته من أي خطأ في ظل مرونة العرض والطلب والمنافسة الحرة والشريفة** ، فالتاجر الذي يغالي في ثمن السلع لا يشتري منه أحد ، والتاجر الذي يبخس ثمن الأشياء لا يبيع له أحد ، ولكن عند الاحتكار يحصل العكس ، لأن السلعة المحتكرة أضحت عند تاجر واحد أو مجموعة من التجار يتفقون على ذلك ، والجميع مضطر للشراء منهم بالسعر الذي يحددوه وإن كان ظلما ، وإلا توقفت تجارتهم

[1]) رواه البخاري ج7 ص 240 رقم 1934
[2]) رواه مسلم ج9 ص351 رقم 3407
[3]) رواه البخاري ج7 ص 382 و 240 رقم 1934 و2020
[4]) رواه مسلم ج9 ص351 رقم 3407

ومصالحهم ، وكذلك عند البيع حيث إن المحتكر كما أن له قدرة على احتكار الأموال ، فله كذلك قدرة عالية علي اكتناز الأموال وتضخيم رأس المال ليشتري كل ما في السوق جملة واحدة ، ولذلك يقول رَسُول اللَّهِ ﷺ قَالَ (**لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ**)[1] أي (اشتراه وحبسه ليقل فيغلو)[2] .

بل إن **سياسة الاحتكار هذه أضحت تنظيما اقتصاديا** عالميا ، بحيث يجمع المحتكر الرئيسي غيره من المحتكرين وأرباب السوق **ليحملهم على اتباع سياسته التسعيرية** ويبيع لهم بالجملة السلع التي احتكرها ، وهم بدورهم يضطرون لأن يبيعوا بذات الثمن ، وهكذا دواليك ، فيمتلكون رأسمال ضخم يشترون به جميع السلع بأبخس الأثمان ويحتكرونها ثم يبيعونها بأغلى الأثمان **ليحققوا أعظم دالة ربح اقتصادية** .

ومن هنا نشأ الفساد في التجارة ، وعندئذ لا يجد أصحاب الحاجة والفاقة السلعة الأساسية بثمن يتناسب مع دخولهم المنخفضة ، فيحرموا من السلع التي هي قوام الحياة كالطعام والدواء والملبس على وجه الخصوص ، وقد نفدت من السوق لشراء أصحاب الأموال لها أو يضطرون للاقتراض بالربا لشرائها .

قوله (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) (هود/86) أي ما أبقاه الله لكم من رزق هو قسمة لكم خير من ابتغاء محرم ليس لكم فيه حق شرعي ، قال ابن عباس (**رزق الله خَيْرٌ لكم**)[3]، (يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف)[4] أو (البخس في المكيال والميزان)[5] .

قوله (..إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ..) (هود/86) تأكيد على أن قواعد الأخلاق السامية في التجارة لا يلتزم بها إلا تاجر مؤمن مصدق بالله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ (**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**)[6] ، وقال ﷺ (إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّارًا إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ)[7]

قوله (..وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) (هود/86) أي ليس له سلطة لإلزامهم بقواعد التجارة العادلة ، ولذلك لما استنفذ شعيب جهده في النصيحة اعتذر إلى الله أنه لا يقدر على أن يلزمهم بتلك الآداب الإسلامية والأخلاق العالية ، لأنه ليس بمسيطر عليهم ولا بحفيظ على أفعالهم ، وإنما هو مجرد **داع للخير ، مريد للإصلاح ، ولا يملك سلطة زمنية لإلزامهم بأخلاق التجارة الشريفة** ، خلافا لأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يسوسون قومهم ، وفي ذلك إلماح إلى أنه لم يكن يملك غير ذلك ، فلا يملك غير إرادة الإصلاح بإنكار المنكر بالقول ، وهو لا يزال في مقام الدعوة وليس الدولة .

قوله (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) (هود/87) الذين انتقدوا دعوة شعيب الإصلاحية ، هم الذين يريدون أن يفرقوا بين الدين والدنيا ، يريدون أن يحصروا الدين في دائرة الصلاة والشعائر تعبدية فقط ، ويقصونه

---

[1]) رواه مسلم ج8 ص 313 رقم 3013
[2]) سبل السلام ج3 ص 25
3) تفسير ابن كثير ج4 ص 343
4) تفسير البغوي ج4 ص 195
5) تفسير السمعاني ج2 ص 451
[6]) رواه الترمذي ج4 ص 471 رقم 1130 وصححه الألباني : كنوز صحيح السنة ج1 ص 135
[7]) رواه الترمذي ج4 ص 472 رقم 1131 وصححه الألباني السلسلة الصحيحة ج2 ص 693 وصحيح الترغيب والترهيب 1785

عن الحياة بكل مجالاتها ، ويقولون لا صلة للدين بالبيع والشراء والوزن والكيل ، والحقيقة أنهم مخطئون في زعمهم ، بل إن العبادات الصحيحة لا تقبل إلا إذا حسنت أخلاق الناس ، لقوله تعالى (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة 177)

فمن يصلي لله بإخلاص لابد وأن تجد لصلاته أثر في حياته ومعاملاته وأخلاقه مع الناس ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ قَالَ إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ)[1] ، إذن الصلاة لابد وأن تغير أخلاق الناس إلى الأفضل دائما ، فلا يمكن فصل العبادة عن المعاملة ، ولا المعاملة عن العبادة ، بل يقاس دين المرء بحسن المعاملة ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ مِنْ أَخْيَرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا**)[2] ، ويقول ﷺ (**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** فَسَكَتَ الْقَوْمُ فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا قَالَ الْقَوْمُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا)[3]

.

من هنا لا يمكن فصل الدين عن الدنيا ،ولا حياة المسلم في المسجد عن حياته في السوق ، فلو كانت الشعائر التعبدية هي الجانب الشكلي للإسلام فإن المعاملات الدنيوية هي الجانب التطبيقي للإسلام ، فإصلاح العقيدة الإسلامية والعبادات والشعائر لا ينفصل عن إصلاح المعاملات والأخلاق .

قوله (.. أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود/87) كأنهم يقولون (إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلم تمنعنا منه؟!)[4] ، فهؤلاء لا يفرقون بين القاعدة الاتفاقية والقاعدة الإلزامية ، فثمة قواعد تركت الشريعة الإسلامية للبشر حق تنظيمها فيما بينهم بالتراضي ، لكن ثمة قواعد أخرى لا يجوز لهم مخالفتها وإن اتفقوا فيما بينهم علي مخالفتها ، فيبطل اتفاقهم عند مخالفتها ، تلك القواعد تسمى بالقواعد الإلزامية ، وهو ما ذكره النبي ﷺ في قوله (**الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صُلْحًا حَرَّمَ حَلَالًا أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلَّا شَرْطًا حَرَّمَ حَلَالًا أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا**)[5].

قولهم (..إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (87) تضمن هذا القول الصادر عنهم تهكم وسخرية من نبيهم ، وهكذا يستبين **إصرار العلمانيين على الاستهزاء بأهل الدّين**، واتّهامهم بالتخلّف والرجعية وجمود العقل، (وهي نزعة جاهلية ضاربة في القدم، لجأ إليها الجاهليون، وواجهوا بها أتباع الأنبياء والرّسل ، وهكذا يظن العلمانيون أنّ رفض بعض حقائق الدّين، هو قمّة العقلانية والتحرّر)[6] .

---

1) رواه أحمد في مسنده ج19 ص 445 رقم 9402 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج16 ص 27

2) رواه البخاري ج18 ص 454 رقم 5569

3) رواه أحمد ج13 ص 485 رقم 6447 وصححه الألباني : كنوز صحيح السنة النبوية ج1ص70

4) تفسير القرطبي ج9 ص 87

5) رواه الترمذي ج5 ص 199 رقم 1272 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج3 ص 352 رقم 1352

6) سلطان بركاني : العلمانية.. عندما تَستعبد العقلَ للهوى مقال بتاريخ 2016/2/19 جريدة الشروق الجزائرية

قوله (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ..) (هود/88) أي أنه يحتج بعلمه بالله وعن الله من أحكام أنزلها تنتظم بها أسواقهم وفقا لقواعد الشريعة الإسلامية ، ولذلك كان عمر بن الخطاب يقول **"لَا يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ"**[1]، وقيل" :**وإلا أكل الربا شاء أم أبى**"[2]

وفي قوله (..وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) قال ابن الجزي (أي سالماً من الفساد الذي أدخلتم في أموالكم)[3] ما يعني أنه يريد أن يبرهن لهم صدق النظرية الإسلامية في الإقتصاد ، وأن تجارته كمسلم لن تبور لأجل ترك حيلهم في الغش والتدليس على الناس في الكيل والميزان ، والتمسك بمبادئ الإسلام التجارية والاقتصادية ، بل إن ما رزقه ربه من رزق هو حلال دليل على أن اتباع هذه الطريقة ناجح في كسب الأموال وزيادة الربح

فاستشهد عليهم بصحة منهجه بالتطبيق العملي ، بأنه مثلهم يمشي في الأسواق كما هو شأن الأنبياء جميعا ، يشتري ويبيع ويتاجر ، وقد بارك الله في رزقه لأنه التزم أحكام ربه في البيع والشراء ، والبركة في الرزق جاءته من ذلك ، يقول النبي ﷺ (**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**)[4]، ولذلك اشتهر القول عند السلف بأن (تسعة أعشار الرزق في التجارة)[5] ، (والجزء الباقي في السابياء) أي المواشي

قوله (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ..) (هود/88) أي : (أنه ما يريد مجرد المخالفة كشأن المنتقدين المتقعرين ، ولكن يخالفهم لمقصد سام وهو إرادة إصلاحهم)[6] ،فالمسلم ينجح في دعوته عندما يطبق هو الإسلام على نفسه وأهله وما ولى بالشكل الصحيح ، يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا)[7].

أما إن خالفت الأفعال الأقوال ، فلن يقتدي أحد بمن كان حاله هكذا ، فنجد من يتباهى بما يعلم من الحكمة ، وينصح بها الناس من باب الرياسة والزعامة والرياء ، وهو غير متبع لما يقول ، فإن حاله يوم القيامة لا يسر أبدا ، يَقُولُ النبي ﷺ (يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلَانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ قَالَ **كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**)[8].

---

[1]) رواه الترمذي ج2 ص 308 رقم 449 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج1 ص 487 رقم 487
[2]) إحياء علوم الدين للغزالي ج2 ص 355
3) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 711
[4]) رواه البخاري ج7 ص 246 رقم 1937
5) رواه سعيد بن منصور في سننه عن نعيم بن عبد الرحمن الأزدي ويحيى بن جابر الطائي مرسلا، وأعله الحافظ العراقي في تخريج الإحياء بالإرسال
[6]) التحرير والتنوير ج11 ص 315
[7]) رواه أبو داود ج11 ص 362 رقم 3740 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 147
[8]) رواه البخاري ج11 ص 46 رقم 3027

وهكذا احتج نبي الله شعيب عليهم بأخلاقه معهم ، بأنه يلتزم منهج الله تعالى ، لتكون الأفعال أصدق من الأقوال ، (فالداعية الحق هو الذي **يؤثّر بحاله أكثر ممّا يؤثر بمقاله**، فلسان الحال أبلغ، وتأثيره أصدق وأقوى، وقد قيل: **حال رجل في ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل في رجل!**)[1].

قوله (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ..) (هود/88) قال القشيري (مَدَارُ الأمر إلى الأغراض المقضية **حُسْنُ القصد بالإصلاح** ، فيَقْرِنُ اللَّهُ به حسن التيسير ، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق)[2] ، قال السلمي أي : (**مرادي صلاحكم ، ولا أستطيع ذلك إلا بمعونة من الله لي عليه**)[3] .

قال رسول الله ﷺ (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)[4] ، فجعل **الاستطاعة مناط ترتيب وسائل تغيير المنكر** ، وأبان أن من لم يملك المقدرة على تغيير المنكر باليد مخافة أن يترتب على ذلك **حصول منكر أكبر منه** أن له أن يغير المنكر بالقول ، فإن تراءى له أن إنكار المنكر بالقول قد يؤدى إلى إضرار بالدعوة وإهلاك لثمارها المرجوة وإفساد لمصالح معتبرة ، هنا وجب عليه أن يغير المنكر بالقلب ، يقول الشيخ الفوزان (هذه مراتب تغيير المنكر ودرجاته، وكل مسلم يجب أن يقوم بما يستطيعه منها، **ولا يجوز له أن لا ينكر المنكر، ولا يجوز له أن ينتقل إلى مرتبة وهو يستطيع القيام بالمرتبة التي قبلها**؛ فلا يجوز لمن يقدر على تغيير المنكر باليد أن يقتصر على إنكاره باللسان، ولا يجوز لمن يستطيع الإنكار باللسان أن يقتصر على إنكاره بالقلب)[5]

ومعنى ذلك أن **إنكار المنكر بالقلب وسيلة للتغيير وليس مجرد نصح وإرشاد** ، وذلك هو معنى تأثير القدوة الحسنة في تغيير الناس للأفضل ، فصاحب الحق بأفعاله واجتنابه المنكر يغير من حوله من أهل المعاصي ، حيث يرون نجاحه وتفوقه في الحياة دون أن يرتكب محرم ، فيضطروا أن يتبعوه ليجنوا ثمار ما يجني باتباع الشرع كما يفعل .

ورغم ذلك وصف النبي ﷺ حالة تغيير المنكر بالقلب بأنها أضعف الإيمان ، معنى ذلك كما قال الفوزان أن (**إنكار المنكر بالقلب مسؤول عنه كل مسلم، ومن لم ينكر المنكر بقلبه؛ فليس بمسلم**)[6] فلا ينبغي أن يرى المسلم منكرا ولا ينكره ولو بقلبه ، فإن ألف المنكر وتعود رؤيته دون أن يغضب لذلك فأين الإيمان في قلبه ، ولم يستقم على الدعاء إلى الله بأن يزيله ؟ .

يعزى ذلك كذلك إلى أن **تغيير المنكر باليد هو الأصل** متى تحققت شرائطه ، وفقه التمكين ، ولكنه في ذات الوقت لا يكلف به إلا من له سلطة زمنية ، أي **من تولى الولاية وفي حدود ولايته** ، بمعنى أنه مسئولية الحاكم أو الراعي أو الولي ، **وأصغر ولي هو الأب في بيته على أهله ، وأكبر ولي هو السلطان** ، فهو ولي من لا ولي له ، وكل موظف مسئول هو ولي في إطار مكتبه وواجباته الوظيفية ، وهكذا يكون الجميع أولياء كما قال رسول الله ﷺ (**كُلُّكُمْ**

---

1) المعجم الجامع في تراجع العلماء وطلبة العلم المعاصرين ج1 ص 35
2) تفسير القشيري ج3 ص 362
3) تفسير السلمي ج1 ص 324
4) رواه مسلم ج1 ص 167 رقم 70
5) المنتقى من فتاوى الفوزان ج24 ص 5
6) المنتقى من فتاوى الفوزان المرجع السابق

رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) قَالَ –عبد الله بن عمر – وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) [1]، فكل بحسب ولايته يغير المنكر بيده ، وفي حدودها وبقدر السلطة التي خوله الشرع لذلك دون إسراف أو تجاوز حق أو عدوان بظلم .

أما تغيير المنكر بالقول فيعتمد على النهي والنصح والإرشاد ، والتحلي بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولذلك **سمي شعيب عليه السلام خطيب الأنبياء** ، وبخطبته لقومه نتعلم منه آداب النصح والإرشاد ، ولأهمية ذلك أردف الله هارون مع موسى لأنه أفصح منه لسانا حتى يقدر على بيان النصح لقومه مع قوة موسى في تغيير المنكر باليد ، فللقول أهمية لا تقل عن اليد في تغيير المنكر وإقناع الناس بالحق ، كما رأينا في كل قصص الأنبياء في هذه السورة ، فهم يخاطبون قومهم باللسان ، ولم نجد أحدا منهم قدر على تغيير المنكر باليد إلا إبراهيم عليه السلام حين أتيحت له الفرصة ذلك على غفلة من قومه ، وقد وازن بين الأمور فتراءى له ذلك دون حصول مفسدة ، لكن لما حاجهم بالقول أمروا بحرقه فنجاه الله منهم .

والمؤمن في ذلك كله لابد وأن يتجرد من كل شيء حتى تكون وسيلته للإصلاح وتغيير المنكر متناسبة مع الحدث فلا يسيء التصرف حال تغيير المنكر ، قال القشيري (**مَدَارُ الأمر إلى الأغراض المقضية حُسْنُ القصد بالإصلاح ، فيَقْرِنُ اللَّهُ به حسن التيسير ، ومَنْ انطوى على قصدٍ بالسوء وَكَلَ الحقُّ بشأنه التعويق**)[2] ، قال السلمي أي : (مرادي صلاحكم ، ولا أستطيع ذلك إلا بمعونة من الله لي عليه)[3] .

ومناسبة هذا القول الذي صدر من نبي الله شعيب كما قال ابن عاشور (أنهم ظنوا به أنه ما قصد إلا مخالفتهم وتخطئتهم ، ونفوا أن يكون له قصد صالح فيما دعاهم إليه، فكان مقتضى إبطال ظنهم أن ينفي أنه يريد مجرد مخالفتهم)[4] ، بدليل التزامه هو ذاته بالمنهج ، وأفصح أن الله هو الذي هداه لذلك ، ولذلك قال عقبها (وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

قوله (وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود/88) أي لن استطيع أن أحقق الإصلاح وإن أردته إلا بتوفيق الله لي ، فإن وفقني بلغت مرادي وتحقق الإصلاح علي يدي ، وفي هذا المعنى قال الطبري (وما إصابتي الحق في محاولتي إصلاحكم وإصلاح أمركم إلا بالله، فإنه هو المعين على ذلك) [5]، قال رسول الله ﷺ يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ فَقَالَ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ **أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**)[6].

---

[1]) رواه البخاري ج3 ص 414 رقم 844
2) تفسير القشيري ج3 ص 362
3) تفسير السلمي ج1 ص 324
4) التحرير والتنوير ج11 ص 315
[5]) تفسير الطبري ج15 ص 454
[6]) رواه أبو داود ج4 ص 318 رقم 1301 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 253

قال الشيخ مصطفى العدوي (فالشاهد: أننا أعلنا أننا نعبد الله ولا نعبد غيره، ولكن طلبنا عونه سبحانه وتعالى على عبادته، فهنا اتضح وجه الربط بين: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) [الفاتحة:5] ، فإذا فهم الشخص هذا المعنى لم يغتر بعبادته لربه، فالذي أعانه على العبادة هو الله سبحانه وتعالى)[1]، كما قال رسولنا: (**اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا** فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا)[2] ، وكما قال أهل الإيمان: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**) [الأعراف:43] .

قوله (..عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ..) (هود 88) قدم المسند إليه على المسند ، ليدل على أنه قصر توكله على الله لا غيره ، ونتيجة ذلك أضحى لا يبالي بنتائج عمله ، فقد ضمن الأجر والثواب من الله ، فلا يهتم هل يرى **نتيجة الإصلاح في معاشه أم بحصل الإصلاح بعد مماته** ، قال القشيري (التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعود عند عدم الموجود ،ويتبين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب) [3]، وقال ابن عجيبة (وفيه إشارة إلى محض التوحيد ، الذي هو أقصى مراتب العلم بالله)[4]

قوله (..وإليه أنيب) أي (ارجع إليه فيما أنا بصدده فى جميع أمورى)[5]، أي فإلى الله أنيب وأرجع **وأتوب** ، **من أن ينال قلبي شيء من العجب من هذا العمل الذي أخلصت وجهي فيه لله** رب العالمين

قوله (وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) (هود/89) دعاهم إلى التفكير بموضوعية دون أن يكون للخصومة التي بينه وبينهم تأثير على السعي لإصلاح السوق ، أي دعاهم لبناء نهضة اقتصادية بشكل موضوعي لا يتأثر بالخصومة والشقاق الذي بينهم بسبب العقيدة ، فلا تحملهم تلك الخصومة على معاندته في الحق فيصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم من الأمم التي أهلكها الله تعالى لما عاندت مع أنبيائها .

ولكي يحملهم على التفكير بموضوعية فإنه يذكرهم بما أصاب الأقوام السابقين من العذاب الذي نزل بهم ، أي دعاهم قبل الحكم على كلامه وأفكاره الاقتصادية أن يجردوا نظرتهم له من أي (مواقف مسبقة أو مشاعر كاذبة أو تمنيات موهومة أو عادات وتقاليد موروثة أو اتهامات مفتراه أو رؤى محدودة أو ظنون وأوهام لا أساس لها من الصحة)[6]، فلا شك أنها نظرة قاصرة في الحكم على الموضوع لاسيما إذا كانت المسألة المعروضة مسألة مصيرية يتوقف عليها نجاة شعوب بأكملها أو هلاكها .

ولكنهم لم يتجردوا ولم يكونوا على الحياد في تحقيق الصالح العام ، فإذا كان هذا هو أسلوب الكافرين في التفكير ، فلا محيص من أن يستأصلهم الحق ويستبدل قوما غيرهم بهم ثم لا يكونوا أمثالهم

---

[1]) دروس للشيخ مصطفى العدوي ج1 ص 3 تفريغ الشبكة الإسلامية
[2]) رواه البخاري ج10 ص 236 رقم 2808
[3]) تفسير القشيري ج3 ص 362
[4]) البحر المديد ج3 ص 68
[5]) تفسير حقي ج5 ص 488
6) رمضان وهدان : التفكير الموضوعي.. عدالة المحايد! : مقال منشور في يقظة فكر بتاريخ 21 مارس 2012 (معوقات التفكير وإعمال العقل)
ومن كتاب: مهارات لصناعة العقول - المؤلف: د. حسن يوسف الشريف - إشراف: يقظة فكر - دار النشر: الثريا للنشر والتوزيع, القاهرة - الطبعة: الأولى 2011

قوله (وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (هود/90) لفت انتباههم إلى مسألة إصلاح القلوب بالاستغفار والمبادرة إلى التوبة ، وحضهم إلى ذلك بذكر صفتي الرحيم والودود اللتين هما من صفات الله تعالى المطلقة ، وهاتان الصفتان تجد معناهما واضحا في حديث النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (**إِذَا تَقَرَّبَ عَبْدِي مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا أَوْ بُوعًا وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**)[1].

قوله (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) (هود/91) اغتر هؤلاء التجار الظالمون بقوتهم إزاء ضعف نبي الله شعيب ، وأنه لم ينصره في دعوته إلا رهط من بني قرابته ، فهم لا يفقهون حكم العقل ولا منطق الأشياء ولا يستوعبون شيئا مما تعقله القلوب ، **فإن ما يعيه هؤلاء ويقدرونه وحسب هي القوة** ، فهؤلاء القوم طُبع في قلوبهم حب المادة ، واشربت بها ، فهم لا يفقهون معنى العامل العام ، ولا النشاط الاجتماعي ، ولا يعيرون اهتماما للتكافل والضمان الاجتماعي ، فهم يفقهون شيئا واحدا ، أن المال يصنع المال ، ولا غاية لهم غير المال ، ولذلك قال رسول الله ﷺ (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ) [2].

قال ابن تيمية (هكذا قال هؤلاء : لا نفقه كثيرًا مما يقول الرسول، وقالوا كما قال الذين يستمعون للرسول، فإذا خرجوا من عنده (قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا) [محمد : 16] . وصاروا كالذين قيل فيهم : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) [الإسراء : 45، 46] ، فتدبر ما ذكره الله عن أعداء الرسل، من نفي فقههم وتكذيبهم، تجد بعض ذلك فيمن أعرض عن ذكر الله وعن تدبر كتابه، واتبع ما تتلوه الشياطين وما توحيه إلى أوليائها، والله يهدينا صراطًا مستقيمًا)[3] .

قوله (..وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) (هود 91) فلما لم يروا بيد نبيهم من قوة إزاء قوتهم استضعفوه ، بل إنهم من استضعافهم له هددوه بالرجم لولا الرهط الذين معه ، أي أن الذي يشفعون له عندهم ، وهم من أهل صلة القرابة أو الرحم التي بينهم وبينه ، والجمهور على أن قوله (ولولا رهطك) أي عشيرتك [4] ، يقول النبي ﷺ (ما إن بعث الله بعده —أي لوط – من نبي إلا في ثروة من قومه)[5] قال المناوي (أي كثرة ومنعه من قومه تمنع منه من يريده بسوء تنصره وتحفظه) [6] ، لكنهم يستضعفون هؤلاء الرهط من حيث القوة وإن كانوا يضعونهم موضع الاعتبار من حيث المكانة الأدبية تلك التي حالت بينهم وبين أن يرجموه فعلا بعد تهديدهم له .

---

1)رواه مسلم ج13 ص 190 رقم 4850
2) رواه البخاري ج20 ص 64 رقم 59
3) مجموع فتاوى ابن تيمية التفسير ج4 ص 248 – ج16 ص 212 تحقيق أنور الباز وعامر الجزار ، دار الوفاء ، الطبعة الثالثة
4) النكت والعيون ج2 ص 223
5) الأدب المفرد للبخاري ج1 ص 212 رقم 605
6) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 58

قوله (.. وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) (هود 91) أي لا يعز علينا مضاراتك أو اغتيالك أو قتلك بالرجم أمام الناس ، قال سيد قطب (**وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة** ، ولا لحقيقة كبيرة؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه ، أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية)[1] .

ولكن يعز عليهم أن يقال عنهم أنهم خرموا مبدأ المواطنة ، فالذي منعهم من رجمه ألا يفزع الناس من سوقهم ، فالتجارة تحتاج دوما إلى استقرار سياسي ، واستتباب الأمن في أرجاء البلاد ، وإلا هرب المستثمرون والتجار بأموالهم لأسواق يأمنوا فيها على أنفسهم وأموالهم وتجارتهم ، فكانت تلك هي علة كف أيديهم عنه ، ولكنهم اختتموا قولهم بتهديدهم ليعلم أنه لن يمنعهم شيء عزيز عن أذيته إن استمر في دعوته بصورة علنية .

قوله (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (هود 92) يعني (أحرمة قرابتي أعظم عندكم من حرمة الله تعالى؟)[2]،قال الرازي (فكأنه يقول : حفظكم إياي رعاية لأمر الله تعالى أولى من حفظكم إياي رعاية لحق رهطي)[3] ، **وفي ذلك إحراج لهم أنهم وإن تلطفوا معه لأجل قرابتهم له** ، فالأولى بهم أن يأخذوا بنصيحته له لأجل الخير الذي تلمسه فيهم ، ورغبة النبي في نمو بذرة الخير فيهم إن كانت حقا لأجل الله

قوله (وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا)(92) أي ألقيتم أوامر الله وراء ظهوركم ، فلم تعيروا لأوامر الله ونواهيه اهتماما ، بل نبذتموها وراء ظهورهم استخفافا بها وعدم اكتراث بحكمتها وأهميتها .

قوله (..إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (هود/92) حذرهم من الله ، وأنه قد أحاط بما يعملون ، فلن تنفعهم اتفاقاتهم الاحتكارية ولا سياساتهم التي تواطؤوا علي اتباعها في أسواقهم ، وكأنهم بعيدون عن أعين الله ، وهو محيط بهم ، كإحاطة الجيش باللصوص قبل القبض عليهم .

قوله (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) (هود/93) هنا تكررت المفاصلة بين النبي وقومه بعدما بلغ عنادهم معه مبلغا دل على يئسه من هداهم ، وقد هددوه بالرجم ، فما كان منه إلا أنه التزم مكانته بالعمل بهذا الدين ، وتركهم وما يعملون من عمل قد أنكره عليهم بالقول فلم ينتهوا ، فأنذرهم عذاب الله أن يتأتيهم جزاء تكذيبهم ، فلم ينتبهوا ، قال الألوسي (قد جرت عادة الله تعالى أن **لا يهلك قوما بالإستئصال إلا بعد الإنذار** لأن **من أنذر فقد أعذر**)[4] ، وقد نفذ أساليب التلطف ، فكان لابد من المفاصلة والتخويف من عذاب الله .

---

[1]) في ظلال القرآن ج4 ص 263
[2]) بحر العلوم ج2 ص 352
[3]) تفسير الرازي ج8 ص 462
4) روح المعاني ج11 ص 160

قوله (وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (هود94) تربص شعيب وتربصوا معه ، حتى تحققت سنة الله الكونية ، كما في قوله (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء **وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**) (يوسف/110)

قوله (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) (هود/95) وهكذا يقصي الله الأمم الظالمة من حمل أمانة الاستخلاف في الأرض ، بعدما ظهر الفساد بسبب معاصيهم ، ليحمل هذه الأمانة الذين آمنوا جيلا بعد جيل لا يقصيهم منها أحد من الظالمين ، بل إن الله تعالى ليقصي الظالمين من طريقهم حتى ينفردوا بحملها بلا عائق.

المحور الثامن

استقامة موسى على الصدع بالحق في وجه فرعون دون اكتراث لعدد الأتباع

قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99)

من أحرج مواقف تغيير المنكر عندما يوَجّه المسلم كلمة الحق لأصحاب السلطان والنفوذ ، وهم في شدة ظلمهم وبطشهم ، ولكن المسلم يعلم يقينا أنه يقولها حسبة لله وليحصل ما يحصل ، فإن ما يحصل لن يخرج عن قدر الله ، لكن سبحان الله تلك الكلمة تصدع الباطل ، وتفرقه ، وتشق عصا الطاعة العمياء في نفوس أتباعه ، ولو بعد حين ، ولو لم يستجب لها الكثير .

لكن من العجيب كذلك وفي ذات المثال أن نجد أن كثير من الناس يتبعون الباطل رغم وضوح الحق وجلاؤه ، فيتبعونه حتى لو سقطوا معه في الهاوية ، وهكذا نجد الفراش يتهافت على النار ، رغم أن الطريق للنجاة مستقيم ليس فيه انحناءات لكنهم يبغونها عوجا بهذا الاتباع .

قوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) (96) (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ..) (97) تذكير برسالة موسى وكيف أن الله أيده بالآيات والسلطان ، قال ابن عرفة : (الآيات : المعجزات ، والسلطان المبين راجع إلى التحدي بها)[1] ، وقد تحداهم بها فسحقوا قبل أن يغرقوا ، فجمع الله له بين القيادة الدينية والسلطة الدنيوية ، حيث تحدى السحرة وغلبهم ، فانقادوا له وآمنوا به ، وسجدوا لله ، وخالفوا أمر فلرعون ، وتحداه فرعون فأغرقه الله وجنوده ، فسلب سلطانه منه ، وأورث قوم موسى أرضهم ، قال الزجاج : (السلطان هو الحجة والسلطان سمي سلطاناً لأنه حجة الله في أرضه)[2].

قال الرازي (**العلماء سلاطين** بسبب كمالهم في القوة العلمية **والملوك سلاطين** بسبب ما معهم من القدرة والمكنة ، إلا أن سلطنة العلماء **أكمل وأقوى** من سلطنة الملوك ، لأن سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ، ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء ، وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة) [3]

ورغم ذلك فإن الأكثرية عاندوا نبيهم وخالفوه متبعين أمر فرعون ، رغم أن حكم فرعون لم يكن برشيد ، كما أن بني إسرائيل انتكسوا وارتدوا على أعقابهم واتبعوا أمر السامري ، وهو مثل مما ورثه السامري من أمر فرعون بعد هلاكه فضلوا وعبدوا العجل ، الأمر الذي يحيلنا إلى السؤال عن سبب اتباعهم لفرعون والسامري ، مخالفتهم لنبيهم رغم البون الشاسع بين من كان مؤيدا بالبينات من الله ، ومن كان البين من حكمه الطيش وعدم الرشاد ؟

---

[1]) البحر المديد ج5 ص 362
[2]) لسان العرب ج7 ص 320
[3]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2474

قوله (..فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) (97) وإيرادُ "الفاء" مشعر بسرعة اتباعهم لفرعونَ في الكفر ، وعدم اكتراثهم للآيات الواضحات والحجة المبينة التي أيد الله بهما نبيه ...ولهذا قال أبو السعود (نعى عليهم **سوءَ اختيارِهم**)[1] ، لأنهم اتبعوه دون بصيرة .

ذلك أن إعلانهم متابعتهم لفرعون جاء متزامنا مع عصيانهم لموسى ، مخافة أن يظن فرعون أنهم إن لم يعلنوا تبعيتهم له ، فيقلق ويظن أنهم سوف ينقلبون عليه ، فكان شعار دولة فرعون إن لم تكن معنا فأنت ضدنا ، ولا ثالث ، يعني أن الذي يقف على الحياد يفكر ويعمل عقله ويقارن بين الاثنين ويتمهل هو في دولة فرعون خائن لابد من عقوبته ، ومن يعلن تبعيته لفرعون دون تفكير أو ترو هو فقط المواطن الذي يستحق العيش والبقاء ، ولكنه في الحقيقة فراش يتهافت على النار .

فعن بن مسعود (**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا** ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا)[2]، وعنه كنا نَعُدَّ الَّإمعة في الجاهلية الذي يْتَبُع الناس إلى الطَّعَامِ من غير أنْ يُدْعى ; وإنَّ الإمَّعة فِيكم اليوم المحُقْبُ النَّاس دينه ، والإمَّعة الذي يَتْبَع كلَّ ناعقٍ ويقول لكل أحد أنا معك ; لأنه لا رَأْى له يرجع إليه)[3].

وهنا وقفة نتأمل من خلالها موقف الناس من موسى وفرعون ، وحديث بن مسعود سالف الذكر، ففي بعض الرويات "لا يكن أحدكم إمعة ، **يقول: أنا مع الناس ? إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت !!** ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ? وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم " ، وقيل ما الإمعة ، فأجيب الذي يجري مع كل ريح ، هنا قال الشيخ محمد الغزالي (**والرجل الضعيف هو الذى يستعيده العرف الغالب** ، وتتحكم فى أعماله التقاليد السائدة ، ولو كانت خطأ يجر معه متاعب الدنيا والآخرة ، وقد أحدث الناس فى أفراحهم وأحزانهم بدعا شتى ، وتواضعوا على الاستمساك بها أشد من استمساكهم بحقائق الدين نفسها)[4].

فأين إذن توطين النفس وتزكيتها واستقامتها على الصراط المستقيم ، حتى لو اعوج الناس ، وغفلوا واتبعوا أمر فرعون ، يقول النبي ﷺ (**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**)[5]، وقال القرطبي : "المتمسك في ذلك الوقت... أجره كأجر المهاجر إلى النبي ﷺ ؛ لأنه ناسبه؛ من حيث إن المهاجر فرَّ بدينه ممن يصدُّه عنه للاعتصام بالنبي ﷺ ، وكذا هذا المنقطع للعبادة فرَّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه، فهو في الحقيقة قد هاجر إلى ربه، وفرَّ من جميع خلقه"[6]

قوله (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) (98) تضمن هذا الأسلوب ذما للمكان الذي أوردهم فيه فرعون حيث كانوا يظنون أنهم يردون معه مواطن النعيم والظل والسرور ، وإذا بهم يردون النار .

---

[1]) تفسير أبي السعود ج3 ص 387
[2]) انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ج11 ص 699 رقم 9349 ، ورواه الترمذي ج7 ص 290 رقم 1930 عن حذيفة ، وصححه الألباني موقوفا على ابن مسعود ، انظر مشكاة المصابيح ج3 ص 112 رقم 5129
[3]) الفائق في غريب الحديث والأثر ج1 ص 57
[4]) خلق المسلم ص 78
[5]) رواه مسلم ج14 ص 187 رقم 5242
[6]) تفسير القرطبي ج ص

ففي الآية تصوير لعاقبة الاتباع دون تعقل وتبصر لقائد أعمى هو الوقوع في الهاوية ولا شك ، وهو تصوير يدل على أن استهانة المتبعين بعاقبة أمرهم أوردتهم المهالك.

وهذا أشبه بمن اتبع دجال آخر الزمان ، قال رسول الله ﷺ (الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى جُفَالُ الشَّعَرِ مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ)[1]

قوله (وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ..) (هود 99) المقصود باللعنة هنا ما هو ضد الرحمة ، بذلك يتضح مدى العذاب الذي يحيط بهم في الدارين ، فلا دنيا استراحوا ولا آخرة نالوا منها خيرا ، بل هو السوء والضيق والعذاب يرصدهم في الدنيا وكذا في الآخرة ، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصاحب مخالفة الله ورسوله خير أبدا ، بل هو الشر كل الشر.

ونظير ذلك قوله (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) [القصص:41، 42]، أي أتبعوا بلعنتين :-

اللعنة الأولى في الدنيا ، حيث **سلط الله عليهم ما نكد عليهم معيشتهم** ، حيث فسدت زراعتهم بالطوفان ، وكثرت الحشرات فأكل الجراد ما بقي من زراعتهم ، وسلط القمل على رؤوسهم ،والضفادع في بيوتهم والدم في أوانيهم ، قال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (الأعراف 133) , وسمى الله لعنته في الدنيا رجزا فقال (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ **الرِّجْزُ** قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا **الرِّجْزَ** لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ (الأعراف 134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ **الرِّجْزَ** إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) (الأعراف 135).

والإسلام حرر المسلم من الاتباع لغير منهج الله تعالى طاعة لله ولرسوله ، وفي غير ذلك لا يتبع ، ولذلك قال ابن تيمية (**فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُوجِبْ عَلَى أَحَدٍ طَاعَةَ أَحَدٍ إلَّا طَاعَةَ رَسُولِهِ** وَالْأَخْذَ بِمَا جَاءَ بِهِ بِحَيْثُ لَوْ خَالَفَ الْعَبْدُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ مَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَحَدٍ فَإِنَّ مَنْ يُطِيعُ أَوْ يُطَاعُ إنَّمَا يُطَاعُ تَبَعًا لِلرَّسُولِ وَإِلَّا لَوْ أَمَرَ بِخِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ مَا أُطِيعَ ، فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاسْمَعْ وَأَطِعْ وَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ . تَكُنْ أَبْتَرَ مَرْدُودًا عَلَيْك عَمَلُك بَلْ لَا خَيْرَ فِي عَمَلٍ أَبْتَرَ مِنْ الِابْتِبَاعِ وَلَا خَيْرَ فِي عَامِلِهِ)[2].

واللعنة الثانية في الآخرة ، حيث يكونون مطرودين من رحمة الله ، فليس لهم في الآخرة إلا النار ، (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (هود 16)، قال تعالى (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر:46].

---

[1]) رواه مسلم ج14 ص 161 رقم 5222
[2]) مجموع الفتاوى ج16 ص 529

ولأن **سياسة فرعون هي أن يجعل متبعيه هم ذاتهم تابعين ومتبوعين** في ذات الوقت في تدرج هرمي للسلطة ، فيأمر كل تابع لفرعون كل من خلفه باتباعه طاعة لفرعون كذلك ليصير الجميع تابعين لفرعون بعمه ، بما يسمى بسياسة الاستعماء الاجباري ، فينفذون أوامره دون تعقل ، فإن الوزر الذي يحمله كل تابع يزيد بأوزار تابعيه كذلك ، مصداقا لحديث رسول الله ﷺ **(من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها)** ، فلعنة المعصية تلحقه حتى بعد موته ، ولذلك فإن من اللطيف ما ذكره الشعراوي في هذه الآية قال أي :(أن اللعنة قد بقيت لهم ، وما زلنا نحن المسلمين نلعنهم إلى الآن ، ثم يصيرون إلى اللعنة الكبرى ، وهي لعنة يوم القيامة)[1].

قوله (..بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) (هود/99) تضمن هذا الأسلوب ذم الصحبة ، قال البخاري (الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ)(الْعَوْنُ الْمُعِينُ رَفَدْتُهُ أَعَنْتُهُ)[2] ، إذ ظنوا أنهم بصحبتهم لفرعون منصورون وإذا هم خاسرون ومنهزمون ، وذلك مثل قول السحرة قبل إسلامهم (وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (الأعراف 113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (الأعراف 114) .

قال رسول الله ﷺ (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)[3]، فما نالهم من اتباع فرعون إلا الهلكة.

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 4293
[2]) رواه البخاري ج14 ص 267
[3]) رواه البخاري ج17 ص 214 رقم 5108

المحور التاسع

أخذ الله القرى الظالمة في الدنيا هو بداية لجمعهم يوم القيامة

قال تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (103) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (104) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)

هذه الآيات هي نواة هذه السورة ، فهي معقبة على ما سبقها من قصص ومبينة سبب هلاك تلك القرى ، وأن ذلك لم يكن إلا جزاءا وفاقا ، لما بدا منها من ظلم للعباد ، فالقصاص من الظالم يقع في الدنيا ويقع كذلك في الآخرة ، ولذلك يقول ابن تيمية (فَإِنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ وَعَاقِبَةُ الْعَدْلِ كَرِيمَةٌ وَلِهَذَا يُرْوَى "**اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً**)[1]

قوله (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ) (هود/100) أي ومن تلك القرى البائدة منها آثار قائمة من **جدران وأطلال** ، كما في قوله (قال فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (67) ، فهو **قائم ليشهد على فناء من كان فيها** ، وقد ضيعوا أعمارهم في البناء ، ولم يستفيدوا بأوقاتهم في العبادة ، يقول النبي ﷺ (**يُؤْجَرُ الرَّجُلُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلَّا التُّرَابَ أَوْ قَالَ فِي الْبِنَاءِ**)[2]لأن الإكثار من البناء عن الحاجة لا يفيد ، إذ يكفي ابن آدم مأوى يأوي إليه هو وأهله بقدر حاجته ، وما زاد فعليه ، يقول النبي ﷺ (**فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ**)[3]

وقد أوضح النبي ﷺ سبب ذلك أنه نوع من التلهي بالدنيا عن طلب الآخرة ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ مَرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **وَنَحْنُ نُصْلِحُ خُصًّا لَنَا** فَقَالَ مَا هَذَا قُلْنَا خُصًّا لَنَا وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ قَالَ فَقَالَ أَمَا **إِنَّ الْأَمْرَ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ**)[4] ، ذلك أن البناء يحتاج لكثير من الجهد والعمل ، ولادخار كثير من المال ، فينفقه صاحبه مرة واحدة ، ويتباهى ببنيانه ، وهو مستور الحال في الخيام ، ويوشك أن يفارق كل ذلك .

أما إذا كان الغرض من إصلاح البنيان هو توريثه للغير أو التجارة به ، فلا غرو أن إعمار الدنيا مطلب شرعي ، شريطة أن يخلو ذلك من التباهي والتفاخر والرياء .

---

[1]) مجموع الفتاوى ج28 رقم 63
[2]) رواه الترمذي ج9 ص 23 رقم 2407
[3]) رواه مسلم ج10 ص 448 رقم 3886
[4]) رواه أحمد ج13 ص 251 رقم 5213 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج2 ص115 ، وانظر صحيح وضعيف الجامع الصغير ج16 ص 101 رقم 7454 بلفظ (عريشا كعريش موسى ثمام وخشيبات والأمر أعجل من ذلك) تخريج السيوطي عن أبي الدرداء وقال حسن

ومنها ما هو كالحصيد (ليس فيه قائم ولا شاخص لاندراسها وذهاب آثارها)[1] كقوله (**فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**) [يونس: 24] ، فعن محمد بن كعب ، في قوله عز وجل منها قائم وحصيد قال : « القائم : ما كان من الجدر قائما ، والحصيد : ما وقع بالأرض »[2]، قال الضحاك (الحصيد الذي قد خرب ودمر)[3].

وعَنْ قَتَادَةَ قَالَ:"قُرًى خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا لاصِقً بِالأَرْضِ، وَلا تَرَى فِيهَا أَثَرًا".

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: " مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ " يَعْنِي بِالْحَصِيدِ"**قُرًى خَامِدَةً**"[4].

وفي ذلك كناية عن شدة غضب الرب حتى أن ديارهم طمست آثارهم لعظم جريمتهم ، وذلك كما حصل في قرى آل لوط ، قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا **جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا** وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) (82) ، وذلك لطمس آثار هذه الجريمة ، كما في قول رسول الله ﷺ (وَمَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ **فَاقْتُلُوهُ وَاقْتُلُوا الْبَهِيمَةَ**)[5]، وفي رواية قيل (ما بال البهيمة ؟ قال : **لا يقال هذه وهذه**)[6].

قوله (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ..) (هود/101) قال الزمخشري "وَمَا ظلمناهم" بإهلاكنا إياهم "ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ" بارتكاب ما به أهلكوا)[7] ، وهو ما يدل على استحقاقهم للعذاب في الدنيا ، وكذا في الآخرة ، وهو ما يقطع الطريق على أي متفلسف في هذا الموضوع .

قوله (.. فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) (هود/101) قال ابن القيم (من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به **لم يحصل له به إلا ضد مقصوده**)[8].

قوله (..وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) (هود/101) قال مُجَاهِدٍ: أي "تَخْسِيرٍ" ، وعَنْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ:"التَّتْبِيبُ: الشَّرُّ ، قَالَ: وَمَا زَادُوهُمْ إلا شَرًّا ، وَقَرَأَ " تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ " قَالَ: وَأَمَّا التَّبُّ: الْخُسْرَانُ وَالشَّرُّ مَا زَادُوهُمْ إلا خُسْرَانًا"[9].

قوله (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (هود/102) أي ما سبق سرده من حكايات تدل على انتقام الله من الظالمين يستبين منه كذلك علة إهلاكهم واستئصالهم من الوجود ، ذلك أن الظلم لابد وأن يُعاقب علي ظلمه في الدنيا قبل الآخرة ، فعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ **لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** قَالَ ثُمَّ قَرَأَ(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)[10] .

---

[1]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 190
[2]) التفسير من سنن سعيد بن منصور ج3 ص 496 رقم 1048
[3]) الدر المنثور ج6 ص 341
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج 8 ص 259
[5]) رواه ابن ماجة ج7 ص 466 رقم 2554 وصححه الألباني : صحيح سنن ابن ماجة ج 2 ص82
[6]) ابن قدامة : المغني ج20 ص 82 ، الشرح الكبير لابن قدامة ج10 ص 179
[7]) الكشاف ج3 ص 119
[8]) إعلام الموقعين ج1 ص 155
[9]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 260
[10]) رواه البخاري ج14 ص 268 رقم 4318

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **(مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)**[1]

قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ) (هود/103) تعليل لذكر هذه القصص وسردها في القرآن متفرقات بين سورة وأخرى ، قال تعالى **(سيذكر من يخشى)** (الأعلى/10) ، وقال **(إنما أنت منذر من يخشاها)** (النازعات/45) ، قال ابن القيم(والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على **تفاوت الافهام** في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء)[2] ، (وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه إذا سمع ذلك ، قال لم يزل في الدهر الخير والشر والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوة وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية)[3].

قوله (ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) (هود/103) ونظيره قوله (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ **لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**)(التغابن 9) ، وقوله **(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ** وَالْأَوَّلِينَ)(المرسلات 77)

قوله (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) (هود/103) قيل المشهود هو يوم القيامة والشاهد رسول الله ﷺ يشهد على أمته ، ومعلوم أن الحساب على مرأى ومسمع من الجميع ، فلا يستر الله في الحساب غير المؤمن ، أما الكافر فيفضحه على رؤوس الخلائق ، قال رسول الله ﷺ (يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ قَالَ فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ)[4]

بل وتشهد الأعضاء والجوارح والجلود والألسن ، وتنطق بما تشهد ، كما يشهد الأنبياء والرسل على قومهم ، وتشهد الآثار والأماكن في الدنيا تشهد بما وقع فيها ، والله يشهد وكفي به شهيدا على ما فعل ابن آدم .

قوله (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) (هود/104) ذلك أن **الدنيا لابد وأن يكتمل فيها الابتلاء للإنسان** ، قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء 35)، والأجل المعدود هو أعمار الناس المحدودة في الدنيا ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: " أَجَلٍ " يَعْنِي"الْمَوْتَ"[5]، فمن مات قامت قيامته .

وهذا التأخير يدل على رحمة الله بعباده ، **ليترك لهم الفرصة للتوبة** ، لعلهم يستفيدون بها ، قال تعالى (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ **يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل 61)

---

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 24 رقم 29 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1ص14
[2]) زاد المهاجر ج1 ص 72
[3]) الفوائد ج1 ص 131
[4]) رواه مسلم ج13 ص 343 رقم 4972
[5]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 262

قوله (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) (هود/106) يدل على رهبة الموقف ، كما صوره قوله تعالى (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ **يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا**) (المزمل 17) ، وقوله (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا **لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ** الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) (النبأ 38) ، فإذا أذن بالكلام كان الشغل الشاغل لهم الاستشفاع بالأنبياء ، فلا يجدون لهم شفيعا إلا محمد ﷺ ، هو الذي يؤذن له بالكلام في ذلك الموقف .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَيَقُولُ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ ائْتُوا عِيسَى فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ لِي ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنْ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ)[1]

قوله (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (هود/105) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَعَلَى مَا نَعْمَلُ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ أَوْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يُفْرَغْ مِنْهُ قَالَ بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ يَا عُمَرُ وَلَكِنْ **كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**)[2] لا تفيد الجَبْرْ؛ وإنما يعني أنَّ الله سبحانه علِمَ **أنّ هؤلاء سيعملون بعمل أهل النار** وكَتَبهُمْ من أهل النار، وأنهم لِمَا في نفوسهم من الخُبْثْ سيكونون من أهل النار، فسيتركهم الله ? لأنفسهم؛ يعني سيخْذُلُهُمْ، فإذا خذلهم يُسِّر لهم سبيل الضلال. يعني أنَّ التيسير لأهل الجنة فيه زيادة فضل والتيسير لأهل النار فيه سلب الفضل. **وهذا يعني أنْ لا جَبْرَ، وأنَّ الجميع مُعامَلُون بعدل الله** ?، وأنَّ أهل الجنة عاملهم الله (زيادة على عدله بأن منحهم فضلاً ويَسَّرَ لهم وأعانهم على الخير)[3].

قوله (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) (هود/106) أهل الشقاوة هم أهل الشقاء في الآخرة ، وليس هم أهل الشقاء في الدنيا ، يقول النبي ﷺ (**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ**)[4].

قال ابن عباس ("الزفير" : الصوت الشديد ، و"الشهيق": الصوت الضعيف)[5]، وفي ذلك **تهويل** لعذاب أهل النار ، بأن أنفاسهم التي يأخذونها عذاب ، وذلك أحسن ما لهم في النار ، **فيعدون الأنفاس** كما نعد نحن الأيام والشهور والسنين ، لصعوبة العذاب فيها وشدته ، **وكأن الدهر يمر عليهم في كل نفس** .

---

[1]) رواه البخاري ج20 ص 229 رقم 6080
[2]) رواه الترمذي ج10 ص 379 رقم 3036 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج7 ص 111 رقم 3111
[3]) الشيخ صالح بن عبد العزيز آل شيخ : إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل ج17 ص2
[4]) رواه مسلم ج13 ص 411 رقم 5021

قوله (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (هود/107) الله أعلم في هذا السياق بمراده من ديمومة السماوات والأرض ، وهل هو مجاز أم على الحقيقة بأنهما السماء والأرض المبدلتين ، قال قتادة : (الله أعلم بثنياه)[1].

قال الطبري بأن المعنى أنهم يمكثون فيها (بقدر ما مكثوا في النار قبل دخُولهم الجنة ، قالوا: وذلك فيمن أخرج من النار من المؤمنين فأدخل الجنة)[2]، فإذا كان ذلك كذلك ، كان حجة قوية لمن حمل معنى "الخلود" علي المكث الطويل في النار ، لا الديمومة لا إلى نهاية ، وهو ما رجحه كثير من المفسرين[3].

قوله (إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ) هو استثناء على الحقيقة –ولاشك – قال ابن زيد : أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: "عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ" ، لم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار)[4].

لكن الأدلة والأحاديث النبوية تدل على أن المعنى أن **ثمة من يخرجهم الله من النار** ، قال الضحاك : (إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة)[5] ، قال قتادة (ثم استثنى ، فقال : (إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ) ، يعني الموحدين الذين يخرجون من النار)[6].

وقد فهم الشعراوي من قوله "(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات) [إبراهيم : 48] " أن المقصود في قوله " مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ " **هو السماوات والأرض المبدلة** ، فقال (ونلحظ أن الحق جاء في أمر خلود الأشقياء بالمشيئة فقال : (إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ) ، فكأن خلود الأشقياء في النار تنقضه وتضع نهاية له مشيئة الله؛ لأن **الأشقياء ليسوا هم الكفار فحسب ، بل منهم بعض المؤمنين العصاة الأشقياء** ، وهؤلاء المؤمنون العصاة سيدخلون النار على قدر حظهم من المعاصي ، وساعة تقوم الساعة ويأتي الجزاء يدخلون النار ويأخذون جزاءهم ، لكن بعد أخذ الجزاء يخرجون ، إذن ، فسينتهي الخلود من آخر الزمن ، فيكون المعنى : (إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ) أن يستمروا في النار إلى وقت محدد) .

قوله (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) وصف الله أهل الجنة بالسعداء رغم ما سبق أن مر بهم من شقاء وحزن وهم وغم ، حتى قالوا (الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن) ، ذلك أن غمسة في الجنة تكفي لإذهاب كل هذه الآثار ، قال رسول الله ﷺ (**وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ**

---

[5]) تفسير الماوردي : النكت والعيون ج2 ص 504
[1]) مختصر تفسير البغوي ج4 ص 101 لعبد الله بن أحمد بن علي الزيد
[2]) تفسير الطبري ج15 ص 487
[3]) البحر المحيط ج4 ص 170 ، ابن كثير ج2 ص 381 ، تفسير أبي السعود ج2 ص 187 ابن القيم : التفسير القيم لابن القيم ج1ص230
[4]) مختصر تفسير البغوي ج4 ص 101 لعبد الله بن أحمد بن علي الزيد
[5]) مختصر تفسير البغوي ج4 ص 101 لعبد الله بن أحمد بن علي الزيد
[6]) تفسير مقاتل ج2 ص 135

يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) [1].

قوله (مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) (هود/108) قال ابن تيمية (**أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة**، كما ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال : (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسَقْفُه عرش الرحمن) ، وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء105] ، هى أرض الجنة ، وعلى هذا، فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التى هى سقف الجنة، إذ **كل ما علا فإنه يسمى فى اللغة سماء**، كما يسمى السحاب سماء، والسقف سماء)[2] .

قوله (..إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ ..) (هود/108) يقول الشعراوي (نلحظ بالنسبة للجنة في قوله (إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ) **فالاستثناء يكون من البدء** ، لماذا؟ لأن المؤمن الذي عصى الله لن يدخل الجنة من البداية ، وإنما سيقضي فترة في النار ثم يدخل الجنة ، إذن فالخلود في الجنة بالنسبة له قد نقص من أوليته)[3] .

قوله (..عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) ، أي: غير مقطوع ، ولا محدود ، ولا بقدر أعمالهم ، بل هو بقدر رحمة الله بهم .

وقد ألمح الشعراوي إلى فائدة ربط عطاء الله بديمومة السماوات والأرض الإشارة إلى **تغيير** قوانين الآخرة عن قوانين الدنيا ، وأسباب عطاء الدنيا **بعطاء الآخرة الذي لا يرتبط بأسباب** ، فيقول (السماوات والأرض الآن؛ تختلف عن السماوات والأرض في الآخرة ، إن السماوات والأرض في الدنيا هي أسباب ومعاش ، أما في الآخرة فنحن لا نأكل بالأسباب ، إنما بالمسبب ، نحن نحيا في الآخرة بكلمة «كن» ، ولا نعيش بأسباب الحرث والزرع والمطر . إن الحق يبدل السماوات والأرض في اليوم الآخر ، واقرأ إن شئت قول الحق : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات) [إبراهيم : 48] .

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 411 رقم 5021
[2]) مجموع فتاوى ابن تيمية ج3 ص 308
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 405

المحور العاشر

إيصاء النبي محمد ﷺ وأصحابه وتابعيهم بالاستقامة

هذه الوصايا من ثلاثة أجزاء :-

الأول : الاستقامة علي علاج أصل الضلال وهو التحرير من التبعية العمياء دون تفرقة بين مشركي مكة ، ومشركي أهل الكتاب

الثاني : الاستقامة على حد الاعتدال في الدعوة دون طغيان أو ركون للظالمين

الثالث : الاستقامة على التزام حالي الشكر والصبر معا

الجزء الأول من الوصايا

الاستقامة على علي علاج أصل الضلال وهو التحرير من التبعية العمياء

قال تعالى (فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (109) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111)

قوله (فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)(هود 109) أمر تكليفي للنبي ﷺ بأن لا يفرق بين كفار مكة وآباءهم في شأن ضلالهم في العبادة عن غيرهم من أهل الضلال ، لينظر إلى أصل المسألة وهي أن **أصل الضلال "الاتباع الأعمى"** لاسيما لعادات وتقاليد الآباء والأجداد دون تبصر ، ما يعني أن إلههم جميعا هو الهوى ،فقوله (مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم) ، قال الجزي أي : (هم متبعون لآبائهم تقليداً من غير برهان)[1] ، أي أن الكفر كله مهما اختلفت مسمياته ملة واحدة .

الأمر الذي يحيل نظر النبي إلى أنسب الطريقة لدعوة هؤلاء إلى الإسلام وقد تحكمت فيهم العادات والتقاليد الموروثة عن آباءهم فأغلقت أسماعهم وأبصارهم ، الأمر الذي يهدد باستئصالهم ، إذ لا جدوى لإيصال الدعوى لمن أصيب بالصمم والعمى عن الهدى إلا بعد أن يتحرر من رق الاستعماء ، قال تعالى (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ) (الصافات/69-70) ، فإما أن يتحرروا من رق التبعية لفرعون الأمة – ففي كل أمة فرعون يقودهم إلى الضلال – فتسهل مخاطبتهم بخطاب الله ، وإما أن يظل هذا الطوق على رقابهم ، وعندئذ يستدرجهم الله من حيث لا يعلمون .

قوله (..وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ)(هود 109) فهذا هو استدراج الله لهم ، وبيان لعلة تأخير عقابهم أو استئصالهم ، بأن الله يؤخر ذلك حتى يستوفوا نصيبهم الذي قدره لهم في الحياة الدنيا ، وذلك لعلتين أحدهما إقامة الحجة ، والأخرى لينالوا أجر ما عملوا من خير فيها ، أي أن هذا هو حال الذين فتح الله عليهم الدنيا رغم ظلمهم وآخر عقابهم حتى إذا ما اطمأنوا لها أخذهم بغتة وهم مبلسون .

قال العلماء (قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلى يقين من مذهبهم، وربما يتوهم أيضاً أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك)[2] ، ولكن الله لن ينقصهم منها شيئا ، لقوله ﷺ (**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنْ الدُّنْيَا**) [3] ، وعن ابن عباس في قوله (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) قال : (**ما قدر لهم من خير وشر**) [4].

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 716
[2]) السعدي : القواعد الحسان في تفسير القرآن ج1 ص 77
[3]) رواه مسلم ج13 ص 414 رقم 5023
[4]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 272 ، الدر المنثور ج5 ص 349

فإذا وفاهم نصيبهم من خير الدنيا ، فإنه يوفي نصيب عباده المظلومين منهم –أولا– بأن ينزل بهم عقوبة الاستئصال –قصاصا– تلك التي لحقت بأبائهم وأسلافهم ، فلم يعتبروا بحالهم ، بل اتبعوا نهجهم دون تعقل ، قال الزمخشري (وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزلنّ بهم مثله)[1]، قال ابن عاشور فالآية (سيقت مساق التثبيت من جراء تأخير عقاب الذين كذبوا)[2]، فعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِ اللَّهِ: " وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ " قَالَ:"مُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرَ مَنْقُوصٍ"[3].

قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)(هود 110) التفات إلى صورة من ضلال بني إسرائيل الذين حررهم موسى من رق التبعية لفرعون ، وجاءهم موسى بالعلم ، وهو كتاب التوراة ، لكنهم لم يجتمعوا عليها ، ولم يأخذوها بقوة ، بل اختلفت قلوبهم عليها ، فبعضهم آمن به ، وبعضهم عاندوا نبيهم ولم يأخذوا به ، وبعضهم عملوا بالتوراة ، وبعضهم وحرفوا الكلم عن مواضعه عملا بالهوى ونبذا لأحكام الله التي خالفت أهواءهم .

ما يعني أن الهداية تتم على مرحلتين ، الأولى وهي التحرير من رق التبعية ، والثاني العلم عن الله ، ويقف الهوى حائلا دون حصوله ، فالشاهد أن هؤلاء كانوا مؤمنين بدعوة موسى لأجل النجاة من فرعون ، والتحرر من بطشه ، ولكن ذلك لم يكن كافيا لحصول الهدى لهم ، فنكثوا على أعقابهم ، ومنهم من عبد العجل ، فهذا مثال ضربه الله تعالى لأمة محمد حتى لا تختلف في الأخذ بكتاب الله وهو القرآن ، كما اختلف أهل الكتاب علي أنبيائهم ، وكان الأولى لأهل الكتاب أن يكونوا أول الناس تبعا للنبي محمد ﷺ لأنهم أعرف الناس بالله ، ولكن حالت قلوبهم التي أشربت بالهوى عن قبوله ، فالذي حدث هو حصول الاختلاف والتفرق بينهم ، لتنطعهم في الدين وكثرة أسئلتهم التي لا يبنى عليها عمل ، ما يعني أن سبب ضلالهم جميعا هو عبادة الهوى ، واتخذوا من التنطع في الدين مهنة لأن يتحايلوا على أحكام الله ، قال رسول الله ﷺ "مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ **فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ** "[4]

قوله (..وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)(هود 110) فهؤلاء الذين اختلفوا في الكتاب لا يقضي الله بينهم بعذاب في الدنيا ، مثلما فعل بغيرهم من الأمم الظالمة ، بل يظل اختلافهم سبب شقائهم في الدنيا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ **لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**)[5]

---

[1]) الكشاف ج3 ص 125
[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 344
[3]) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 272
[4]) رواه مسلم ج12 ص 43 رقم 4348
[5]) رواه مسلم ج14 ص 68 رقم 5144

فقد كتب الله على هذه الأمة أن تُطهر نفسها بأنفسها ، فتحصر المرض والداء الذي ألم بأبنائها وتنبذه ، كما في قوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ **جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (التوبة 73) (التحريم 9)

قوله (..وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)(هود110) توصيف دقيق لحالة عدم تمكن الإيمان من دخول قلوبهم ، وارتيابهم في الحق ، وترددهم في قبوله ، فهذا أشبه بحال كثيرين ممن **رفض هذه الدعوة ، وإن كان في قلبه شيء من الرضا بها ، ولكن هواه منعه من القبول التام لها** ، وهذا مثل حال أبي طالب منعه من قبول الدعوة سيادته لقومه ، فخاف أن يعيروه باتباع أمر ابن أخيه ، وهو سيد قومه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّهِ:"قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: **لَوْلا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ لأَقْرَرْتُ عَيْنَكَ بِهَا**)[1] ، فحالت هذه النزعة الجاهلية دون قبول الإيمان ، وتدخل الهوى فأفسد الإيمان ، رغم أنه كان من أشد المناصرين للنبي ﷺ والمدافعين عنه رغم أنه كان على الكفر .

قوله (وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (هود111) لفظ (كلا) يعم الأمم المكذبة برسالة الأنبياء ، والأمم التي اختلفت في كتبهم ، قال ابن عاشور (والتقدير: وإن كلهم، أي كل المذكورين آنفا من أهل القرى، ومن المشركين المعرض بهم، ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى عليه السلام) [2]

وفي هذه الآية سبع تأكيدات ، جمعها الرازي [3]

أولها : كلمة " إن " وهى للتأكيد

وثانيها كلمة " كل " وهى أيضا للتأكيد

وثالثها : اللام الداخلة على خبر " إن " وهى تفيد التأكيد – أيضا –

ورابعها حرف " ما " إذا جعلناه على قول الفراء موصولا

وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم والله ليوفينهم

وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، فى قوله " ليوفينهم "

وسابعها : النون المؤكدة فى قوله " ليوفينهم " .

قال طنطاوي (فهذه توكيدات متنوعة في الآية الكريمة ، **حتى لا يشك أحد فى نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل** ، وحتى لا يشك – أيضا – فى أن ما عليه المشركون هو الباطل الذى لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذى تلقاه الخلف عن السلف ، وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية ..–قبيل الهجرة– يستلزم هذه التأكيدات تثبيتا لقلوب المؤمنين ، وتوهينا للشرك والمشركين)[4] .

---

[1]) تفسير ابن أبي حاتم ج11 ص 323

[2]) التحرير والتنوير ج11 ص 337

[3]) مفاتيح الغيب ج18 ص 56

[4]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2263

قوله (..إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (هود 111) قال ابن كثير أي: (عليم بأعمالهم جميعها، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها) ، ذلك أن كثير من التابعين للظالمين قد عُمِّي عليهم ، وهؤلاء قد يكونوا معذورين ، ولذلك فإن الله يقيم الحجة عليهم يوم القيامة باختبار يختبرهم به ، والله مطلع على قلوبهم خبير ما فيها من خير أو شر ، واستقامتها على ذلك

يقول النبي ﷺ (أربعة يوم القيامة يدلون بحجة أصم لا يسمع ورجل أحمق ورجل هرم ومن مات في الفترة فأما الأصم فيقول : يا رب جاء والصبيان يقذفوني بالبعر وأما الهرم فيقول : لقد جاء الإسلام وما أعقل وأما الذي مات في الفترة فيقول : رب ما أتاني رسولك فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار) قال : (فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما)[1] .

[1]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج1 ص 287 رقم 845

الجزء الثاني من الوصايا

الاستقامة على حد الاعتدال في الدعوة دون ركون للظالمين

قال تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ (113) وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

قوله (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (هود/112) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ قَالَ شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)[1] ، وذلك لعظم أمر الاستقامة [2].

فعن عمر في قوله تعالى"إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا" قال: "**استقاموا لله بطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعلب**"[3].

وعن سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيَّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي **بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ** قَالَ **قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ** قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **بِلِسَانِ نَفْسِهِ** ثُمَّ قَالَ هَذَا)[4]

وفي رواية عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ قَالَ **قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ**)[5]، (والمعنى استقم على العمل بطاعة الله)[6] ، أي التزم طاعة الله ، ومنهج الله ،.

والاستقامة ليست تعني الانعزال بمنهج الله عن البشر ، فمنهج الله نزل لإصلاح حال البشر جميعا ، بل معناها الاستعانة بأهل الإيمان على طاعة الله ، للانخراط بين البشر بمنهج الله ، ولذلك ورد عطف جملة (**ومن تاب معك**) على الأمر بالاستقامة ، فخير صديق من يعين صديقه على الاستقامة على منهج الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**)[7] .

قوله (وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (هود/112) الطغيان هو مجاوزة الحد ، أي حد الشريعة ، والاعوجاج عن طريق الاستقامة ضرب من الطغيان والانحراف عن الصراط المستقيم ، فمن المأثور الوصية بأن (الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها) [8]، فالتنطع وكثرة السؤال بلا فائدة نوع من الطغيان ، ويقول النبي ﷺ (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا)[9] أي المتشددون .

---

[1]) رواه الترمذي ج11 ص 106 رقم 3219 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج 3 ص 113 رقم 2627
[2]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج1 ص 208 وقد ذكرناه في مقدمة السورة
[3]) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج2 ص 495 رقم 4586
[4]) رواه ابن ماجة ج11 ص 468 رقم 3962 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص358 رقم 3208
[5]) رواه مسلم ج1 ص 145 رقم 55
[6]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 1143
[7]) رواه أحمد في مسنده ج17 ص 107 رقم 8065 وغيره وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص1 رقم 927
[8]) رواه الدارقطني في سننه ج4 ص 183 رقم 42
[9]) رواه مسلم ج13 ص 154 رقم 4823

كما أن الاستقامة لا تعني تحزب النبي ﷺ مع أصحابه والانغلاق بدعوتهم على أنفسهم لأجل الاستقامة على المنهج ومخاصمة غيرهم ممن انعوجوا عن الصراط ، بل ينبغي على أهل الاستقامة أن يترأفوا بمن حولهم ، ويختلطوا بهم حتى يقتدون بهم ، يقول النبي ﷺ (**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**)[1].

ولذلك أمر النبي ﷺ بالتخفيف في صلاة الجماعة على الناس ، ومن أراد الاستزادة فليتطوع ما يشاء ، وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلَانٌ فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ ، **فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ** فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ)[2].

وقد كان النبي ﷺ معلما ويحبب الناس في الخير ، ولذلك اجتمع عليه أهل الاستقامة جميعا قويهم وضعيفهم ، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمْ الصَّلَاةَ فَقَرَأَ بِهِمْ الْبَقَرَةَ قَالَ **فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً** فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا فَقَالَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ **إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا** وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ فَتَجَوَّزْتُ فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ ثَلَاثًا اقْرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَسَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَنَحْوَهَا)[3]

فالذي يسير بالناس في طاعة الله لابد وأن يراعي أن فيهم الضعيف والعجوز وذي الحاجة ، فيسير بسير الضعيف فيهم ولا يسير بسير القوي ، وإلا فقد الجيش أغلب جنوده ، وهو ما يتماشى مع المبدأ العربي القائم "الضعيف أمير الركب" ، بمعنى تعني أن المسافرين في الركب يجب ألا تتجاوز سرعتهم على سرعة الدابة الضعيفة أو الرجل المريض المترجل ، لئلا ينقطع أحد أو يتخلف عن الركب ، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وبقدر ذلك يتماسك المجتمع المسلم ويقوى ، أما إن سار كل واحد بسرعته وسبق غيره ترك الفتنة خلفه ، بل قد تطوله هو فيكون فريسة للذئاب ،والقائد المسؤول هو مَن يتولى أمور الناس بالنظر إلى أضعفهم لا أقواهم ، فيضبط إيقاع العمل الجماعي على حسب ذلك ، ويبطئ سرعة الركب ليلحق به الضعفاء ، فيتخذ القرارات بناءً على طاقة وقدرة أضعف الناس حالاً، لا أقواهم وأقدرهم .

قوله (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) (هود/113) (الركون هو الميل اليسير)[4]، قال الجياني (**أي لا تطمئنوا إليهم ولا تسكنوا إلى قولهم**)[5]، قال ابن عجيبة (**لا تميلوا إليهم أدنى ميل**، كالتزيي بزيهم ، وتعظيم ذكرهم ، وصحبتهم من غير تذكيرهم)[6] .

---

[1]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية وصحيح الأدب المفرد ج1ص162 رقم 300/388

[2]) رواه البخاري ج1 ص 160 رقم 88

[3]) رواه البخاري ج19 ص 62 رقم 5641

[4]) البحر المحيط ج6 ص 477

[5]) التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 239

[6]) البحر المديد ج3 ص 79 الدر المنثور للسيوطي ج5 ص 350 عن أبي العالية ،

ومن الركون الرضا بأعمال الظالمين [1]، قال ابن عالية أي (**لا ترضوا أعمالهم**)[2] ، فأقل درجات إنكار المنكر إنكاره بالقلب ، وليس بعد ذلك شيء من الإيمان ، وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ(إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أَئِمَّةٌ تَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِيءَ وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ **وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ** فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ قَالَ لَا مَا صَلُّوا)[3].

قوله (وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ) (هود/113) **تعليل للنهي عن الركون للظالمين** ذلك أن غالب حال الذين ركنوا للظالمين أنهم ما لجأوا لهم إلا لأجل طلب النصرة ، والله بين لهم أنهم لن ينصروا بهؤلاء الظالمين الذين ركنوا لهم ، فليس للمسلم ولي غير الله سبحانه ورسوله والمؤمنون ، ومن ابتغى وليا غيره الله ، فلن ينصر به ، قال تعالى (**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**) (الشورى) .

---

[1]) ابن القيم : بدائع الفوائد ج3 ص 633

[2]) تفسير الطبري ج 15 ص 500

[3]) رواه الترمذي ج8 ص 220 رقم 2191 وصححه الألباني : صحيح وضعيف الترمذي ج5 ص 265 رقم 2265

الجزء الثالث من الوصايا

الاستقامة على الالتزام بحالي الشكر والصبر

قوله (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (هود/114) فكثرة الصلاة لاسيما النوافل دليل علي التزام العبد حال الشكر لله ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ أَتَمَّ الْوُضُوءَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى **فَالصَّلَوَاتُ الْمَكْتُوبَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ**)[1].

فالصلوات مكفرات للذنوب ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالُوا لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالَ فَذَلِكَ **مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**).

وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ **كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ**)[2]

لكن هذا الإطلاق مقيد بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ **إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**)[3]، والمقصود بالكبائر أشد درجات الجرم في جنس كل معصية

ومن المعلوم أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار ، فسبب نزولها ما روي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ (وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) قَالَ الرَّجُلُ أَلِيَ هَذِهِ قَالَ ﷺ (**لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي**)[4] .

قوله (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (هود/115) الأمر بالصبر في هذه الآية انضم إلى قائمة الأوامر التي ذكرت بالصبر في القرآن ، كما في قوله تعالى (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ **وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ** وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (يونس/109) ،وقوله سبحانه (**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ** وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) (النحل/127)، وقوله عز وجل (**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) (الطور/48) ، وقول الله تعالى (**وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ** وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) (المزمل/10) ، وجميعها في مقام الصبر على المشركين وآذاهم القولي للنبي ﷺ ، فالذي يتبع النبي ﷺ لابد وأن يمضي على طريق الدعوة لابد وأن يبتلى ، وعليه أن يصبر ، ولذلك فإن الجائزة التي أعدها الله له هي تلك التي أعدها للمحسنين ، قال تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن60).

---

[1]) رواه مسلم ج2 ص 17 رقم 339
[2]) رواه مسلم ج2 ص 22 رقم 343
[3]) رواه مسلم ج2 ص 23 رقم 344
[4]) رواه البخاري ج14 ص 270 رقم 4319

خاتمة سورة هود

تثبيت فؤاد النبي ﷺ على معنى أن الإصلاح يمنع هلاك القرى

قال تعالى (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (122) وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

قوله (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ) (هود 116) قال أبو حيان ("**لولا**" هنا للتحضيض ، بمعنى **التفجع والتأسف** الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد ، وهذا نحو قوله (**يا حسرة على العباد**)[1]

قال الثعالبي في قوله (أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ) أي : أولو **بقيةٍ مِنْ عقْلٍ وتمييزٍ ودينٍ** ، (يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد) وإنما قيل (بَقِيَّةٍ) ؛ لأن الشرائعَ والدوَل ونَحْوَها ، **قوَّتُها في أولها ، ثم لا تزال تَضْعُفُ ، فمن ثَبَتَ في وقْتِ الضعْفِ ، فهو بقيَّة الصدْرِ الأول**)[2]

وقوله (يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ) فيه (حض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[3] ، قال طنطاوي (فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا من أنجينا منهم) [4]، والمعني أن الله لا ينجي إلا الذي يأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر

وقوله (..يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ) فيه حض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[5] ، قال طنطاوي (فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا من أنجينا منهم) [6]، والمعني أن الله لا ينجي إلا الذي يأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر .

---

[1]) البحر المحيط ج6 ص 481
[2]) تفسير الثعالبي ج2 ص 246 وذكره غير واحد من المفسرين / أبو حيان الأندلسي البحر المحيط ج6 ص 481
[3]) تفسير الألوسي ج8 ص 416
[4]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2268
[5]) تفسير الألوسي ج8 ص 416
[6]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2268

وقوله (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أهل الاستقامة عليهم ، حتى فَجَأهم العذابُ، (وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)[1]أي متلبسين بالجرم حين جاءهم أمر الله .

وهو ما يدل كذلك على أنهم **كانوا يتبعون الظالمين لأجل أن ينالوا حظا من الترف ، وليست المسألة قاصرة على الرهبة والخوف فحسب** ، فليس ذلك هو وحده سبب الاتباع ، وهكذا يفارق أهل الجلد أهل الترف ، **فكلما رغب أهل الاستقامة في الاخشوشان وسلموا من الترف تحصنوا من متابعة الظالمين** ، والعكس كذلك صحيح .

قوله (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود/117) استثناء من أن يعم العذاب جميع أهل قرية معينة ، إذا ما استحقت الهلاكة لما بدر من ظلم وقع من مترفيها ، فعَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ** قَالَ (**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**) [2]، وكان عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ (كَانَ يُقَالُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ وَلَكِنْ **إِذَا عُمِلَ الْمُنْكَرُ جِهَارًا اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ كُلُّهُمْ**)[3].

فمناط النجاة من عذاب الله تعالى في الدنيا هو استقامة دعوة أهل الحق علي الدعوة في سبيل الله ، والسعي بالإصلاح بين الناس ، وإنكار المنكر على أهل المنكرات ، والأمر بالمعروف قدر الوسع والإمكان ، وإلا فلا نجاة لأحد من عذاب الله وإن كان صالحا ما لم يكن مصلحا .

ـ الفرق بين الصالح و المُصلح ..

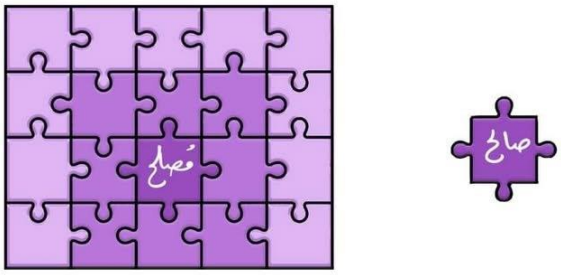

فالنجاة والرفعة في الدنيا والآخرة ليست فقط **بالصلاح الفردي** الذي يحصر خيره في النفس، بل تتجاوز ذلك إلى الإصلاح الذي يتعدى بالفرد ليشمل الآخرين وإصلاح مجتمعه، كما ورد في سياق قوله : "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُون"، حيث تُظهر هذه الآية أن الله يحفظ الأمم من الهلاك بوجود المصلحين فيها، ولا يكتفي بالصالحين الذين قد يقتصر صلاحهم على أنفسهم فقط.

روي البيهقي في سننه عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (أوحي الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام أن أقلب مدينة كذا و كذا بأهلها قال : فقال يا رب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال

[1]) تفسير ابن كثير ج 4 ص 361
[2]) رواه البخاري ج11 ص 432 رقم 3331
[3]) موطأ مالك ج6 ص 136 رقم 1574

: فقال : **اقلبها عليهم فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط)**[1] ، ويعضد هذا المعنى ما روي عن رسول الله ﷺ قال (**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ)** [2] .

وعن رَسُول اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ)**[3]

قوله (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) * ..(هود/118-119) بيان لسبب اختلاف الناس على أنبيائهم ، وانقسامهم لفريقين منهم المؤمن ومنهم الكافر ، بأن تلك هي **إرادة الله تعالى الكونية** ، بأن لا يحملهم على عبادته قسرا ، بل يخيرهم فيهديهم أي النجدين ، فمن اختار الهدى وفقه الله للهدى ، ومن اختار الضلال وكله الله لنفسه ، فصار الدنيا للفريقين دار ابتلاء ، وليست دار جزاء .

قوله (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ..) (هود/118-119) أي ما خلقهم إلا لعبادته ، قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات56) ، وذلك بأن ابتلى بعضهم ببعض ، قال سبحانه (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) (محمد 6) .

قوله (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود/118-119) أي أن كثير منهم اعوج عن الصراط وعبد غير الله ، ولذلك قال النبي ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ)**[4].

قال ابن عاشور (لما كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنه ليس ظلما من الله ، وأنهم لو كانوا مصلحين لما أهلكوا، لما كان ذلك كله **قد يثير توهم** أن تعاصي الأمم عما أراد الله منهم خروج عن قبضة القدرة الإلهية **أعقب ذلك** بما يرفع هذا التوهم بأن الله قادر أن يجعلهم أمة واحدة متفقة على الحق مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا ، ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن يكون **نظام عقول البشر قابلا للتطوح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حجب الضلالة)**[5]..... وهذا وجه مناسبة عطف جملة: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) على جملتي (وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) ومفعول فعل المشيئة محذوف لأن المراد منه ما يساوي مضمون جواب الشرط فحذف إيجازا. والتقدير: (ولو شاء ربك أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلهم كذلك)[6].

---

[1]) فالحديث وإن كان فيه ضعف في سنده إلا أن معناه يوافق الآية تماما .
[2]) رواه أبو داود ج11 ص 413 رقم 3775 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج 9ص338 رقم 4338
[3]) رواه أبو داود ج11 ص 413 رقم 3775 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج 9ص338 رقم 4338
[4]) رواه مسلم ج13 ص 137 رقم 4813
[5]) التحرير والتنوير ج11 ص 348
[6]) التحرير والتنوير ج11 ص 348

قوله (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ..) (هود/120) بينت هذه الآية العلة من سرد القصص التي تناولتها السورة ، حيث ذكرت قصص (نوحٍ ومَن كَذَّبَ به ، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى) ، **فهذه الآية هي عماد هذه السورة** ، لأنها تعلل سبب ورود وسرد هذه القصص .

قال ابن الجوزي (معنى تثبيت الفؤاد ، تسكين القلب – ليس للشك – ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر كان القلب أثبت)[1]، فما سبق ذكره من قصص الأنبياء كان **بغرض تثبيت قلب النبي ﷺ على الحق** وطريق الدعوة والاستمرار في موعظة قومه ،وتذكير للمؤمنين الذين معه **بمعالم هذا الطريق** ، من هنا نتعلم أن **الجهر بالحق والقول به والدعوة إليه يثبت الفؤاد على الحق فيستقيم عليه حتى يلقى الله** ..

قال ابن القيم (فالخلق كلهم قسمان موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت ، ومادة التثبيت أصله ومنشأه من **القول** الثابت ،**وفعل** ما أمر به العبد ، فبهما يثبت الله عبده ، فكل من كان **أثبت قولا وأحسن فعلا** كان أعظم تثبيتا ، قال تعالى (ولو أنهم **فعلوا ما يوعظون به** لكان خيرا لهم **وأشد تثبيتا**) فأثبت الناس قلبا أثبتهم قولا)[2]

قوله (..وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (هود/120) أي جاء لنبي الله ورسوله في هذه السورة[3] من القصص [4]ما هو حق للاعتبار بها ، وفيها موعظة وذكرى للمؤمنين الذي يحملون معه هم هذه الدعوة المباركة ، ومنها يستخرجون الدروس والعبر والمواعظ ، ويتذكرون في موطن العمل والجهاد في سبيل الله ما يضع لهم معالم الصراط المستقيم .

قال ابن كثير (في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نَجّاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها **قَصَصُ حق، ونبأ صدق**، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقر بها المؤمنون)[5]

قوله (وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) (هود/121) تأكيد على المفاصلة والمخاصمة للذين كفروا إذا أصروا على عنادهم وتكذيبهم ، ومخالفتهم لأهل الحق .

وقد مضى مثل هذا القول في قصة نوح في قوله (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) (هود 28)

قوله (وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ) (هود/122) تأكيد علي ثقة المؤمن في وعد الله تعالى ، ذلك أن كلا الفريقين يمضيان في طريقهما ، **فأهل الحق يعملون ما يرضي الله تعالى** ، وأهل الباطل مستمرون في صد الناس عن سبيل الله ، وقد وعد الله تعالى أهل كل طريق ما يستحقه في الدنيا والآخرة ، وليس بعد ذلك إلا انتظار تحقيق وعد الله ، فيقول أهل الحق (**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ** وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (الزمر 74) ،

---

[1]) زاد المسير ج3 ص 393
[2]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 5
3) قال ابن الجزي وغيره (الإشارة إلى السورة) : انظر التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 719 ومثله عن ابن عباس : انظر تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 284
[4]) ذكره الالوسي في تفسيره ج8 ص 412 عن الحسن
[5]) تفسير ابن كثير ج4 ص 363

ويقول أهل الباطل (**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا** وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) (المؤمنون 107) .

قوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ..) (هود/123) قصر الله علم الغيب عليه سبحانه فلا يعلم الغيب إلا هو ، وقصر مصير كل شيء إليه ، فلله الأمر من قبل ومن بعد ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهاتان المقدمتان (علم الغيب) ، (تفويض المصير إليه سبحانه) **أساس الاعتقاد في الله** ، **وينبني عليهما تكليفين عمليين**:-

الأول (العبادة) ، والثاني (التوكل) ، وكلاهما مقترن ببعض .

قوله (...فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ..) آخر إيصال لنبيه في هذه السورة ، ليلتزم العبادة والتوكل عليه سبحانه ، كما في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) .

قال حقي (وفي تأخير الأمرِ بالتوكل عن الأمر بالعبادة إشعارٌ بأنه لا ينفع دونها)[1]، وقال إسماعيل حقي أي (فوض إليه جميع أمورك فإنه كافيك وعاصمك من شرهم ، فعليك تبليغ ما أوحينا إليك بقلب فسيح غير مبال بعداوتهم وعتوهم وسفههم)[2] .

يقول سيد قطب (وهكذا تختم السورة التي بدئت بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله في النهاية . بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده . والرجعة إليه في نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون وأغوار النفس وأطوار القرون . .)

قوله (..وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (هود/123)ختام السورة ، (والخطاب لكلا الفريقين المؤمن والكافر ، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته) [3]، فلم يقل (وما ربك بغافل عما يعملون) **فالمخاطب هو النبي ومعه أصحابه والمؤمنون في كل زمان** ، لكن أن يأتي الفعل بلفظ (تعملون) وليس (يعملون) يعني كلا الفريقين ، قال الزمخشري (أي أنت وهم على تغليب المخاطب) [4]، وقال أبو السعود (عمَّا تعملُ أنتَ من الحسناتِ وما تعملونَ أنتُم أيُّها الكفرةُ من السيئاتِ فيُجازي كُلاًّ منكم بعملِه لا محالةَ)[5].

لكن لا يخفى أن **ثمة أحداث تجري على خلاف الظاهر** ، فكم من مدعي أنه من أهل الدعوة وهو يصد عن سبيل الله ، وكم من مرتد بعد وفاة رسول الله ﷺ ، ولذلك فإن من كان حاله مثل ذلك فالله يهدده بأنه ليس بغافل عما يعمل ، لاسيما إذا كان من **أهل الطغيان** كما في قوله (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (112) ، فمن يطغى فالله عليم بما يفعل ولا يغفل عنه أبدا ؛وذلك كقوله تعالى: (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) .

---

1) تفسير أبي السعود ج3 ص 400
2) تفسير حقي ج6 ص 34
3) الوجيز للنيسابوري ج1 ص 355
4) الكشاف ج3 ص 138
5) تفسير أبي السعود ج5 ص 217

وقد كان النبي ﷺ حريصا ألا يظلم أحدا وهو يمارس واجباته الدعوية ، فكان يسلم نفسه للقصاص إذا ما تراءى له أنه وقع في الظلم ، فقد روي عن أسيد بن حضير : أن رجلا كان يضحك عند النبي ﷺ إذ قال رسول الله ﷺ بإصبعه في خاصرته قال : قتلتني يا رسول الله قال : (**اقتص**) قال : إن عليك قميصا ولم يكن علي قميص فرفع رسول الله ﷺ قميصه حتى بدا كشحه فاحتضنه وجعل يقبل كشحه ويقول : بأبي وأمي هذا أردت)[1].

[1]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج1 ص 206 رقم 561 وقال الذهبي : إسناده قوي : المهذب في اختصار السنن ج6ص3137 ومثله عند أبي داود في سننه ج13 ص 455 رقم 4547 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج11 ص 224

فهرس الموضوعات

تمهيد :- 2
محتوى الموضوعات 5
مقدمة سورة هود الآيات (من 1 حتى 4) 6
منهج الإصلاح يرتكز على إجمال المطلوب ثم تفصيل المراد 6
المحور الأول 20
توصيف مواطن الخلل –إجمالا– عند من اعوج عن الصراط 20
المحور الثاني 40
استقامة نوح في دعوته الإصلاحية على منهج الولاء للمؤمنين وهم قلة ، والبراء من ابنه وهو كافر 40
المحور الثالث 62
استقامة هود مع المؤمنين علي البلاغ للمجرمين الجبارين حتى جاء الأمر بالاستبدال واستخلافهم 62
المحور الرابع 74
استقامة صالح على الرجاء في الله 74
دون اكتراث لرجاء قومه فيه أو عنادهم معه 74
المحور الخامس 81
استقامة ابراهيم علي التزام الدعاء قوبلت ببشرى الاستجابة ، واستقامته على المجادلة بالحق توافقت مع أمر الله 81
المحور السادس 90
استقامة لوط على إنكار المنكر –حال الضعف– تكللت بالفرج 90
المحور السابع 97
استقامة شعيب على إصلاح الفساد التجاري حتى جاء وقت المفاصلة عندما هددوه بالرجم 97
المحور الثامن 111
استقامة موسى على الصدع بالحق في وجه فرعون دون اكتراث لعدد الأتباع 111
المحور التاسع 115
أخذ الله القرى الظالمة في الدنيا هو بداية لجمعهم يوم القيامة 115
المحور العاشر 121
إيصاء النبي محمد ﷺ وأصحابه وتابعيهم بالاستقامة 121
الجزء الأول من الوصايا 122
الاستقامة على علي علاج أصل الضلال وهو التحرير من التبعية العمياء 122
الجزء الثاني من الوصايا 126
الاستقامة على حد الاعتدال في الدعوة دون ركون للظالمين 126
الجزء الثالث من الوصايا 129
الاستقامة على الالتزام بحالي الشكر والصبر 129
خاتمة سورة هود 130
تثبيت فؤاد النبي ﷺ على معنى أن الإصلاح يمنع هلاك القرى 130
فهرس الموضوعات 136